

لوكيوس أبوليوس

تَجَوَّلَات

المَحْجَشُ الذَّهَبِيُّ



ترجمة

د . علي فهمي خشيم



تحولات الجحش الذهبي

رواية

تأليف : لوكيوس أبوليوس

ترجمة : د. علي فهمي خشيم

لوحة الغلاف والرسوم الداخلية للفنان : عمران القيسي

الطبعة العربية الثالثة : ابريل ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٩٧/١٣٦٣٧

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-291-043-8



السلسلة الأدبية

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

المشرف العام

على السلسلة الأدبية

خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكتروني

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : صفاء الشريف

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

لوكيوس أبوليوس المدوري

مكتبة يوسف النوراني

خوارزم

الجدد الذهبى

رواية

ترجمة

د. علي فهمي خشيم



تقدير

كلما ذكر اسم «أبوليوس» فى مصدر من المصادر ، أو مجلس من المجالس ، قفزت إلى الأذهان مباشرة صورة ذلك «البحش الذهبى» العجيب وهو يمرح هنا وهناك ، يمر بمغامرة ليدخل أخرى وينتقل من مكان إلى آخر ، يختزن فى ذاكرته المدهشة ما صادفه من قصص وأحداث ، ليرويها فيما بعد للأجيال ويسجلها أثراً من أخلد الآثار الأدبية فى العالم ، وتفرج الشفاء عن ابتسامة ، وترتفع الأكف لتخفى ضحكة تغالب صاحبها حين يذكر فقرات هذه الرواية التى تطالعها بعد قليل .

أبوليوس - واسمة الكامل تقديرأ : لوكيوس أبوليوس المدور ، نسبة إلى بلدة Madaura على أعالي نهر مجردة ما بين الجزائر وتونس - ولد حوالى سنة 125 وتوفى بعد سنة 180 للميلاد . وهو ينتسب إلى قبيلة الغايتولى الليبية القديمة (والتي صارت تعرف فيما بعد باسم «جديلة» بعد الفتح الاسلامى) ، تلقى علومه فى قرطاجنة ، وأثينا ، وروما . وعرف عنه اهتمامه بالفلسفة والأدب والطب وعلوم ما وراء الطبيعة ، وعنايته بما يعرف باسم السحر عناية خاصة . ونال شهرة واسعة فى هذه المجالات كلها ، وصارت مؤلفاته تعد من أهم ما أنتجته حضارة اللغة اللاتينية فى العصور القديمة . ومن أهم آثاره التى وصلتنا : الأزاهير (Florida) - هى مجموعة محاضرات ومقالات فى الفلسفة والأدب ، ثم الدفاع (Apologia) وهو مرافعة بليغة ألقاها فى مدينة صبراته الليبية حين اتهم باستعمال السحر ليتزوج من أرملة ثرية فى مدينة أويا (طرابلس الآن) ويستحوذ على ثروتها، ثم : قرين سقراط (de Deo Socratis) وهو كتاب فى الفلسفة

السقراطية (*) وأخيراً هذه الرواية التى بين يديك .

تعرف هذه الرواية فى المصادر القديمة باسم Metamorphoses التحول ، أو التحولات ، أو المسخ - إن شئت .. لكنها عرفت أيضاً باسم «الجحش الذهبى Assinus Aureus ذلك لأن أبوليوس أتبع فى كتابتها أسلوب القصّاصين الذين ينتحى أحدهم جانباً من السوق ويصيح ليجمع المستمعين : «إعطينى قطعة من النحاس وسأقص عليك حكاية ذهبية !» فكلمة «الذهبي» أو «الذهبية» إذن كانت وصفاً للقصّة - فصارت وصفاً لجحش أبوليوس .

فى الأصل اللاتينى تميزت هذه الرواية بثلاثة أشياء : لغتها ، وأحداثها ، وأفكارها . وهى نقلت إلى أغلب اللغات الحية ، ومن أهمها الانكليزية التى نقلت عنها إلى العربية . أما فى اللاتينية فقد كانت مبعث اهتمام الأقدمين والمحدثين ، لغرابة ألفاظها وتركيب عباراتها وجملها ، وكان الكاتب مغرمّاً بالحوشى من الكلمات واللعب بالمعانى عن طريق التلاعب بالألفاظ حتى صارت بعض عباراتها أمثالا مشهورة فى أدب اللاتين . وعندما ترجمت إلى الانكليزية على يد Adlington كان حرصه بالغاً على نقل هذا الأسلوب ، فكانت أثراً معقداً شديد التعقيد . ثم ترجمها مجهول نشرها فى Bohn Classical Library سنة 1881م ، ولم يتخلص من سطوة أسلوب أبوليوس الأصيل إلا قليلاً . فلما جاء الشاعر المعروف روبرت غريلز R. Graves وترجمها من جديد استطاع بشاعريته وإدراكه لروح المؤلف والنص أن يكسبها طلاوة مدهشة نالت استحسان القراء حتى طبعت أكثر من عشر مرات ما بين سنتي 1950 - 1976م . وعنه نقلت إلى العربية ،

* لمزيد من التفصيل عن حياة أبوليوس وأعماله وأسلوبه وما يتعلق به يمكن للقارئ العودة إلى :

(1) دفاع صبراته - الشركة العامة للنشر والإعلان والتوزيع - طرابلس .

(2) الأزاهير : سلسلة كتاب الشعب . العدد 4 من السنة الثانية . الناشر نفسه - للمترجم .

وحاولت قدر الإمكان الاهتمام بالجمع بين الحفاظ على روح النص وتقريب الأسلوب ، ومتابعة المؤلف فى ما عرف عنه من مزج بين الفكاهة والجد ، والدعابة والفكر ، والتشويق وإمعان النظر فى تسلسل منطقى رائق، رغم ما يبدو من غياب المنطق أحياناً يفسره أبوليوس تفسيراً منطقياً مقبولاً .
وأما الأحداث فإننى لا أريد أن أسبق القارئ وأخبره بما جرى وكان . وهذا أبوليوس أمامه أقدر على حكاية ما رأى وسمع وما حدث له من البداية حتى النهاية . لكن تبقى ضرورة الإشارة إلى أثر هذه الرواية فى كثير من عيون الأدب العالمى وتأثيرها فى أسماء لامعة فى هذا المجال ، فهى بقدمها وسبقها وانتشارها فى أوروبا كانت مصدر إلهام لا ينكر فى «دون كيشوت» للأسباني سرفانتس و «حكايات كانتربري» للانكليزي شوسر و «دى كامبيرون» للإيطالى بوكاشيو . وتكفى هذه الإشارة لإدراك أهميتها وعمق تأثيرها .

وأما الأفكار فهى ماثورة فى ثنايا الرواية من أولها إلى آخرها ، أفكار فى الفلسفة ، وما وراء الطبيعة ، والفن ، والعلم ، والاجتماع ، والدين ، وفى أغلب مجالات الحياة - كل ذلك بمقاييس العصر ومفهوماته بل وتعبيراته أيضاً . إن أبوليوس (الجحش) يرصد كل حركة مما يصادفه ويترصده كل ظاهرة من الظواهر تقابله ، ويصف بأسلوبه البارع كل شئ تقع عليه عينه - أو لا تقع ، وهذه ميزة مؤلفنا الخارقة ، تلك الدقة العجيبة فى الوصول إلى أعماق الحدث أو الشئ ، وذلك التفصيل الممتع للجزئيات والقدرة على أن يجعل قارئه «يعيش» معه كأنه يرى ما يصف . يتساوى الأمر لديه حين يصف رجلاً خصيباً ، أو يقدم نموذجاً نفسياً أو موقفاً عاطفياً ، أو يحلل دوافع السلوك البشرى فى أمر من الأمور ، متخذاً من تحوله السحرى ستاراً يعرض من ورائه أفكاره وآراءه فى ما حوله آنذاك .

هذه الأفكار والآراء ، فى جملتها هى ما كانت تروج بين الناس يومئذ ، وعلى هذا الأساس ينبغى النظر إليها ، بتحديد عصرها وظروفها التاريخية المعروفة ، فالحديث عن آلهة متعددين مثلاً وتصوير تصرفاتهم دون حرج ، بل والسخرية من بعضهم ، كان أمراً عادياً جداً . كما أن تبجيل بعضهم الآخر - مثل الربة إيزيس عند مؤلفنا - على أساس العبادة لهم كان مسألة لا غبار عليها يومها ، وعلى كل حال فإنه لا ينتظر من رجل عاش قبل ألف وثمانمائة من السنين أن يفكر فى القضايا الدينية خاصة بالطريقة ذاتها التى نفكر نحن بها اليوم . لكن يلاحظ فيما عدا هذا ، أن أبوليوس كان إنساناً ربما سبق عصره فى التعبير عن المأسى البشرية وآلامها ، حين يصف عمال الطاحونة مثلاً أو بؤس الزوج الفقير المخدوع ، وما شابها مما ستقرأه بعد .

كان عرض أبوليوس للأحداث صريحاً فى بعض المواقف صراحة تخذش الحياء ، لا يتحرج أن يبلغ فى عرضه مبلغ ما يسمى «الأدب المكشوف» فتجاوزت عن بعض الفقرات يلحظها القارئ فى موطنها ، وتصرفت فى بعض الجمل بما لا يؤثر فى سياق الرواية ، وهى قليلة جداً ، وأزلت عنها بعض الشوائب التى لا تتفق مع تقاليد الكتاب العربى .

وبعد ..

فهذه رواية «الجحش الذهبى» أقدمها لك باللغة العربية بعد أن استمتعت بها مرات فى نصها الانكليزى ، أردت أن أشركك معى فى متعة القراءة والنظر ، وأرجو أن أكون وفقت .

فلتمض الآن فى قراءتك .. ولك أن تستمتع كما شئت !

هاى غيت - لندن

يونيو 1979م

د. على فهمى خشيم

حكاية أريستومينيس

فى يوم من الأيام أخذنى داعى العمل إلى ثساليا ، منشأ أهل والدتى ، فأنا بالمناسبة أمتاز بصلة النسب ، عن طريق أمى ، إلى بلوتارخ الشهير . وبعد أن اجتزت ذات صباح سلسلة تلال مرتفعة على صهوة جوادى ، هابطاً سيلاً منحدرأ ، مخترقاً المراعى الندية والأرض المحروثة الريانة ، أخذ جوادى الثسالى الأبيض الأصيل يلهث ويبطئ من خطواته . كنت أنا أيضاً أحس بالتعب بعد جلوسى الطويل مشدوداً إلى السرج ، فترجلت من فوق ظهره وشرعت أمسح جبهته الناضحة بالعرق بحفنة من أوراق الشجر ، ثم ربت على أذنيه وارخيت له العنان وطفقت احاذيه راجلاً لكى يرتاح ويسترجع انفاسه . وبينما بدأ جوادى فى تناول إفطاره ، ملتهمأ ملء فمه عشباً من أحد جانبي الطريق عبر المروج ، لمحت رجلين يبدان متحاذيين على مسافة قريبة قدامى وهما مستغرقان فى الحديث . حثت خطاى يدفعنى الفضول لمعرفة ما كانا يتحدثان عنه ، وما أن قاربتهما حتى انفجر احدهما فى ضحكة عالية قائلاً للآخر : « كفى .. كفى ! لاتزد كلمة أخرى ! لا قبل لى بسماع كذبة واحدة أخرى من أكاذيبك الفظيعة ! » .

كان هذا بشارة بشيء جديد . فخاطبت راوى القصة قائلاً : « أرجو الا تحسبنى فضولياً أو مجرداً من الحياء يا سيدى . لكننى دائم الرغبة فى أن ازداد تعلمأ ، وقليل جداً من الموضوعات لا يجذب اهتمامى . سأكون شاكراً لك أكبر الشكر لو تفضلت بالعودة إلى بداية قصتك وسردتها لى

عن آخرها ، إذ يبدو انها ستعيني على صعود التل أمامنا هائى البال .

مضى الرجل الذى ضحك من قبل يقول : « لا أريد شيئاً من ذلك الهراء .
أسمع ؟ يمكنك أيضاً أن تقول إن السحر قادر على أن يجعل الأنهار تجري
القهقري ، أو يجمد المحيط ، أو يوقف الرياح ، أو يسمّر الشمس فى كبد
السماء ، أو يجعل القمر يقطر ندى ساماً ، أو يحيد الأنجم عن مداراتها . بل
لعله يمكنك القول إن النهار قد يُمحى بالسحر ويستبدل بليل سرمدى ! » .

فأصررت على موقفى قائلاً : « كلا يا سيدى .. لا يصدنك هذا . أكمل
قصتك . أرجوك أن تكملها - اللهم إلا إذا كنت أطلب منك أكثر مما
ينبغى » ثم التفت إلى الرجل الثانى وقلت : « أما أنت يا سيدى .. أوافق أنه
ليس الغباء الطبيعى أو العناد الموروث هو الذى يمنعك من إدراك حقيقة ما
كان صاحبك يحاول أن ينبئك به ؟ إن الأغبياء من البشر هم الذين لا
يصدقون ما يحدث نادراً أو لا تستطيع عقولهم إدراكه . ومع ذلك .. إذا
فُحصت هذه الأمور بدقة وجدّ فى الغالب أنها ليست محتملة فحسب بل
هى مرجحة ايضاً . قل لى مثلاً ، ما هو تفسيرك لما حدث لى ؟ لقد تحدانى
البارحة بعضهم عند العشاء على مائدته لأسابقه فى التهام الطعام . وقد
حاولت أن ازدداد ملء فمى جبناً . كانت قطعة الجبن من الرخاوة والنعومة
بحيث انحسرت فى منتصف حلقي فسدت قصبتى الهوائية وكدت اقضى
اختناقاً ، بينما شاهدت قبلها بأيام فى أثينا أحد المشعوذين يتلع بالفعل سيفاً
مرهفاً مبتدئاً من طرفه ، ثم جمع قطعاً قليلة من المال من المتفرجين ، وابتلع
بعدها رمح صيد بالطريقة ذاتها . وقد راقبناه يميل رأسه إلى الوراء ومقبض
الرمح بارز خارج حلقومه . وفى هذه الأثناء ، صدق أو لا تصدق ، شرع
صبى مליح فى الالتفاف حول ذلك المقبض بحركات بهلوانية حتى لتظننه
الافعى الملكية ملتفة حول هراوة الزيتون المنزوعة الأوراق تلك التى يحملها
إله الطب . وقد بدأ الصبى وكأن جسده خال تماماً من العظام والعضلات ،

ثم التفت كرهةً أخرى إلى الرجل الأول وأضفت : «هيا يا سيدى .. بادرنى بحكاياتك . عهدٌ عليّ ألا أُصدقها فحسب ، حتى وإن كذبها صاحبك ، بل أن ابدى لك امتنانى للطفك بأن أدعوك إلى وجبة عند اقرب خان» .

قال الرجل : «اشكرك جزيل الشكر على عرضك الكريم . بيد انى لست فى حاجة الى جزاء لأنبئك بقصتى وكل كلمة فيها - واقسم لك بالشمس التى ترى كل شئ - صادقة كل الصدق ولن تحتاج أصيل هذا اليوم حين نبلغ هوباتا ، اهم مدن تساليا ، إلى أن تكون فى ريب من صدقتها فالناس جميعاً هناك يعرفون قصة ما حدث لى ، إذ لم تكن بحال من الأحوال مسألة شخصية كما ترى . يجب أن أبدأ بتعريف نفسى ، اسمى ومهنتى وما اليهما . انا من أجينيا ، اعمل بتجارة المواد الغذائية بالجملة وانتقل باستمرار على طول تساليا وعرضها وكذلك ايتوليا وبويتيا . اشترى العسل والجن وما شاكلهما من البضاعة - اسمى اريستوميس - فى خدمتك ! جاءتنى الأخبار ذات يوم فى هوباتا بأن كمية كبيرة من بواكير الجن معروضة هناك بثمن مغر للغاية ، فأسرعت منطلقاً اليها فى الحال . لكن - وكما يحدث غالباً فى ميدان التجارة - جانب رحلتى التوفيق ، إذ وجدت بمجرد وصولى أن رجلاً آخر يدعى لوبوس ، وهو تاجر كبير ، ابتاع كل ما فى السوق قبل وصولى بيوم واحد ، فقصدت من فورى الحمامات العمومية لأجد ، لدهشتى ، صديقى القديم سقراط . عرفته بصعوبة ، فقد بدا شاحباً ونحيفاً بشكل مزرع جالساً على الأرض نصف كاس بعباءة قدرة رثة من مدرسة ، كأنه بالضبط شحاذ على قارعة الطريق . وعلى الرغم من اننا كنا ذات يوم صديقين حميمين فقد ترددت قليلاً قبل أن احييه .

«يا سلام .. يا عزيزى سقراط !» قلت له أخيراً «هلا أنبأتنى ما معنى هذا كله ؟ لم أنت قاعد هنا بهذه الحالة المزرية ؟ هل ارتكبت جرماً؟ ألا تعلم انك تعتبر ، رسمياً ، فى عداد الأموات وأن أهلك بكوك وودعوك الوداع

الأخير ؟ أطفالك الآن تحت وصاية محكمة المقاطعة ، وزوجتك المسكينة التى كادت تعمى من البكاء عليك يحشها أبواها على الزواج ثانية لتلم شتات الأسرة من جديد، وها أنت الآن تظهر كالشبح ! حقيقة .. هذا أمر مزعج» .

فأجاب : «اوه يا اريستومنيس ! لو دريت ما تستطيع ربة الحظ أن تلاعب به إنساناً من خدع بالغة السوء لما خاطبتنى أبداً كما فعلت» ثم احمر وجهه وجذب الخرق على وجهه مما أدى إلى أن ينكشف نصف جسده الأسفل من السرة فما تحتها .

لم أعد احتمل أكثر مما فعلت ، فأمسكت به وحاولت شده فوق الأرض غير انه قاومنى وغمغم : «دعنى وشأنى ... دعنى وشأنى ! دع ربة الحظ تسلك سبيلها وتستمتع بانتصارها على بقد ما يرضيها» واخيراً وعد ، على كل حال ، بأن يأتى معى . فأخذت أحد الثوبين اللذين كنت ارتديهما وكسوته اياه ، ثم اسرعت به إلى حمام خاص حيث دعكته جيداً ونزعت من فوق جسده طبقات عدة من القذر . ورغم تعبى أنا وإجهادى استطعت آخر الأمر أن أجره معى إلى الحنان الذى كنت انزله حيث مددته على فراش وقدمت له طعاماً وفيراً وخمراً كثيراً وآخر أخبار الوطن . وبعد قليل انفرجت أساريه وبدأنا نضحك ونمرح سوياً فى صخب عال . فجأة أطلق تنهيدة عميقة وخطب جبينه بقبضتيه وصرخ : «آه ما أشقانى ! بدأت المسألة كلها برغبتى فى مشاهدة عرض المصارعة الذى كثر عنه الحديث بالقرب من لاريسا . كنت ذهبت إلى مقدونيا فى عمل ، كما قد تعرف ، وكنت آيياً إلى بلدى بعد غيبة عشرة شهور أحمل معى مبلغاً كبيراً من المال حين قطع اللصوص عليّ الطريق ، قبيل وصولى لاريسا ، فى واد موحش وسلبونى كل شئ بالفعل ما عدا حياتى ، وتمكنت فى النهاية أن أفلت منهم وبلغت هذه البلدة فى آخر رمق . وهنا قصدت خاناً تديره امرأة تدعى ميروى . لم

تكن صغيرة السن لكنها كانت بالغة الجاذبية وحين أخبرتها بقصتي المحزنة وبينت شوقي للعودة إلى وطني بعد طول غيابي تظاهرت بعطف بالغ ، وطهت لى عشاءً فاحراً رفضت أن تقبض عنه ثمناً ، ثم دفعتني للنوم معها . ومنذ اللحظة الأولى التي صعدت فيها إلى فراشها تعطل عقلي وانهارت إرادتي . وكنت أعطيها كل ما أحصل عليه من نقود عن طريق حمل الأمتعة ما كنت قادراً على العمل ، فلما اشتد ضعفى قدمت لها الثياب التي تركها لى اللصوص الطيبون لأستر بها عورتى . وها أنت ترى الحال التي قادني إليها الحظ العائر وامرأة جميلة» .

«يا الهى !» قلت «تستحق هذا كله وأكثر لو أمكن ، إذ هجرت بيتك وأولادك وجعلت من نفسك عبداً لكلبة عجوز كهذه» .

فصاح «صه .. صه» وسبابته على شفثيه وهو يتلفت من حوله خشية أن يكون سمعنا أحد «لأثقل شيئاً يسئ إلى تلك المرأة الرائعة والا أهلكك لسانك» .

«حقاً ؟!» قلت «إذن أى نوع من أصحاب الخانات هي ؟» .

من أسلوب كلامك قد يحسبها السامع امبراطورة مطلقة السلطة تمتلك قوى خارقة» .

فأجاب فى نغمة توقيير كاملة : «أقول لك يا اريستومنيس ، إن سيدتى ميروى قادرة ، لو شاءت ، أن تنزل السماء أو ترفع الأرض ، أن توقف النهر الجارى أو تفتت الجبل الصخرى ، أن تبعث أجداث الموتى أو تطوح بالأرباب من فوق عروشها ، أن تطفى الأنجم الساطعة أو تضىء أرض الظلال المظلمة» .

«ها .. هيا يا سقراط . هذه لغة المسرح ! ارخ الستارة بحق السماء وارو لى القصة بكلمات واضحة» .

أجاب : «هل يقنعك مثل واحد فحسب بما لديها من سلطان ؟ أو لعلك تبغى مثلين أو أكثر ؟ أم أحدثك عن قدرتها على إيقاع الرجال فى حبها اللاهب - ليس اليونانيون فحسب ، بل الهنود والمصريون الشرقيون والغربيون ، بل حتى إن شاءت أهل أنتبوديس الأسطوريون . هذه عينة صغيرة ليس غير عن قواها الخارقة . إن ترد سماع أعاجيب أكبر قدمتها أمام شهود عدول فسوف أذكر بعضاً منها . حسن ..

أولاً : جرؤ أحد عشاقها على معاشرة امرأة أخرى ، فلم تفعل سوى أن تمت بكلمة واحدة فإذ به يتحول إلى قندس» .

«لماذا إلى قندس بالذات ؟»

«لأن القندس إذا ما باغته الطراد قضم خصتيه وألقاهما على ضفة النهر ليبعد عنه كلاب الصيد وقد رمت مبروى إلى أن يحدث لعشيقتها هذا الأمر . ثم هناك صاحب الخان العجوز ، جاراها ومنافسها ، الذى مسخته إلى ضفدعة . وها هو العجوز التبعس يعوم الآن فى خابية من خوابى خمره ، أو يدفن نفسه فى رواسبه وهو يتق بصوت غليظ موقظاً زبائنه : قوموا ! قوموا ! ثم المحامى الذى رغب فى مقاضاتها ، كان عقابه قرنى كبش ، وتستطيع الآن أن تراه أى يوم فى ساحة المحكمة يشغو بقضيته ويلقى بمرافعاته البليغة ، والقرنان الفظيعان بيرزان ملويين من جهته . وأخيراً .. عندما تحدثت عنها زوجة أحد عشاقها بسوء عاقبتها مبروى بحمل سرمدى بأن القت على بطنها سحراً منع الطفل من أن يولد . كان هذا منذ حوالى ثمانى سنوات ، والمرأة البائسة تنتفخ شهراً بعد شهر حتى لتعتقد بأنها على وشك أن تضع فيلاً صغيراً !» .

«لكن متى عرف الجميع هذه الأشياء ؟» .

«كان هناك اجتماع سخط عام تقرر فيه رجمها بالحجارة فى اليوم التالى

حتى الموت . وكانت فُضلة هذا اليوم الواحد كافية لميروي ، تماماً كما كانت كافية بالنسبة لميديا حين أمرها الملك كريون بمغادرة كورنثه . تذكر أن ميديا اشعلت النار فى تاج عروس من خدعها ، فشبت النار فى القصر حالاً وماتت العروس الجديدة وكريون نفسه احتراقاً . أما ميروي - كما اسرت إلى وهى سكرانة فى صباح اليوم التالى - فقد حفرت خندقاً والقت عليه بعض التعاويذ وعن طريق قوة الأرواح الظلمانية التى استحضرتها طلسمت مداخل وأبواب كل بيت فى هوباتا ، ولمدة ثمان واربعين ساعة لم يستطع أحد أن يخرج إلى الطريق حتى ولو بحفر نفق فى جدار البيت . وفى النهاية كان على أهل المدينة كلها أن يضرعوا إليها من خلال النوافذ آخذين عهداً على أنفسهم ألا يكذبوا صفوها مطلقاً إن اطلقت سراهم ، بل على العكس يدفعون عنها كل اذى . ثم رقت لحالهم وابطلت اثر السحر ، بيد انها انتقمت من زعيم الاجتماع بأن طوحت سكنه فى منتصف الليل الجدران والأرضيات والأسس برمتها وهو نفسه داخل داره - إلى بلدة تبعد مائة ميل ، تقع على تل لا ماء فيه ، يعتمد أهلها على ماء المطر فى كل غرض ، وكانت مبانيها شديدة التلاصق حتى لم يكن ثم موقع لوضع المنزل فيه ، فأمرت بأن يلقى به خارج أسوار البلدة .

«عزيزى سقراط» قلت «هذه فى الحق حكايات رائعة جداً ، ومفزعة جداً بكل تأكيد ، وقد بدأ الخوف يتسرب إلى نفسى . بل الحقيقة اننى خائف فعلاً . لنفرض أن الأرواح الشريرة اخبرت حيزبونك بكل ما كنا نقوله ؟! ما رأيك فى النوم الآن ؟ إن الليل لايزال فى أوله ولنا أن نرحل مبكرين صباح الغد ، ونبتعد عن هذا الجحر الملعون بقدر ما تأخذنا أقدامنا» .

وفيما كنت اتكلم استغرق سقراط البائس فى النوم فجأة وبدأ شخيره يعلو ، وكان هذا أثراً طبيعياً لوجبة دسمة وقدر كبير من الخمر فى رجل بمثل حالته المنهكة . فأقفلت باب غرفة النوم واوصدته ، ودفعت برأس

سريرى نحو المفصل ، ونفضت الفراش ثم تمددت . لم استطع النوم لبرهة بسبب قصص سقراط المتهورة . وحوالى منتصف الليل ، وكان النعاس سيطر على أجفاني براحة ، صحويت على صوت كسر مفاجئ وانفتح الباب بقوة اكبر من لو أن مجموعة لصوص داهمته بأكتافها . انفتح القفل والرتاج والمعاليق كلها دفعة واحدة وارتفع سريرى المتآكل ، والذي كان اقصر من قامتى وذا رجل مكسورة ، فى الهواء ووقع رأساً على عقب جائماً على وأنا من تحته .

الانفعالات حالات متناقضة ، تعرف أن المرء يبكى من اثر الفرحة الطاغية . حسن .. بعد هذه الصحوة المربعة وجدتنى اقهقه واضاحك نفسى قائلاً : «يا سلام .. يا اريستومينس . لقد مسخت سلحفاة !» ورغم طرحى ارضاً احسست بالأمان تحت السرير ، فأخرجت رأسى من جانبه مثل سلحفاة تلصص من تحت درقتها لأرى ما سيحدث بعدئذ . وفى الحال دخلت عجوزان فظيعتان تحمل إحداهما شعلة موقدة فى يدها ، وتحمل الأخرى اسفنجة وسيفاً مصلتاً . وقفنا عند رأس سقراط ، الذى كان لا يزال مستغرقاً فى نومه ، وقالت ذات السيف للأخرى : «انظرى يا اختى بانثيا ! ها هو الرجل الذى اخترت أن يكون حبيبى - تنازلت كما اختارت الربة ديانا الراعى اندميون أو كما اختار جوبيتير غانوميد الوسيم الصغير . وكم ذا امتعته كذلك ! غير انه لم يرد هواى الطفلى بمثله بل خدعنى بالليل والنهار . وها انذا اضبطه لا ناشراً الأقاويل عنى فحسب بل مخططاً للفرار فعلاً ! هل يظن نفسه اوديسيوس ويتوقع منى أن أولول وانتحب مثل كاليبسو لما استيقظت والفت نفسها وحيدة على جزيرتها ١٩» ثم أشارت إليّ وقالت : «وهذا المخلوق المبرز رأسه من تحت السرير . هو اريستومينس الذى قاده إلى سوء السلوك . إن حسب أنه سينجو منى فقد اقترف غلطة عمره . سأجعله يندم ، ولات ساعة مندم ، على كل ما قاله عنى من قبائح وإهانات فى أول

هذه الليلة وعلى تدخله فى ما لا يعنيه» .

نضح من جسدى عرق بارد ، وصرت ارتعد بعنف ، حتى جعلت رعدتى السرير يهتز ويتراقص من فوقى . لكن بانثيا قالت لميروى (لا يمكن إلا أن تكون ميروى) : «هل نقطعه إربا فى التوى اختاه ، أم نعلقه من عقبيه فى السقف ونتركه يتأرجح ونفعل به بعدها ما نشاء؟» .

«كلا .. كلا يا عزيزتى . لا شئ من هذا . دعيه قليلاً إن حبيبى سقراط يحتاج غداً إلى من يحفر له قبراً فى مكان ما» ثم أدارت رأس سقراط على الوسادة ، وهى ماضية فى كلامها ورأيتها تغرز السيف حتى مقبضه فى جانب عنقه الأيسر . تفجر الدم ، وكان لديها وعاء صغير مهياً احتوى كل قطرة تحدرت من دمه . كانت حنجرة سقراط قد حزت ، بيد أنه أطلق ما يشبه الصرخة ، أو لعلها غرغرة غير واضحة ، ثم همد . ولكى تكمل شعائر القربان بما كان عاداتها ، فيما أظن ، دفعت تلك المرأة الساحرة يدها من خلال الجرح عميقاً فى جسد صاحبى المسكين ، وجالت بها فيه ، ثم أخرجت قلبه ، غير أن بانثيا أخذت الاسفنجة منها وأوقفت بها الجرح عن النزيف وهى تهمهم :

«اسفنجة .. يا اسفنجة

المأخوذة من ماء البحر ..

لا تمضى أبداً أبداً

من فوق النهر !»

ثم عبرتا الغرفة نحوى ، ورفعتا السرير ، وأوقعتا فوقى وبالتا فى وجهى . بعدها تركتاني ، وما أن عبرتا عتبة الغرفة حتى ارتفع الباب من تلقاء نفسه ، وكذلك الرتاج والقفل والروافد بطريقة عجيبة وثبت كل منها نفسه فى مكانه الأصلى .

تمددت على الأرض عرياناً اصطقق برداً ، يعمنى البول الكريه . «لابد أن الوليد يشعر بما أشعر به الآن !» هكذا قلت لنفسى «ولكن ما أبعد الفرق بيننا ! حياتى كلها من ورائى ، لا من أمامى . نعم .. أنا فى حكم الميت - مثل مجرم فى طريقه إلى الصלב . إذ ماذا سيحدث لى صباح الغد حين يعثرون على جثة سقراط مقطوع الحلق ؟ ما من أحد سيصدق روايتى . سيقولون : كان عليك أن تصيح فى طلب النجدة على الأقل إن لم تكن قادراً على مقارعة النساء . رجل ضخم شديد مثلك يسمح بحز عنق صديقه أمام ناظريه ولا ينبس ببنت شفة ؟! وسيقولون : كيف تفسر بقاءك أنت ذاتك على قيد الحياة ؟ لماذا لم تقتلاك باعتبارك شاهداً على الجريمة للقضاء على كل دليل ضدهما ؟ إن عقابك على بقائك حياً لتروى الحادثة هو الموت !» وكان عقلى يدور حول ما بدا لى آنذاك سلسلة من التعليلات بعد الموت للأفعال . وكان الليل وقتها قارب على نهايته ، فقررت آخر الأمر أن أتسلل من الخان قبل ابنلاح الفجر وألوذ بالفرار . أخذت صرة متاعى وجذبت رتاج الباب وأولجت المفتاح فى القفل ، غير أن الباب العجوز الأمين الذى انفتح منذ قليل من تلقاء نفسه ليسمح لعدوتى بالدخول ، أبى أن يأذن لى بالخروج ، حتى أدت المفتاح عشرين مرة يمنة ويسرة ، وأنا أصارع مقبض الباب . فلما خرجت إلى باحة الخان صحت : «هيه ! أيها البواب .. أين أنت ؟ افتح البوابة - أريد الخروج قبل طلوع النهار» .

كان البواب يتمدد عارياً على الأرض بجانب البوابة فأجابنى والنوم يغالبه : «ألا تدرى - كائناً من كنت - أن الطرق تعج بقطاعها ؟ لعلك متعب من الحياة ، أو لعل ضميرك يؤنبك على جريمة من الجرائم . لكن لا تظن أننى غبى بليد لأخاطر بحياتى فى سبيلك فأفتح لهم البوابة وأدعهم يدخلون» .

اعترضت قائلاً : «لكن الصبح يكاد أن يظهر . وعلى كل حال ، أرى

ضرر . يمكن للصوص إلحاقه بك ؟ أحسبك غيباً بالتأكيد إن كنت تخشاهم . إن عشرة من المصارعين المحترفين لا يستطيعون نوال شئ ذي قيمة من رجل عارٍ كما انت » .

ففتح الباب ، ثم انقلب على جانبه الآخر وسألنى بصوت دائح : « ما أدرانى أنك لم تقتل الرجل الذى جئت به مساء أمس وانت تلوذ بالفرار فى هذه الساعة الجهنية ؟ » .

ولن أنسى أبداً شعورى عندما قال هذا . رأيت الجحيم فاغراً فاهه لى والكلب ذا الرأس الثلاثة يزوم جائعاً . كنت مقتنعاً بأن امتناع مىروى عن حز عنقى إنما كان لنييتها أن ترانى أموت مصلوباً . فقفلت راجعاً إلى غرفتى عازماً على قتل نفسى بطريقتى الخاصة . لكن كيف لى بهذا ؟ كان على أن أطلب العون من سريرى ، فشرعت أخاطبه متملقاً : « ! إصغ إليّ أيها السرير ، أيها السرير الصغير ، الصديق الحق الوحيد الذى بقى لى فى هذه الدنيا القاسية ، زميل العناء والشاهد الوحيد على براءتى ، اتضرع اليك أيها السرير أن تمدنى بأداة نظيفة كاملة تخلصنى من شقائى .. فأنا فى أشد الشوق إلى الموت أيها السرير العزيز ! » ثم أخذت جزءاً من الحبل الذى يشد السرير وأنا أتوقع رده علىّ ، وربطت أحد طرفيه بخشبة بارزة فى السقف فوق النافذة وعقدت الطرف الآخر على هيئة مشنقة . ثم علوت السرير ، ووضعت عنقى فى الحبل المعقود ورفست السرير بقدمى .

كانت محاولتى الانتحار محاولة فاشلة ، فقد كان الحبل عتيقاً ومفتتاً فانقطع تحت وطأة ثقلى . هويت على الأرض متعثراً وتدحرجت وأنا ألهث متحشرج الأنفاس نحو جسم سقراط الذى كان متمدداً على فراشه غير بعيد . وفى تلك اللحظة دخل الباب وهو يصيح : « هيه .. أنت ! أنت يا من كنت منذ لحظة تعارك للخروج فى سرعة خارقة ، ماذا تفعل هناك ، تتمرغ كالخنزير وتقلب على الفراش ؟ ! » .

قبل أن أتمكن من الجواب قفز سقراط كما لو أنه أوقظ بغته ، وليس واضحاً إن كانت يقظته نتيجة سقوطى أم صوت البواب الغليظ ، وقال بعبوس : « طالما سمعت المسافرين يلعنون البوابين وأساليهم الفظة ، وأقسم أن لهم كل الحق فى ذلك ، لقد كنت مرهقاً وها هوذا الملعون يدخل الغرفة ويصيح بنا - بنية سرقة شئ ما فى غمرة غفلتنا بالتأكيد - ويفسد أعماق نوم ذقته منذ شهور » .

عند سماعى صوت سقراط قفزت طرباً وارتياحاً وأنا أصيح : « كلا .. كلا ! أنت خير بواب فى الدنيا الواسعة كلها وأنت أمين كالنهار ! لكن .. أنظر ، أنظر ! ها هو الرجل الذى اتهمنى منذ قليل فى غمرة دوخة سكره بأننى اغتلتك - صديقى الذى أحبه حب الوالد أو الأخ الشقيق » . ثم احتضنت سقراط وقبلته ، بيد انه ما لبث أن دفعنى بشدة قائلاً : « أووف ! إنك عفن كقعر كنيف ! » وشرع يلقي آراءه غير اللطيفة عن سبب حالتى تلك . وفى غمرة اضطرابى اختلقت له عذراً من الأعذار - نسيت ماذا كان - وغيرت مجرى الحديث بأسرع ما أمكن . ثم قبضت على يده وصرخت : « ماذا تنتظر ؟ لم لا ننتلق حالاً ونستمع بصفاء جو الصباح الباكر ؟ » فنفّ سقراط قائلاً : « لم لا ؟ » وضعت صرة متاعى على كتفى مرة أخرى ودفعت نفقة مبيتنا للبواب ، وبعد قليل كنت وسقراط فى الطريق .

عندما ابتعدنا عن البلدة بمسافة قصيرة ، وبدت الحقول أمامنا واضحة فى الشمس المشرقة ، ألقىت نظرة طويلة أتملى فيها عتق سقراط لأرى مكان انغراز السيف . لكن شيئاً لم يبد لى ففكرت : « ها هو سقراط فى تمام العافية كما عهدته ولا خدش به . لا جرح ، لا اسفنجة ، ولا حتى نغزة تظهر أين أغمد السيف منذ ساعتين مضتا فحسب . ياله من حلم مدهش كأنه حقيقة ! كان جنوناً منى أن أفرط فى الشراب » . ثم رفعت صوتى : « الأطباء على صواب . إن أنت ملأت معدتك ليلاً وغمرتها بالشراب لا بد أن تأتيك

الكوابيس . ذلك سبب نومي المضطرب البارحة بعد احتفالنا ، لقد رأيت حلماً مرعباً لا أزال أشعر معه أنني ملطخ بالدم » .

ضحك سقراط : « دم .. فعلاً !! الحقيقة المجردة أنك غمرت سريرك ولا تزال الرائحة تفوح منك ! لكنني أُنْفِقُ معك في سبب الكوابيس . أنا نفسي جِئْتُني حلم فظيع اللية البارحة أتذكره الآن . حلمت بأن حلقيومي قطع وشعرت بكل أحاسيس عذاب الجرح ، ثم استخرج شخص ما فؤادي ، وهي تجربة لا يمكن وصفها يجعلني مجرد تذكرها مريضاً . قدماي ترتعشان جداً الآن يجب علي الجلوس . هل لديك شيء يؤكل ؟ »

فتحت مزودي وأخذت منه شيئاً من الجبن والخبز : « ما رأيك في الإفطار هناك تحت شجرة الصنوبر الكبيرة تلك ؟ » هكذا سألته حينما اتخذنا مجلساً معاً لاحظت أن مظهر العافية عليه قد تلاشى وأن وجهه رغم أكله بضراوة ، كان يتحول إلى لون شجر البقس . ولا بد أنني كنت أبدو شاحباً أنا الآخر ، إذ تملكك رؤية تينك الغولتين الرهيتين عقلي من جديد وعاد إليه رعب الليلة الفائتة كله فجأة . تناولت قسمة من الخبز غير انها احتبست في حلقي ولم استطع بلعها أو إخراجها من فمي . كان قلقي يزداد شيئاً فشيئاً . هل سيعيش سقراط ؟ في تلك الأثناء كان بعض الناس يمرون غير بعيد ، وحين يسافر رجلان معاً ويموت أحدهما بشكل غامض على قارعة الطريق فطبيعي أن يحق الشك بالآخر . تناول سقراط وجبة ضخمة ، كمية هائلة من الخبز وقطعة كاملة تقريباً من الجبن ثم ذكر أنه عطشان . على بعد خطوات ، بجانب الطريق ، كان جدول يجري ررقاً ماراً بجذور شجرة الصنوبر . كان لامعاً كالفضة ، صافياً كالبلور . ساكناً كالبحيرة الصغيرة . « هلم هنا يا سقراط » قلت : « هذا يبدو أفضل من اللبن . إرتو منه » .

ومشي على حافة الجدول حتى ألقى مكاناً يناسبه ، فجثا على ركبتيه

وأحنى رأسه إلى الأمام ثم شرع يكرع الماء بنهم ، بيد انه ما كادت شفتاه تلامسان الماء حتى انفتح جرح عنقه على سعتة وسقطت الاسفنجة فى الماء تتبعها شرة صغيرة من الدم . كان سيقع بعدها لو لم أمسك بإحدى قدميه وأجره إلى أعلى الضفة ، وحين وضعته هناك كان قد فارق الحياة .

فى عجلة من أمرى حفرت التربة الرملية وأودعته مثواه الأخير ، هناك عند جانب الجدول . ثم طفقت أعدو عبر الحقول مرتعداً يغمرنى عرق الخوف ، وأنا أغير من اتجاهى باستمرار ، متعثراً مرة بعد مرة ، متجهاً دائماً إلى أكثر المواقع وحشة وخلاء ...

لم أعد أبداً إلى أيجينا . وبضمير مضطرب كضمير أى قاتل هجرت عملى وبيتى وزوجتى وأولادى ، ونفيت نفسى إلى أيتوليا حيث تزوجت مرة أخرى .

كانت تلك نهاية قصة أريستومينيس ، وقد علق صاحبه الذى رفض منذ البداية بعناد أن يصدق كلمة واحدة منها فى الحال قائلاً : «حسن . الحق أننى لم أسمع أبداً طيلة حياتى كلها مثل هذه الأباطيل الخرافية تروى دفعة واحدة . هذه أسوأ حتى من القصص التى يرويها الكهنة ، أحكم من ثيابك ومظهرك العام أنك رجل متعلم ، وأنت بالتأكيد لم تصدق كلمة مما حكى .» أجبتة : «أرفض نظرياً ، التسليم بأن أى شئ فى هذه العالم مستحيل . إن يفعل المرء هذا يضع نفسه فوق (القوة) التى تقرر التجربة الإنسانية كلها ، أما عملياً فإن أموراً تحدث لك ولى أحياناً ولكل امرئ آخر ، هى من الغرابة بحيث لا نكاد نصدقها نحن أنفسنا ، ويرفضها بالتأكيد أى شخص عادى باعتبارها نسج الخيال ، وفى الحقيقة أنا أصدق فعلاً حكاية أريستومينيس ، وإنى لشاكر له كل الشكر أنه أمتعنى بها تماماً ، حتى أننى لم أحس بوعورة التل وصعوبة ارتقاؤه . أنظر هناك ، لابد أن تلك هى بوابات المدينة ! يكاد

يبدو لى من المستحيل أننى وصلت هنا بهذه السهولة ، ليس على سهوة
جواد بل مشدوداً من أذنى الأثنتين ! إن جوادى ، بالتأكيد ، يثنى على
شكرى بامتنان ، فقد خلصه أريستومنيس من خب طويل مرهق » .

وهنا افترق طريقانا . انحرف الرجلان قاصدين مجموعة بيوت على
يسار الطريق ، وتابعت أنا طريقى قدماً ♦

في بيت ميلو

طرقت باب أول خان رأيته ، ففتحته امرأة عجوز بادرتها قائلاً : «يومك سعيد يا أمي ! هل هذه بلدة هويانا ؟» فهزت رأسها دون كلام . «أتعرفين رجلاً يدعى ميلو ، أحد أعيان البلدة ؟» فأجابت عابسة : «حسن . يمكنك أن تدعوه كذلك ، فيما أظن ، لأن بيته أول بيت تبلغه . مبنى في الخلاء ، خارج أسوار المدينة حيث تؤخذ العلامات الرسمية» .

«لندع الدعابة جانباً . هل تسمحين بتعريفى أى رجل هو وأن تدليني كيف الوصول إلى بيته ؟»

«هل ترى ذلك الصف الأخير من النوافذ المطلة على المدينة ، وبوابة على الجانب الآخر تؤدي إلى طريق مسدود ؟ هناك يعيش ميلو - عجوز مفرط الغنى وسبّة في جبين المدينة - أحقر وأبخل وأقذر رجل رأيته . هو مراب - الربا الفاحش أهم ما يهتمه في الحياة - يعيش داخل ذلك البيت الكبير الخالي من الأثاث مقفلاً عليه يحرق طيلة اليوم فى أكداًس ماله ، لا أحد يعيش معه سوى زوجته السيئة الحظ وجارية واحدة . وإذا ما خرج من بيته يوماً ، ونادراً ما يفعل ، لبس ثياباً كأحد الشحاذين» .

فلما انطلقت من عند العجوز ضحكت لنفسى قائلاً : «لقد زودنى صديقى ديمياس بكتاب تقديم ممتاز بكل تأكيد ، فلن أخشى فى أثناء إقامتى مع ميلو على الأقل من دخان النار أو روائح المطبخ النفاذة !» وسرعان ما بلغت البوابة التى أشارت إليها العجوز ووجدتها محكمة الإغلاق .

فدققته وأنا أصبح : «يا أهل الدار ! يا أهل الدار !» .

بعد فترة خرجت الجارية وسألت : «هل أنت الذى أصدر هذه الضجة المروعة ؟» .

«أنا الذى طرق» .

«حسن . أين ذهبك وفضتك ؟ لابد أنك الوحيد فى هوباتا الذى لا يعرف شروطنا ، لا نقود مقدماً إلا بتعهد بدفع الوزن ذاته معدناً كريماً» .

«هذه ليست طريقة مخاطبة الزائرين على الإطلاق» قلت بقسوة :

«هل مولاك فى البيت ؟» .

«بالطبع لكن ما شأنك ؟» .

«أتيت بكتاب تقديم إليه من ديمياس الكورنشى» .

«انتظر هنا حتى أبلغه رسالتك» ، ثم أعادت إغلاق البوابة وآبت إلى داخل البيت ، وما لبثت أن ظهرت من جديد : «سيدى يقول لك : تفضل بالدخول» .

وجدت ميلو فى غرفة طعامه ممتدداً على جشّية ضيقة جداً وكان قد بدأ تناول غذائه منذ قليل ، وقد جلست زوجته عند قدميه ، حرك يديه نحو المائدة التى تكاد تكون خالية تماماً من الطعام وقال : «فى الوقت المناسب تماماً لوجبة» .

شكرته وناولته الكتاب الذى قرأه مسرعاً ، ثم قال : «أنا شاكر لديمياس أن أتاح لى فرصة لقاء شاب رائع مثلك» بعدها سأل زوجته أن تغادرنا إذ من الواضح أن الطعام لم يكن يكفى أكثر من شخصين ، وطلب منى الجلوس مكانها . كان طبيعياً أن ترددت ، بيد أنه أمسك بعباءتى وجذبني إلى المقعد : «اجلس .. اجلس يا سيدى ! أرجو أن تعذرنا فى قلة المقاعد

وغيرها من الفرش . هذا احتياط ضرورى ضد السرقة ! » .

جلست .

« لقد حزرت من أناقة ثيابك وصواب سلوكك انك من أسرة كريمة وأرى من كتاب ديمياس أننى كنت محققاً ، وأرجو ألا تزدرى بيتنا الصغير . إن الغرفة الاحتياطية الملاصقة لهذه الغرفة تحت تصرفك ، إذا ما استطعت تدبير أمر راحتك فيها ستقدم لنا شرفاً عظيماً ، وننال فى الوقت نفسه قرصاً حسناً كما ناله ثيسسيوس الشهير - ألاحظ أن اسم والدك ثيسسيوس كذلك - حين قبل ضيافة هيكال العجوز الفقير » .

وقبل أن أتناول شيئاً من الطعام نادى الجارية : « فوتيس ! خذى متاع السيد إلى الغرفة الخالية وضعيه بعناية هناك ، ثم احضرى منشفة من الصوان وقنينة زيت صغيرة ، وخذيه حالاً إلى أقرب حمام . لا ريب أنه يشعر بالحر ومتعب بعد هذه الرحلة الطويلة » .

رأيت على الفور كم كان ميلو بالغ الدناءة ، غير أننى اعتزمت أن أسخر منه فقلت : « أرجو ألا تهتم بالمنشفة أو الزيت ، فأنا أحمل مثل هذه الأشياء فى متاعى دائماً ، ولا ضرورة لأن تصحبنى فتاتك . همى الوحيد الآن هو حصانى ، إنه يستحق المكافأة إذ حملنى إلى هنا عن طيب خاطر . أرجو يا فوتيس أن تفضللى بشراء طعام جيد له من العشب والشوفان . ها هى النقود » ثم انطلقت إلى باحة الدار أتجول فيها حتى نال حصانى طعامه ورتبت فوتيس حوائجى فى غرفة النوم أحسن ترتيب ، بعدها مضيت قاصداً الحمامات ، لأقوم أولاً بزيارة سوق المواد الغذائية كى أبتاع شيئاً لعشائى . كان ثم سمك كثير معروض للبيع ، ورغم أنه طُلب منى مائتا درهم ثمن سلة سمك واحدة فى البداية فقد استطعت أن أجعل البائع يهبط بالثمن إلى عشرين درهماً ، دفعتها له ثم مضيت بما اشتريت ، وحالما

غادرت السوق حدث أن رجلاً يدعى بوثياس - كان زميل دراسة في
أثينا - كان يمشى في اتجاهى ، عرفنى أولاً وعانقتى أحرّ العناق .

«يا سلام ! أليس هذا صديقى لوكيوس ؟ ! يا للسموات ! كم مرّ من
السنين منذ أن تتلمذنا معاً للشيخ دوسثيوس ؟ ومن يومها وحتى يومنا هذا
لم أسمع عنك خبراً من الأخبار . قل لى ، أيها العزيز ، ما الذى جاء بك
إلى هنا ؟» .

«غداً لنا حديث طويل . لكن يا بوثياس - ما هذا الذى أرى ؟ ثوب من
ثياب الشرطة وعسس مسلحون يمشون من ورائك ؟ تهانئى القلبية !» .

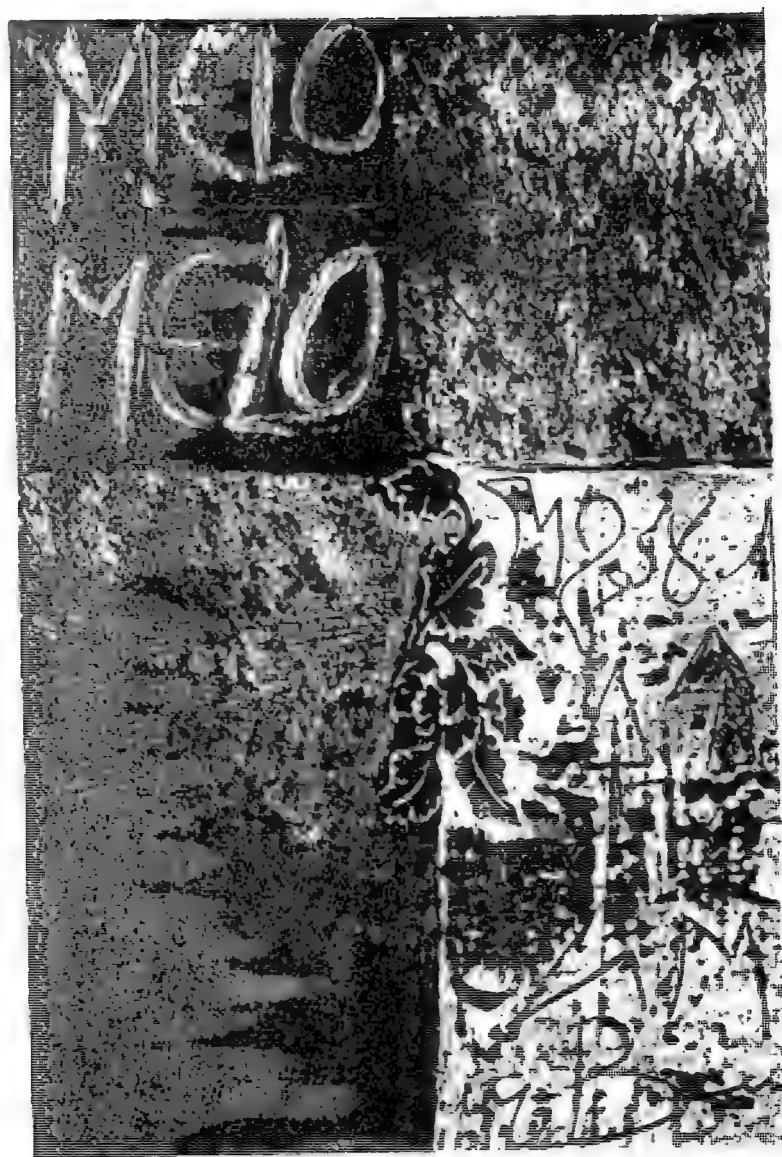
فشرح لى : «أنا الآن مفتش عام الأسواق ، فلو كان لى أن أودى لك
خدمة بمساعدتك فى شراء شئ لعشائك أرجو أن تدعونى لذلك» .
«ما أطفك ! غير أننى اشتريت لنفسى بضعة أرطال من السمك» .

«دعنى أرها» ثم أخذ السلة منى وهز السمكات فيها حتى يتمكن من
تأملها عن كثب ، ثم سألنى : «هل تسمح بأن تخبرنى كم دفعت ثمناً لهذه
النفاية ؟» .

«لقد استغرق إقناع السماك بأن يهبط إلى عشرين درهماً وقتاً طويلاً» .
«أى سماك ؟ أشر لى إليه» فأشرت إلى شيخ صغير الحجم جالس عند
زاوية السوق .

وفى التو بادر بوثياس إلى توبيخه بأقسى كلماته الرسمية :

«هيه .. أنت ! هل هذا أسلوب تعامل به أصدقاء المفتش العام ، أو أى
زائر مهما كان يأتى ليشتري شيئاً من سوق المواد الغذائية ؟ تطلب لا أقل
من عشرين درهماً .. يا سلام ! عشرين درهماً لهذه السميكات الحقيمة ؟
هوباتا أكثر مدن ثساليا رخاءً ، لكننا مع أمثالك ممن يرفعون أسعار الطعام



إلى هذا الحد غير المعقول قد نرانا نعيش فى برية صخرية ، لا تحسبن أنك ستنجو بالتوبيخ وحده ، إننى بحق السماء لعازم على أن أجعلك عبدة لمنّ يعتبر ، ما دمت أحتل منصبى هذا» .

ثم أفرغ السلة على الأرض وأمر أحد تابعيه أن ينط فوق السمك ويحمله بقدميه إلى عجّين على الرصيف . فلما أشرق وجهه بالرضا عن شدته نصحنى بوثياس بالذهاب إلى البيت : « كل شئ على ما يرام الآن يا لوكيوس » هكذا قال لى بابتهاج : « لا حاجة لك بأن تضيف شيئاً ، أنا راضٍ الآن بأن هذا النذل الضئيل نال ما يكفيه من التحقير» .

يا لزميل دراستى العبرى !

بعدها قصدت الحمام وأبنا مبهوت لفقدى عشائى ومالى بفضل تدخله اللطيف ، حيث قضيت العشيّة فى الراحة .

عند هبوط الليل عدت إلى بيت ميلو المضيف ، ولم يطل مكثى بغرفتى حتى دخلت فوتيس وقالت : « السيد فى انتظارك على مائدة العشاء » فأرسلت إليه عذراً مهذباً ، وأنا عارف بعاداته الاقتصادية ، راجياً إياه أن يعفنى : « أرجو أن توضّحى له أننى منهك للغاية من أثر السفر ، وأن حاجتى إلى النوم أكبر من حاجتى إلى الطعام» .

فنقلت فوتيس رسالتى ، وفى الحال ظهر ميلو ذاته ، وقبض على معصمى وهو يحاول بلطف أن يجرنى معه إلى غرفة الطعام ، فاعترضت : « كلا .. كلا حقيقة أنا غير جائع » فأعلن ، وهو لا يزال قابضاً على معصمى رافعاً يده الأخرى وكأنه يقسم يميناً فى المحكمة « لن أترحّز من هنا حتى توافق على المجئ معى » فكان عليّ الإذعان ، وقادنى مرة أخرى إلى الحشّية القديمة الرثة عينها حيث أجلسنى على طرفها قبل أن يجلس هو ، ولم يكن العشاء قدّم بعد .

«أخبرنى الآن» قال ميلو «كيف حال صديقنا المشترك ديماس ؟ هل كل شئ بالنسبة إليه على ما يرام ؟ وكيف حال زوجته ؟ هل صحة أولاده بخير ؟ هل من مشاكل مع الخدم ؟» .

فأجبت بالتفصيل ، ثم طلب أن أسرد له بالضبط الأمر الذى جئت لأقضيه فى هوباتا ، فأرضيت فضوله مرة أخرى . لم يأت العشاء بعد . ثم رغب فى معرفة كل شئ عن الأحوال فى بدلى وسأل عن تفاصيل حياة أعيانها جميعاً . وحين شرع فى التدقيق معى عن المسائل الشخصية للحاكم العام ظهرت على علامات النعاس - فقد كانت الرحلة مرهقة وهذا الحديث أشد إرهاقاً - وصرت أقطع الجمل فى منتصفها أو أخلط ما بين الكلمات ، فرأى أننى متعب تماماً وتلطف فأذن لى بالقيام إلى فراشى .

كم كان سرورى بالغاً بخلاصى من هذا الخلف العجوز الكريه الرائحة ! ورغم أننى طعمت حديثاً ليس غير فإن ترحيبى بالنوم الذى غالبنى كان أكبر من ترحيبى بوجبة فاخرة ، فتعثرت فى طريقى إلى غرفتى ونمت كالميت بالضبط .

صحوت فى اليوم التالى مبكراً ، وقفزت من فراشى فى الحال ، كانت رغبة عارمة تسيطر علىّ فى كل شئ غريب وغير مألوف . وتذكرت أننى فى قلب ثساليا ، البلد الذائع الصيت فى عالم السحر والشعوذة ، بل فى المدينة ذاتها التى شهدت حكاية أريستومينيس . فتلفت من حولى بنظرة المستثار وأنا أدقق فى كل شئ يقع عليه ناظرى ، كيف كان لى أن أثق فى أن أى شئ فى المدينة كلها هو حقيقة كما بدا ؟ كانت تسيطر علىّ فكرة أن الساحرات يعملن فى كل مكان ، فخطر لى أن الأحجار التى ضربتها أمس بقدمى ربما كانت فى حقيقتها بشراً ممسوخين والطيور التى سمعت تغريدها أناساً يكسوها الريش - مثلما حدث لبروكنى وتيريوس وفيلو.ميلا كما

تقول الأسطورة - وبدأت الريب تساورنى فى الأشجار المحيطة بالبيت ،
بل فى الصنابير التى كانت تتدفق منها مياه النافورات . كنت على استعداد ،
عندما زرت المدينة ، أن أرى التماثيل وصور الآلهة تهبط من قواعدها ، أو
أسمع الجدران تتحدث ، أو الثيران والماشية تنبئ بأخبار غريبة ، بل حتى أن
تخاطب الشمس بوحى فى سمائها .

بهذا المزاج الغبى المنمق ، ودون أن أجد تبريراً ما لوساوسى ، طفت
المدينة كلها من باب إلى باب ووجدت نفسى أخيراً فى سوق المواد الغذائية
مرة أخرى . وهناك جاءت امرأة يتبعها حشد من الخدم ، أوضح قرطاهما
الطويلان المجوهران والنقوش المتلائة على ثوبها أنها من طبقة راقية ،
وبجانبتها مشى شيخ مهاب ما عثم أن صاح حين رآنى : «يا للسموات !
هذا لوكيوس !» ثم تقدم وعانقنى ، رجع بعدها إلى السيدة وهمس فى
أذنها وعاد إليّ ثانية : «هلم .. هيا يا لوكيوس .. لم لا تسرع وتقبلها ؟»
فتلعثمت : «لا يمكنى أن أفعل هذا مع سيدة لم أحظ بشرف تقديمى إليها»
وعلت وجنتى حمرة الخجل وبقيت فى موقفى وأنا أنظر إلى قدمى . كانت
السيدة تنظر إليّ باهتمام ، ثم قالت متعجبة : «حقاً .. التطابق كامل كان
لساليا بالضبط نفس الرقة والقوام المشقوق ، نفس الوجنتين الورديتين ،
ونفس البشرة الناعمة ، ونفس الشعر الأشقر المنسق بعناية ، ونفس اليقظة
والعينين الرماديتين اللامعتين اللتين كانتا تذكرانى بعينى النسور ، ونفس
طريقة المشى المعتدة» ثم أضافت : «لقد رعيتك طفلاً يا لوكيوس ، ولا
غربة فى ذلك ، فإنى وأمك الغالية كبرنا معاً فى بيت واحد . الفرق الوحيد
بيننا - فى الواقع - أنها تزوجت نبيلاً وتزوجت أنا رجلاً من عامة الناس :
اسمى برهاينا - لا بد أن أمك ذكرت الاسم لك حين كانت تحدثك عن
طفولتك . يجب أن تأتى وتقيم معى فى الحال ويكون بيتى هو بيتك» .

«فى تلك الأثناء كنت تخلصت من حرجى ، فبينت لها انه ما من شئ

يدخل السرور على نفسى أكثر من تليبتى دعوتها ، لكننى للأسف كنت ضيف ميلو وليس من اللائق أبداً أن أفرك بيته إلى بيت آخر فى المدينة ذاتها. «لكن يسعدنى جداً أن أراك بقدر ما يسمح ارتباطى بميلو ، وكلما جئت المدينة زرتك دون إبطاء» .

كانت برهاينا تقطن غير بعيد ، وسرعان ما أعجبت بساحة بيتها الداخلية بعمدها المنقوشة فى الأركان الأربعة تعلوها تماثيل ربة النصر المجنحة . كانت الشخوص تبدو حية بشكل خارق ، وكل منها تحمل غصناً من جريد النخل فى يدها فوق جناحين ممدودين وقدماهما الغضبان متوازنتان بخفة على كرة ساكنة لن تحسبها أبداً قُدت من كتلة صخر واحدة - وهى تبدو على أهبة التحويم من جديد . بيد أن أكثر ما شد انتباهى وغطى على ما عداه كانت مجموعة منحوتة من رخام پارى انتصبت فى منتصف الساحة بالضبط ، تمثل الربة ديانا وكلاب صيدها - عمل رائع . بدت الربة تخطو نحوك حين تدخل ، وقد شد الهواء رداءها إلى وراء ، والخشية تأخذك من جلال حضرته ، ومجموعة كلاب الصيد التى كانت تمسك بمقودها توازنت على أقدامها الخلفية متحفزة للانطلاق فى لحظة . بدت الكلاب عابسة بعيونها المتوحشة وأذانها المنتصبه وخياشيمها المنفرجة وأنيابها البارزة ، فلو أن كلباً آخر نبح فجأة لحسبت النباح للتو صادراً من حناجرها المرمرية البيضاء . وخلف الربة كان غار غطى مدخله الطحلب والعشب والأوراق المتساقطة ، وأجمة صغيرة يحيط بها النجم والنباتات المتسلقة تنمو هنا وهناك ، ووراءها صفّاحة من رخام مصقولة جداً عكست صورة كتفيها ، وتحتها تدلى تفاح وعنب استوى للتناول ، نحتت بدقة بالغة حتى لتحسبن أنك فى منتصف أشهر الصيف . فإذا ما نظرت إلى الجدول الذى بدا نابعاً مترقراً من تحت قدمى الربة رأيته متدفقاً بالحياة مثل عناقيد العنب . ليس هذا فحسب ، فمن

بين الأغصان المتشابكة بدا وجه اتتاينون متلصصاً وهو فى منتصف تحوله إلى
وعل - كما ظهر أيضاً من انعكاس المنظر المنحوت على صفحة الماء - وكان
هذا عقابه لتلصصه على الربة وهى على أهبة الاستحمام .

وبينما كنت أتأمل مجموعة التماثيل بتطلع بهيج قالت برهاينا : « هذا
كله لك يا ابن الخالة » ثم ابعدت الخدم وقالت لى بصوت خفيض : « باسم
هذه الربة ، ربة الطراد ، يا عزيزى لوكيوس .. أرجوك أن تأخذ الحذر .
يصعب عليّ أن أعبر لك عن قلقى عليك فى وضعك الراهن . لكن
أرجوك أن تفهم أن مشاعرى نحوك طيبة جداً كأنك ابنى ، يجب أن
أحذرك تحذيراً جاداً من زوجة ميلو المدعوة بامفيلى ، والتى أخشى أن
تسحرك . انها ساحرة معروفة جداً ويقال إنها سيدة كل ضرب من ضروب
السحر ، حتى انها بمجرد النفخ فى العسلوج أو الحجارة أو غيرها :

يمكنها تحويل الضوء والسماء ذات النجم

إلى أعماق الجحيم المظلمة

وأن تعيد إلى الدنيا

عهد الهيولى الأول ...

إنها تقع فى غرام كل شاب وسيم تقع عليه عيناها وتعزم فى التو على
امتلاكه . تبدأ حملتها بكلمات معسولة وتنتصر دائماً انتصاراً سريعاً ، تشده
بعدها إليها بأغلال الشهوة غير الممكنة الفكك ، فإن وجدت مقاومة هاج
غضبها وحقدھا فلا تبالى بأن تمسخ ضحيتها حجراً على الفور ، أو تحوله
كبشاً أو ثوراً أو حيواناً برياً ، أو أن تقتله . يمكنك أن تتصور قلقى عليك ،
فإن بامفيلى امرأة شقية وأنت بالضبط مثال الشاب الوسيم الذى هو أكثر ما
يجذبها .

كنت مغامراً بطبعي . فما أن ذكرت برهائنا الفن الأسود ، الذي طالما شد اهتمامي ، وإحساسها بوجوب الحيلة من بامفيلي حتى تملكنتي الرغبة في أن أدرس السحر على يديها مهما كلفني الأمر من مال ، وأن أقفز جرياً إلى الهاوية المظلمة التي حذرت منها . التهب عقلي ، فخلصت يدي من يد برهائنا كما لو أنني أكسر سلسلة ، وغادرتها مودعاً على عجل . انطلقت اركض إلى بيت ميلو أحدث نفسي وأنا أعدو بجنون وسط شوارع المدينة : «إليها الآن .. يا لوكيوس ! واستجمع مواهبك كلها . إذ ها هي الفرصة أخيراً أمامك ، لقد كان طموحك الخفي دائماً أن تتعلم قوانين السحر ، فلتنس مخاوفك الصبائية ، واجه هذا الواجب الجديد جسوراً وعملياً - على أن تتجنب طبعاً أى ارتباط بيامفيلي . أن تخون مضيفك عمل دنئ غير أخلاقي . من جهة أخرى ، ليس ثم ما يمنعك من إغواء فوتيس . إن الفتاة ليست جميلة ومتدقة بالحيوية ورائعة فحسب ، بل إنها نصف محبة لك الآن ، عندما ذهبت إلى فراشك البارحة قادتك هي إلى غرفتك وقلبت غطاء سريرك ووضعتك بلطف فيه ثم قبلتك قبلة مساء لطيفة وأظهرت بجلاء كامل أسفها لمغادرتك .. تذكر كيف وقفت في طريقها إلى الباب وكيف نظرت إليك ؟ أفضل الحظوظ لك إذن يا لوكيوس . لكن نصيحتي - مهما يكن : إذهب إلى فوتيس !» استقر عزمي الآن ، وحين بلغت بيت ميلو دخلته واثقاً ثقة عضو مجلس الشيوخ يدخل قاعة استقبال المجلس .

لم أجد أحداً في الدار سوى فوتيس الجميلة تعد لحم خنزير لسيدها ومولاتها ، في حين نفذت رائحة الطبخ الشهية إلى منخري منبعثة من قدر فخارية على الموقد . كانت ترتدى ثوباً منزلياً أنيقاً أبيض ، مجموعاً تحت الصدر برباط حريري أحمر ، وكانت تبدو جميلة للغاية وهي تحرك محتويات القدر بيديها الحلوتين .

كان للمنظر تأثيره النافذ في نفسي حتى أنني وقفت هنيهة أتأملها

بإعجاب ، ثم وجدت صوتى أخيراً فقلت لها : «عزيزتى فوتيس ! ما
الطف ما تفعلين ! ويا لك من طاهية ماهرة !»

فالتفت إلى من فوق كتفها قائلة : «اذهب .. أيها اللئيم ! ابتعد عن
موقدى الصغير . إن اقتربت منه ربما أصابتك شرارة . طاهية ماهرة أنا ؟
بالطبع !» ثم استدارت إليّ وضحكت ، ولم أغادر المطبخ حتى تملينها جيداً
من قمة رأسها حتى أخمص قدميها . وفى هذه الآونة اكتب فقط عن رأسها
والحقيقة أن الشعر يملكنى ، وكلما قابلت امرأة جميلة كان أول ما يشد
ناظرى هو شعرها ، فأكون فى ذهنى صورة له أحملها معى إلى البيت
وأشرع فى تأملها على انفراد ، وتبريرى لهذه العادة يقوم على مبدأ منطقى
قوى ، وهو أن الشعر أهم وأبرز ملامح الجسد وأن لمعانه الطبيعى يؤدى
للرأس ما تؤديه الثياب الملونة الزاهية لجذع الجسد ، بل الحق أن الشعر
يؤدى عملاً أكبر ، إنك تعلم كيف تلقى النساء بملابسهن المطرزة ، حين
يبغين كشف جمالهن كاملاً ، ويخرجن من أرديتهن الباهظة الثمن
ويعرضن أنفسهن فخورات دون شئ يكسوهم على الإطلاق ، مدركات
أنه ما من شئ ، حتى نسيج الذهب ، الساطع له أثره فى الرجل أكثر من لون
بشرة جسد المرأة العارى الرقيق . لكن - وأرجو أن تغفر هذه الفكرة
الفظيعة التى أمل ألا يطبقها أحد - لو أنك حلقت رأس حتى أجمل النساء
وسلبت وجهها إطاره الطبيعى ، فلا أبالى إن كانت هبطت أصلاً من
السموات وولدت ثانية من زبد البحر مثل الربة فينوس - لا أبالى حتى إن
كانت فينوس ذاتها يحيط بها كل الحسان وآلهة الحب ، فينوس التى تقطر
عطراً غالباً وتتضوع أريجاً وطوق الهوى المشهور ويلف وسطها - فالحق أن
صلعها سيتركها خالية من الجاذبية تماماً حتى بالنسبة لزوج وفى مثل الرب
فولكان !

ما أمتع أن ترى شعراً زاهى اللون تلعب به أشعة الشمس أو يشع

بالبريق ، يتنوع لونه كلما تغير مسقط الضوء عليه ! فهو ذهبي تارة ، ثم عسلى ، أو هو أسود كجناح غراب ، ثم يتخذ فجأة لون ريش عنق الحمامة الأزرق الفاتح ، لمعه بمنقوع الناردين ، وافرقة مرتباً بمشط جيد الأسنان ، واعقصه بشريط وراء الرأس ، يتخذه العاشق مرآة يعكس نظراته الوالهة ، ثم .. أوه .. حين يضم الشعر فى حزمة غليظة فاخرة على رأس امرأة ، أو يترك منطلقاً ، وهذا أفضل ، يتماوج على عنقها فى خصل كثة ! ولعلنى أكتفى بالقول إنه يكفى شعر المرأة فخراً أنها قد ترتدى أعجب الثياب ، وأغلى الجواهر فى الوجود ، وكل ما يحفظ فى الخزائن ، لكن محاسن لباسها لن تبرز إلا إذا صفت شعرها بطريقة مناسبة .

فى اعتقادى أن فوتيس لم تكن بحاجة إلى معرفة خبير فى تصفيف الشعر ، بل كان لها أيضاً أن تغامر بإهمال واضح لهذا الفن . كانت طريقتها أن تدع شعرها الطويل الكث ينسدل طليقاً على عنقها ، مجدولة نهاياته ضُمت بشريط عريض وثبت مرة أخرى من قمة رأسها ، حيث لم أتمالك نفسى من أن أطبع قبلة طويلة حانية .

نظرت إليّ من فوق كتفها ، وبدت عيناها الحادثان تحديقان فى قلبى مباشرة ، وقالت : «أوه أيها التلميذ الصغير ! نهمٌ دائماً لأى شىء لذيذ ، دون أن تفكر فى مرارة طعم العاقبة ، قد أبدو لك اليوم فى طعم العسل ، لكننى أنذرك بأنك بعد قليل قد تجدنى كالحنظل فى حلقك» ، «ما الذى يهمنى أيتها الجميلة ؟ إننى آذن لك بأن تمددبنى على طولى فوق هذه النار وتشوينى حتى أسود ما دمت تعديننى بتخفيف عذابى ولو بلشمة واحدة» ثم ألقيت ذراعى من حولها وطفقت ألتئمها حتى استسلمت ثم ردت عناقى بعناق أشد ، وكان نفسها فواحاً كالمسك ، وهنا أوضحت لى حبها العميق ، وطلبت منى بعدها الانصراف .

افترقنا . وحوالى الظهر وصلت هدية لطيفة من برهاينا ، كانت عبارة

عن خنزير سمين وزوجين من الطيور ودنّ من الشراب ، فناديت فوتيس :
«انظري .. يا حبيبتي ! نسينا أن ندعو إله الخمر ، لكنه دائماً يساعد ربة
الحب ويفريها، فجاء من تلقاء نفسه، فلنحفظ هذا الدن جانباً لليل فالمحبون
يحتاجون لشيئين ، زيت كافٍ للقنديل، وخمرة كافية للأقداح» .

قضيت عشية ذلك اليوم في الحمام ، وفي أثناء عودتي وجدت عبيديّ ،
الذين تبعاني راجلين من كورنثة ، قد وصلا لتوهما وميلو ينتظرني وزوجته
بامفيلي ، على مائدة عشائهما الصغيرة . وكانت فوتيس قد استخدمت
جزءاً من الهدية فوراً وأجبرت ميلو على أن يكون كريماً لمرة واحدة .
وجدت حشية لي ، فجلست عليها وتحذير برهائنا لا يزال يطن في أذني ،
بعيداً بقدر الإمكان عن مرأى بامفيلي ، وأنا أسترق نظرة خائفة نحوها بين
الفينة والأخرى كما لو أنها (بحيرة اللا طيور) ، وكانت فوتيس تقوم على
خدمتنا وعيناي تتبعانها معظم الوقت ، فأحسست بالراحة العميقة .

بدأ الليل في الهبوط وأوقد مصباح المائدة ، فنظرت بامفيلي ملياً في
شعلته وأعلنت : «ستمطر غداً بغزارة» .

سألها ميلو : «كيف تعرفين ؟

»عن طريق المصباح» .

فضحك ميلو : «واضح أننا نسامر سبيل دون أن ندري ! إنها كل ليلة
تجوب الكون من برج مصباحها ، ونتكهن برحلة الشمس في غدها» .

فانفجرت : «أليس من الغريب حقيقة أن هذا اللهب ، على صغره
وكونه نوراً صناعياً ، لا يزال يحتفظ بذكرى أمه الشمس ، مصدر النار
الأول ، وأنه بقطرته المقدسة يستطيع الإخبار بما سوف يحدث في السماء؟
أرى هذا غطاً أولياً من أنماط التقديس إذا ما قورن بما صادفتني في كورنثة
منذ أيام قليلة ، فقد بعث منجم كلداني الاضطراب في المدينة بأسرها

بإجابته الدقيقة عن كل سؤال وجه إليه ، برسم معين كان يخبر السائل عن اليوم الذى يتزوج فيه ، أو اليوم الذى يضع فيه حجر الأساس لبيته إن أراد بناءً ثبت على الزمان ، أو اليوم الذى يعقد فيه صفقة ، أو اليوم الذى ينطلق فيه مسافراً بالبر أو البحر ، ولما سألته عن رحلتى هذه كانت إجاباته غريبة متناقضة ، أنبأنى مثلاً أنها ستكون سيباً فى شهرتى الواسعة وأننى سأكتب كتاباً كبيراً عنها لن يأخذه أحد ، على كل حال ، مأخذ الجد .

فضحك ميلو ثانية : « كيف كان يبدو صاحبك الكلدانى هذا ؟ وماذا أسمى نفسه ؟ »

« كان طويل القامة يميل إلى السمرة ، واسمه كان ديوفانيس » .

« الرجل نفسه الذى جاء ذات مرة إلى هوياتنا وقدم النمط ذاته من التنبؤات ! لقد كسب قدراً كبيراً من المال ، ثروة صغيرة فى الواقع ، لكنه أثبت فى النهاية أن قدره - لنقل : مشؤوم - أو لعلك تفضل : نكد - أو : نحس ، وقد حدث ذلك عندما كان ديوفانيس يقف ذات يوم وسط حشد من الناس يرغبون جميعاً فى معرفة أقدارهم ، وكان رجل أعمال يسمى كريدو سألته لئلا يتوهم أن يعين له يوم حظ للفسر ، فأجابه ديوفانيس وفتح كريدو صرة نقوده وبدأ يعد مبلغ مائة درهم أجرة له ، وفى تلك اللحظة جاء شاب من وراء ديوفانيس وجذب رداءه ، فالتفت هذا إليه وعانق كل منهما الآخر بشوق . « اجلس .. اجلس ! » قال ديوفانيس وقد نسى كل ما ادعاه من معرفته بالتنجيم : « يا للسرور الغامر ! لم أتوقع أبداً أن أراك فى هذه النواحي ، متى وصلت ؟ » فأجاب الشاب : « البارحة فقط ، لكن ، يا عزيزى ، لابد أن تفسر لى رحيلك المفاجئ من يوبويا وتنبئنى عن رحلتك » فصاح ديوفانيس دون أى احتراز : « وددت لو أصاب أعدائى والمتمين لى الشر جميعاً ما أصابنى من حظ عاثر فى طريقى إلى هنا . إن رحلة أوديسيوس ذات السنوات العشر لا تقارن برحلتى . فى البداية ضرب

سفيتنا إعصار بمجرد إبحارها ، وكانت تخرج من دوامة لتدخل أخرى ، ثم تكسرت دفتها وسكانها ، وما أن بلغنا شاطئ تساليا أخيراً حتى غاصت في البحر كالصخرة . استطاع بعضنا أن يصارع الموت ليصل إلى الشاطئ ، وقد فقدنا كل ما نملك ، وكان علينا أن نتسول أو نفترض المال ليساعدنا على بقية رحلتنا ، وكما لو كان أن هذا كله لم يكن كافياً ، إذ هاجمنا قطاع الطرق وقتل أخى أرغونوتوس ، الذى حاول المقاومة ، أمام ناظرى .

وبينما كان ديوفانيس مسترسلاً فى رواية قصته المحزنة التقط كريدو دراهمه وتسلسل ذاهباً ، وعندها فقط استرجع ديوفانيس نفسه وعرف أنه أفسد الأمر كله ، إذ كان ضحكنا جميعاً يشق عنان السماء . ومهما يكن الأمر ، يا سيد لوكيوس ، فإننى أتمنى من كل قلبى أن يكون ما حدثك عنه هذا الكلدانى الشهير حقيقة رغم أنك قد تكون الوحيد الذى حدثه بمثله ، وأدعو لك برحلة ممتعة مثمرة .

كنت أصصر على أسنانى فى صمت وميلو ماض فى هذيانه . كنت ساخطاً على نفسى إذ بادأته فانطلق فى سلسلة من الروايات فى وقت كهذا . رأيت خطر فقدانى أفضل جزء من الليل وكل المتع التى يخبئها لى ، فتشاءبت فى النهاية دونما حياة وقلت : «أرجو ألا تحشم نفسك عناء رواية شئ آخر عن ديوفانيس . يتساوى لدى ما يحدث له أو حيثما يحمله حظه العاثر ، والحق أننى لا أبالى إن نالت الأمواج القسم الأكبر مما كسب أو ناله اللصوص حين يجبر على تقيؤه فى المرة القادمة ، الواقع أننى لا أزال أعانى من آثار ركوبى أمس الأول وأحس بأننى مرهق تماماً ، أرجو أن تصفح عني إن استودعتك الآن وذهبت فوراً إلى فراشى » .

ثم نهضت ومضيت إلى غرفة نومى ، وفى طريقى إليها لاحظت أن فراش القش الذى يتقاسمه عبدائى فى باحة الدار الداخلية نقل إلى أبعد ما يكون من باب غرفتى - وواضح أن فوتيس تحوطت حتى لا يسمع أحد

حديث غرامنا تلك الليلة . وفى الداخل وجدت احتفالاً عظيماً فى انتظارى كانت المنضدة بجانب سريرى مغطاة بأطباق صغيرة من طعام لذيذ اقتطع من العشاء ، وأقداح شراب مترعة لم يترك سوى جزء صغير فى أعلاها لتشعشع بالماء ، وإلى جانبها دورق فوهته على هيئة الناقوس فى متناول اليد لتسكب الخمر منه عند الطلب . كان المنظر يوحى بفطور مصارع صبيحة يوم الجلال الكبير . !

وحين استقر بى فى غرفتى المقام ، برزت فوتيس - وقد وفقت فى أن ترسل مولاتها بسرعة إلى فراشها - على عتبة الباب وفى يدها باقة من الورد . تهادت نحوى وقبلتنى ، ثم عقدت بعض الورد على شكل إكليل لتضعه على رأسى ، ونثرت بقيتها على جوانب الغرفة . بعدها أخذت قديحاً من النبيذ ، شعشعته بماء دافئ ، ووضعت على شفتى ، وقبل أن أشربه سحبته منى بلطف وشرعت ترتشفه قليلاً قليلاً ، وهى تحديق فى عيني ، مثل يمامة ترتوى ، حتى أفرغته تماماً ، وأعادت الكرة مرتين أو ثلاث مرات ...

.....
♦ تلك كانت الليلة الأولى لليالٍ عديدة قضيناها معاً !

قصة ثيلوفرون

ذات يوم أرسلت لى برهاينا دعوة ملحاحة لحفل عشاء . ورغم أننى تذعرت بمختلف الأعذار فقد رفضت قبول أى منها ، ولم يكن لدى حل إلا اللجوء لفوتيس ، كما يلجأ المرء إلى كاهنة معبد مقدس ، وأن أسأله النصيحة . وقتها كانت تكره أن أبعد عنها مقدار ذراع ، بيد أنها أذنت لى تلك الليلة أن أفارقها فترة قصيرة ، وقد أنذرتنى قائلة : « اسمع .. يا حبيبى ! لا تمكث طويلاً فى الحفل ، عد بأسرع ما يمكن ، إذ أن فى هوباتا عصابة من القتلة تنشر الرعب فيها فى الساعات الأخيرة من الليل ، تجد متعة فى قتل من يمر بها وأن تزرع الطرقات بالجنث ، إنهم أبناء العائلات السرية فى البلد ، وأقرب معسكر روماني يقع على بعد أميال من هنا ، فلا يمكن عمل شئ للقضاء على هذا البلاء . أنت بالذات يلحقك خطر مهاجمتك ، إذ لا يحمل هؤلاء القتلة ذرة من الاحترام للأغراب ، وأشد ما يشعل رغبتهم فى التدريب على اللعب بالسيف عليك رؤيتهم إياك مرتدياً ثياب النبلاء » .

فقلت لها : « لا تقلقى يا عزيزتى فوتيس ، حفل العشاء ذاك لا يشدنى مثلما تفعل جلساتنا هنا . أعدك بتقصير مدة قلقك بالعودة أسرع ما أمكننى . ومع هذا ، سأقلد هذا السيف الذى أعرف جيداً كيف أستعمله فى الدفاع عن نفسى ، وأخذ أحد عبدى معى كذلك » .

كان حفل العشاء واحداً من ولائم دورية ، فقد كانت برهاينا زعيمة مضيفات هوباتا ، وكان الجميع هناك على اختلاف الطبقات . كانت الموائد

مصنوعة من خشب النارنج المطعم بالعاج ، والحشايا مكسوة بقماش ذهبي ، وكل قدح من أقذاح الشراب ، رغم تنوع صناعتها ، تحفة فنية نادرة فى بابه ، سواء كان من الزجاج وسط صدفة منقوشة ، أو من البلور الطبيعى أو الفضة الصقيلة ، أو الذهب ، أو الكهرمان الجميل النحت أو كان مجوفاً من حجر شبه كريم . باختصار - لك أن تفكر فى أى شئ مستحيل فى مجال الأقذاح تجده هناك .

سرب من الجوارى الحسان تهادين يملأن الموائد بأطايب الطعام كلما نقص منها شئ ، فى حين مضى عدد من الغلمان ذوى الشعر الجعد فى ثياب أنيقة ، تراكضوا صعوداً وهبوطاً ، يفعمون كؤوس الشراب المجوهرة بخمرة معتقة من القرون الأولى .

أرخبى الليل أستاره ، فأحضرت القناديل ، وبدأت ترتفع حرارة السمر . فالتفتت برهاينا إليّ وقالت : «يا ابن الخالة . ما رأيك فى بلدنا المحبوبة تساليا ؟ إننا حتى الآن ، حسبما أرى ، متقدمون كثيراً عن أى بلد آخر فى العالم ، إذا ما حكمت بعدد الحمامات والمباني العامة الأخرى ، ولا يقارب بيوتنا الخاصة بيت آخر فى فرشها . ومع ذلك فإن لكل من يزور بلدتنا حرته المطلقة فى أن يقضى وقته كما يشاء ، فإن كان يطلب عملاً وجد كل لفظ روما وضجيجها فى أسواقنا ، وإن كان يطلب الراحة وحدها فإن لدينا بيوتاً هادئة كهدهوء الريف . لقد صارت هوباتا فى الحقيقة مركز استجمام رئيسى فى المنطقة» .

فوافقتها بحرارة : «لم أشعر أبداً فى أى من رحلاتى بالراحة أكثر مما أفعل هنا - وإن كان على أن أصرح بخوفى من فنون ساحراتكم الغامضة ، ولا يبدو أن هناك سبيلاً للاحتماء منهن ، فقد أنبتت أنهن لا يحترمن حتى الأموات ، وأنهن ينبشن القبور وأكوام رماد الجنائز بحثاً عن العظام ،

ويأخذن قطعاً من لحم الجثث غير المحترقة يستخدمونها في تنغيص حياة الجيران ، وأن بعضاً من هاته الساحرات يسارعن ، إذا ما شمنن رائحة الموت في أى مكان ، ليتترعن جزءاً من جثة الميت قبل وصول النائحين» .

فقال رجل على مائدتي : «لا ريب في هذا كله ، بل أكثر من هذا، هن لا يعتقدن الأحياء أيضاً ، منذ زمن غير بعيد قضمت هذه الزمرة الجهنمية جزءاً من وجه رجل لا أجدنى في حاجة ماسة إلى ذكر اسمه» .

ارتفع الضحك صاحباً إثر هذه الملاحظة ، وتلفت الجميع ينظرون إلى ضيف كان متكئاً على حشية عند مائدة فى ركن الدار . توالى الضحك دون انقطاع وكان الرجل ، وقد شعر بالخرج تماماً وهو يغمغم بغضب ، على وشك القيام والخروج حين أمأت إليه برهاينا أن يظل فى مكانه ، وقالت معترضة : «كلا .. كلا يا عزيزى ثيلوفرون ، ينبغي ألا تندفع هكذا . أرنا طبعك المرح واحك لنا مغامراتك تلك مرة أخرى . أود لو أن ابن خالتي لوكيوس ، وهو عندى كابنى ، وجد لذة سماعها من شفتيك أنت ، إنها قصة رائعة» .

فأجاب ، ولا تزال به بقية من غضب : «سيدتى برهاينا ! إنك المضيفة الكاملة دائماً ، ولا تخفى أبداً طيبة قلبك ، بيد أن سفاهة زملائى الضيوف تفوق الطاقة» .

فذكرته برهاينا بحزم أنه يخيب رجاءها تماماً إن لم يحقق رغبتها ، مهما بدا ما كلفته به مخالفاً لما يرى . جمع غطاء حشيته وجعل منه متكأ صغيراً ووضع مرفقه الأيسر عليه ، ثم أشار بيده اليمنى طالباً الانتباه بحركة خطابية ، ومد سبابته وإصبعه الوسطى رافعاً إبهامه ، وضم إصبعيه الآخرين طلباً للتوفيق ، وهذه هى القصة التى حكى :

«أيام كنت لا أزال طالباً جامعياً فى مَلْطَة جئت لأشاهد الألعاب

الأولى، فلما أحسست بعدها بالرغبة العارمة فى زيارة شمال اليونان تنقلت فى أغلب أجزاء ثساليا ، وذات يوم نحس بلغت لاريسا وقد أتيت تقريبا على كل ما أحضرت معى من مال ، وفيما أنا أطوف الطرقات ، أفكر كيف أملاً صرة نقودى مرة أخرى ، رأيت رجلاً طويل القامة واقفاً على حجر وسط السوق ، كان يعلن بأعلى صوته عن مكافأة مجزية لمن يقف ديدباناً على جثة تلك الليلة . فسألت أحد الواقفين : «ما معنى هذا ؟ هل من عادة جثث لاريسا أن تلوذ بالفرار ؟» فأجابنى : «صه .. أيها الشاب ، أرى أنك غريب تماماً هنا، وإلا لعرفت أنك فى ثساليا حيث من عادة الساحرات أن تقضم قطعاً من لحم وجوه الأموات لسيتم عملنها فى تعاويذهن السحرية» .

«آه .. فهمت ، وهلا تفضلت بإعلامى ماذا تتضمن حراسة الموتى هذه؟»
«بكل سرور ، إنها تعنى الحراسة بانتباه طيلة الليل ، وعين المرء مثبتة على الجثة دوغما التفاتة واحدة عنها . هاته النسوة الفظيعات قادرات على تغيير أشكالهن فى لحظة ، إذ يتحولن إلى طيور أو كلاب أو فئران أو حتى ذباب - يتنكرون بطريقة تخدع أى مدقق حتى فى ساحة المحكمة - ثم يرسلن الحارس فى نوم عميق . لن أحاول إخبارك بكل الحيل الخارقة التى يتخذنها حين يبعين إشباع شهيتهن المتوحشة . وعلى كل حال فإن المكافآت المعتادة تتراوح ما بين مائة درهم ومائة وخمسين درهماً لعمل ليلة واحدة ، لا تكاد تستحق المخاطرة ، آه .. كدت أنسى إعلامك بأنه إذا لم يسلم الحارس الجثة صبيحة اليوم التالى إلى أهلها بالحالة التى وجدوها عليها ، فهو ملزم بحكم القانون أن يقطع من وجهه ما يعوض المفقود من الجثة» .
لم يرعبنى هذا القول ، فقلت للمعلن بجسارة إنه لا حاجة له بتكرار إعلانه : «أنا مستعد للقيام بالعمل ، كم يعرضون من أجرة ؟» .

«ألف درهم .. لأن هذا عمل يتطلب انتباهاً أكبر من المعتاد لهاته الغولات المفزعات . المتوفى كان ابن أحد أغيان البلد» .

قلت : «كل هذا الهراء لا يحرك منى شعرة ، أنا رجل من حديد ، لا يهمنى النوم ، ولى عينان أحد من عيني لونكيوس ، رقيب سفينة الأرغو . يمكن ، فى الواقع ، القول بأننى كلى عيون مثل العملاق آرغوس الذى كلفه جوبتير ذات يوم بالخورية إيو» .

لم أكد أنهى تزكية نفسى للمهمة حتى أسرع بى العجوز مباشرة إلى بيت كبير مقفل المداخل بإحكام ، فأدخلنى عن طريق بابا جانبى ، وخلال دهاليز ، حتى وصلت غرفة مقفلة النوافذ حيث جلست امرأة ترتدى ثياباً حالكة السواد يعلو صوت نحيبها فى النور الخافت ، مضى المنادى إليها وقال : «هذا الرجل يأخذ على عاتقه حراسة جسد زوجك الليلة ، وهو موافق على الأجر» . فأزاحت الشعر الذى غطى محياها الجميل الحزين ورجتنى أن أكون عند حسن الظن فى مهمتى .

«لا تقلقى يا سيدتى ، إذا ما أحسنت الجزاء بعد ذلك !» هزت رأسها وكأنها فى غيبوبة ، ونهضت وقادتني إلى مقصورة ، حيث أرتنى الجثة مسجاة على قطعة رخام ملفوفة فى كفن من القماش الناصع البياض ، وبعد برهة من النحيب دعت سبعة من الشهود وأمين سرها الذى جاء ومعه أدوات الكتابة ، ثم قالت : «أيها السادة .. لقد دعوتكم لتشهدوا أن الأنف خال من الأذى ، والأذنين كذلك ، وأن العينين لا تزالان فى محجريهما ، والشفتين كاملتان ، والذقن كذلك» ، وكانت كلما ذكرت عضواً لمسته وسجله أمين السر فى قرطاس وقعه الشهود وختموه .

فى طريقها إلى الخروج سألتها : «هل تفضلين ، يا سيدتى ، بأن تستوثقى أن لدى كل ما أحتاج إليه فى سهري الليلة ؟»

«مثل ماذا؟»

«مصباح جيد كبير فيه من الزيت ما يكفى حتى ظهور النهار ، أوعية خمر ، وماء دافئ لشعشعتها ، وقدر ، وطبق من اللحم البارد والخضروات مما فضل من عشائك» .

هزت رأسها بغضب وقالت : «يا له من طلب سخيف ! يا سلام !! لحم مطبوخ وخضروات فى بيت النواح حيث لا نار أوقدت منذ أيام ! هل تتصور أنك جئت هنا لحفل عشاء مرح ؟ ينتظر منك أن تنتحب وتذرف الدموع مثلنا» ثم التفتت إلى وصيفتها : «مورينا ! املاى المصباح ، واحضره فى الحال ، واقفلى الباب ، واتركى الحارس لمهمته» .

صرت والجنّة وحدنا فقويت عيني على القيام بواجبها بأن دعكتهما بشدة ورفعت من روى المعنوية بالغناء . تحول الشفق إلى مساء ومضى شوط من الليل والظلام يتكاثر شيئاً فشيئاً . كنت فى البداية قلقاً نوعاً ما ، لكن ما لبثت مخاوفى تزداد حتى غشاني الرعب تماماً حين انزلق جرداً داخلًا من ثقب فى الباب ووقف بالقرب منى وثبت عينيه بقوة فى عيني كانت جراءة الحيوان الصغير بالغة ومخيفة ، بيد أنى استطعت أن أصرح به : «أخرج من هنا أيها الحيوان الحقير القذر وإلا كسرت عنقك ! اذهب والعب مع رفاقك الفئران ، هل تسمعنى ؟ إننى أعنى ما أقول» .

انقلب الجرد على عقبيه وخرج من الغرفة ، وفى أثناء خروجه غمرنى نوم مباغت عميق وجرنى إلى أعماق حلم سحيق ، فوقعت على الأرض كالمت حتى أن أبولّو لم يكن بقادر على التمييز أيهما كان الجنّة ، الجسد المسجى على الرخام أم الجسد الملقى على الأرض . لقد بدا الأمر وكأننى متُ فعلاً وأن جشّتى تركت دون أن تجد من يحرسها !

أخيراً بدأت الظلمة تنقشع ، فانتفضت مستيقظاً على صوت غراب حاد

النبرة ، والتقطت المصباح ودققت النظر فى وجه الجثة بإمعان ، وكان ارتياحى غامراً حين وجدتها لم تمس . وفى التو اندفعت الأرملة المسكينة داخله ، وهى لا تزال تجهش بالبكاء ووراءها الشهود السبعة ، ألقت بنفسها على الجثة ، وبعد أن قبلتها مرات ومرات طلبت المصباح لتستوثق عن قرب أن كل شئ على ما يرام ، ثم التفتت وصاحت : « فيلودسبوتيس ! تعالى هنا ! » فظهرت وصيفتها ، « فيلودسبوتيس ! ادفعى لهذا الشاب أجره فى الحال ، لقد قام بواجبه على خير وجه » .

قلبت القطع الذهبية البراقة فى يدي بهدوء ، تعمى البهجة بحظى الحسن على غير انتظار ، وأجبت : « أشكرك كثيراً يا سيدتى ، ويسعدنى أن أخدمك مرة أخرى كلما احتجت إلى خدمتى ! » .

ولم تكده هذه الكلمات تخرج من فمى حتى اندفع أهل البيت جميعاً نحوى باللطمات واللعنات عليهم يمنعون وقوع الفأل السئ الفظيع ، لكنى أحدهم بقبضته فى وجهى ، ووكزنى آخر بمرفقه فى كتفى ، وركلنى ثالث بقدمه فى فقاى وقبل أن يلقوا بى خارج البيت كانت أضلاعى مهروسة وشعرى مقطعاً وملابسى ممزقة ، فشعرت كأئننى أدونيس حين هرسه الخنزير البرى أو أوفىوس حين قطعته نسوة تراقيا إرباً ، وحين توقفت فى الطريق بعيداً عن البيت لأسترجع حواسى وأدركت مغزى ما قلت - وكانت ملاحظات جانبها التوفيق تماماً - عرفت أننى نجوت بأقل خسارة ممكنة ، إذا ما اعتبر واقع الحال .

بعد الإجراءات المعتادة ، وبعد أن ناداه أقاربه باسمه فرداً فرداً ، خشية أن يكون فى مجرد غيبوبة ، أخرج الميت من البيت ، وإذا كان رجلاً من عليه القوم فقد كرم بجنازة عامة ، فلما بلغ موكب الجنازة السوق جاء شيخ يجرى والدموع تنهمر على وجهه ، وهو يمزق خصل شعره الأبيض فى

نوبة من الأسى البليغ ، ثم أمسك بالنعش المفتوح بيديه الاثنتين وصرخ يطلب الانتقام .

« يا أهل هوياتنا ! » هكذا صاح وصوته تخنقه العبرات « أتوسل إلى شرفكم ، أتوسل إلى إحساسكم بالعدالة والواجب العام ! قفوا إلى جانب مواطنكم - ابن أخى المسكين ، إثأروا لموته من تلك المرأة الشريرة - أرملته ، هى ، هى وحدها ، القتالة ، قتله لتستر صلة حب وتستحوذ على أملاك زوجها ، قتله بالسسم البطئ » ، ومضى الشيخ فى نواحه ونحيبه حتى هاج الجمع عطفاً عليه ، وفى ظنهم أن قد يكون ثمة أساس صادق لانتهامه . صاح بعضهم : « إحرقوها ! إحرقوها ! » وآخرون : « ارجموها حتى الموت ! » وتشجع زمرة من الشبان الأشرار للنيل منها دون الالتفات إلى القانون .

وقد أنكرت المرأة جرمها بالأيمان والدموع (رغم أنه لم يكن فيهما كبير إقناع) والدعاء الموثق لكل الأرباب والربات فى السماوات أن يشهدوا على عجزها المطلق أن ترتكب مثل هذا الإثم .

« فليكن » - قال الشيخ « إننى أرجع القضية إلى حكم قدسى ، ها هنا زائكلاس المصرى ، أحد كبار محضرى الأرواح فى وطنه ، الذى تكفل ، لقاء أجر كبير ، بأن يستحضر روح ابن أخى من عالم الأموات ويقنعها بأن تعيد الحياة إلى الجثة فترة قصيرة من الزمان » .

كان الشخص الذى قدمه للجمع يرتدى ثوباً من قماش أبيض ويتنعل خفين من سعف النخيل فى قدميه ، وقد حلق رأسه تماماً . فقبل الشيخ يديه وخطب ركبتيه متضرعاً : « يا صاحب الغبطة ! ارحمنى ، أدعوك باسم نجوم السماء وآلهة العالم السفلى وعناصر الطبيعة الخمسة ، أدعوك بسكون الليل ، بالسدود التى بنتها خطاطيف إيزيس حول الجزيرة القبطية ، بفيضان النيل ، وبأسرار ممفيس ، وأدعوك بجلجلة فرعون المقدسة - أتوسل إليك

بهذه المقدسات أن تمنح روح ابن أخى عودة قصيرة إلى دفء الشمس ، وأن تنير عينيه حتى تنفتح ويستعيد فى التو مانسيه بهبوطه إلى عالم الأموات .
إننى لا أجادل القدر ، ولا أنكر على القبر ما هو له ، كل رجائى غيبة قصيرة قد يعينى الميت خلالها فى الثأر لمقتله - العزاء الوحيد لى فى شجنى الغامر .

لمس محضر الأرواح فم الجنة ، وهو يتمم بتعاويذه ، ثلاث مرات بعشبة صغيرة ووضع أخرى على صدرها ، ثم استقبل المشرق يصلى سرّاً لقرص الشمس المقدس الطالع . احتبست أنفاس الجمع الحاشد فى السوق ترقباً أمام منظر هذه التهيئة الجادة ، ووقف الجميع استعداداً للمعجزة فاندفعت وسط الحشد وعلوت حجراً خلف النعش بالضبط حيث شاهدت المنظر كله بتطلع مستثار .

فى الحال بدأ صدر الجنة يعلو ويهبط ، وشرع الدم يتدفق ثانية فى عروقها ، فجلس الميت ونطق بنبرة المتشكى : «لماذا تستعيدوننى إلى متاعب هذه الحياة المرحلية وقد شربت من جدول الليثى وطفوت على مياة نهر الستوكس ؟ دعونى وشأنى ، أقول لكم ، دعونى وشأنى ! دعونى أنمّ دون إزعاج !» .

رفع محضر الأرواح صوته مستشاراً : «ماذا ؟ أترفض أن تخاطب أهل بلدك وتجلو غامض ميتك ؟ ألا تعلم أننى مستعد ، إن أخفيت تفصيلاً من الأمر ، أن أدعو جنيات الرعب ليعذبن كل طرف من أطرافك بأدواتهن الحديدية ؟»

هنا رفع الميت نفسه كرة أخرى وزمجر مخاطباً الجمع : «لم يعد السرير الذى كنت أحتله حتى الأمس خالياً ، فيه ينام غريمى ، لقد سحرتنى زوجتى ودست لى السم» .

وقد أظهرت الأرملة شجاعة ملحوظة فى هذا الظرف ، أنكرت كل شئ

مقسمة بأغلظ الأيمان ، وشرعت تجادل المرحوم زوجها وتحاججه كما لو أنه ليس ثم شئ من احترام الأموات ! أما الجمع فقد انقسم فريقين : نادى بعضهم بدفن المرأة الخبيثة حية فى القبر المعد لضحيتها ، بينما رفض الآخرون قبول دليل من جثة لا إدراك لها وقالوا إنه لا يوثق بها ، غير أن الجثة سرعان ما حسمت الجدل بزمجرة مجوفة أخرى ، قالت الجثة : «سأقدم لكم دليلاً لا يدحض على ما أن ما أقوله لكم هو الحق ، وذلك بأن أكشف عن شئ لا يعرفه أحد سواى» ثم أشارت إليّ وقال : «بينما كان هذا الفتى الطالب المثقف يحرس جثتى بعناية حاولت الساحرات الرهيبات اللاتى كن يحمن غير بعيد يتحين فرصة سرقتها ، قدر جهدهن أن يخدعنه بتغيير هيئاتهن ، غير أنه تفتن لكل حيلة منهن ، ورغم أن باب الغرفة كان موصداً بإحكام فقد انزلقن داخلات متخفيات فى شكل جردان وفئران من ثقب فى الباب ، وألقين سحابة من النوم عليه فوق فاقد الإحساس ، ثم نادينى باسمى مرة بعد مرة ، جاهدات أن أطيع أوامرهن السحرية ، لم تستطع مفاصلى الواهنة وأطرافى الباردة ، رغم كل الجهد ، أن تستجيب فى الحال ، لكنه حدث أن اسم هذا الطالب الذى أرسل فى غيبوبة هى ضرب من الموت كان كاسمى ، فلما نادت الساحرات : ثيلوفرون .. ثيلوفرون .. تعال : استجاب بحركة آلية ، ونهض كشبح فاقد الشعور يقدم إليهن وجهه ليقطعن منه ما انتوين اقتطاعه من وجهى ، فقضمن أولاً أنفه ثم أذنيه ، ولكى يصرفن الانتباه عما فعلى عوضه بأنف من الشمع يشبه أنفه وأذنين من الشمع كذلك والفتى المسكين يحسب أنه أحسن جزاؤه عن سهره ، فى حين أنه عوض تعويضاً بخساً عن خسارة فادحة !» .

عمنى الهلع من هذه القصة ، فوضعت يدى على وجهى لأرى ما إذا كانت حقيقة فسقط أنفى ، ثم لمست أذنى فسقطتا هما أيضاً ، أشارت مائة يد من الجمع نحوى ، وانطلقت موجة عالية من الضحك ، غطانى عرق

بارد ، ووثبت من فوق الحجر وتسلفت من بين الأقدام ، مثل كلب خائف ،
مبتور الأذنين مجدوع الأنف أبدو مضحك الشكل ، ولم أعد بعدها إلى
ملطة ، وها أنا الآن أخفى فقدان أذنى بأن أرسل شعري طويلاً على جانبي
رأسى وألصق أنفاً مستعاراً على وجهى لأخفى ما لحق بى من تشويه .



انطلقت ضحكات الضيوف السكارى من أعماق قلوبهم حين بلغ
ثيلوفرون ذروة قصته ورفعوا أيديهم بنخب إله الضحك كالعادة ، وقالت
برهاينا تشرح الموقف : « منذ أن أنشئت هوبانا ، لنا احتفال فريد فى بابيه هو
احتفال يوم الضحك السعيد ، أنا واثقة من أنك ستحضر الحفل غداً ،
لاسيما وأنت ستكون قادراً على التفكير فى فكاهة منك إسهاماً فى
الاحتفال ، ترى أن (الضحك) إله نوقره توقيراً كبيراً .

فأجبتها بانشرح : « سوف أحضر حتماً ، وكل ما أمله أن أكون قادراً
على ابتكار شئ جيد فعلاً ، شئ مضحك جداً لا أستحى من تعليقه فى عنق
معبودكم العظيم نفسه ! » فى هذه الساعة كنت شربت بقدر ما أردت ،
وحين جاء عبرى إلى مائدتى وأخبرنى بأن الوقت بلغ منتصف الليل
استأذنت من برهاينا على عجل وخرجت مترنحاً فى الظلمة . كان العبد
يحمل فى يده سراجاً ، غير أن هبت ريح مفاجئة أطفأته فى منتصف أول
شارع ، وقضينا وقتاً عصيباً نتلمس طريقنا من بابا إلى باب ، تعلق إبهام
أقدامنا بأحجار الطريق المرصوف فنقع عليها ، ونحن بلغت الزقاق الذى
كان به بيتنا رأيت فجأة ثلاثة رجال ضخام يحاولون تحطيم باب منزل ميلو
الرئيسى بكل ما أوتوا من بأس . لم يبد عليهم الاجفال بوصولنا ، بل
صاروا أكثر عنفاً من ذى قبل ، وهم يضربون الباب بأقدامهم ليخلصوا عنه
روافده ، لم يساورنى شك فى أنهم سراق منازل ، ولم يكن لعبدى شك

كذلك ، فسحبت سيفي من تحت عباءتي ، حيث كنت أخفيه لساعة مثل هذه الساعة ، واندفعت نحوهم ، وحين التفتوا لمواجهةي طعنتهم واحداً بعد الآخر وأنا أغرز النصل في جسد كل منهم حتى حدة ، فسقطوا على الأرض ، وأعدت الطعن مراراً وهم يحاولون القيام ، حتى لفظ ثلاثتهم الأنفاس تحت قدمي .

أيقظت الجلبة فونيس فأسرعت تفتح الباب لي ، فحبوت إلى داخل البيت ألهمت متقطع الأنفاس والعرق يقطر مني ، وألقيت بنفسي على فراشي ، وغشاني النوم في لحظة ، وقد أرهقني القتال كما لو أنني كنت ، مثل هرقل ، أقاتل جريون ملك الجزيرة الحمراء ذا الأجساد الثلاثة في جسد واحد ! ♦

مهرجان الضحك

كان الفجر قد شرع ينشر بذراعه الوردية المرفوعة (كما يقول الشعراء) أشعته البراقة فى سماء الصباح حين صحت من نوم هادئ، كما لو أن النوم أسلمنى إلى رعاية النهار. تذكرت بغتة أعمال العنف التى ارتكبتها عندما كان الليل مرخياً سدوله، وبدأ عقلى يدور، جلست متربعا، منحنى الظهر، فى فراشى وأصابى تنعقد وتنفك بحركة عصبية، وأنا أهز ركبتى، وفى الحال انفجرت بالبكاء وأنا أصوم لنفسى منظر المحكمة ومحاكمتى ثم إدانتى وجلادى ثم إعدامى، «كيف أرجو أن أجد قاضياً» هكذا سألت نفسى «قاضياً طيباً واعياً يرئى من تهمة القتل العمد لأولئك الرجال الثلاثة العزل من السلاح؟ أظن أن هذا ما عناء ديوفانيس الكلدانى حين تكهن لى واثقاً بأن رحلتى ستكون سبباً فى ذبوع صيتى».

كنت لا أزال مسترسلاً أتفكر فى مغامرتى المشؤومة وعواقبها المحتملة حين بلغ مسمعى طرق عنيف على باب المنزل الرئيسى يصحبه نداء صارخ، وما أن فتح حتى اندفع عدد كبير من الناس داخلين يتزعمهم أعضاء المحكمة وقادة شرطة المدينة، واحتلوا كل غرفة فى البيت. أمر شرطيان بالقبض عليّ، فجذبانى بشدة رغم أننى لم أجد أية مقاومة فلما بلغنا نهاية الزقاق رأيت لدهشتى جمعاً حاشداً فى انتظار ظهورى - كان أهل هوياتنا عن بكرة أبيهم حاضرين فيما بدا لى. شئ واحد كان أبعث على الدهشة وأنا أمشى فى الطريق بائساً أنظر إلى الأرض التى كنت أخشى أن روحى

ستهبط من خلالها إلى العالم السفلى الكئيب ، وهو أنني كلما رفعت رأسي وألقيت نظرة خاطفة على الحشد الحاشد المصطف على جانبي الطريق لم أر من بين عديد الآلاف من البشر شخصاً واحداً لم يكن منفجراً بالضحك .

وبدلاً من أن أؤخذ إلى السوق مباشرة ، حيث تجري المحاكمة ، أخذت عبر طريق دائري طوف بي من ركن إلى آخر ، كما لو أنني القربان يقاد عبر شوارع المدينة الرئيسية حين تشاهد نذر الشؤم وتدعو الحاجة إلى استرضاء الأرباب . وأخيراً وضعت في قفص الاتهام واتخذ القضاء أماكنهم على منصة المحكمة ، غير أن الاعتراضات سمعت من كل جانب حين زعق كاتب المحكمة طالباً الصمت «حاكموه في المسرح بدلاً من هنا !» ، «قفوا !! قفوا !!» «حاكموه في المسرح !» .

ولما كانت القضية ذات أهمية تفوق العادة فقد وافق القضاء على تغيير محل النظر فيها ، وأفرغ الجمع الحاشد نفسه في المسرح بسرعة خارقة . كان كل مقعد فيها مشغولاً ، وكل مدخل مسدوداً ، بل حتى سطح المسرح كان يغص بالناس . بعضهم ارتقى أطراف الأعمدة وتعلق آخرون بالتمائيل وحشر بعضهم نفسه في النوافذ أو فتح فرجة في خشب السقف ليتمكن من المشاهدة ، ويدأ أن ما من أحد كان ملتفتاً إلى سلامته في أثناء هذه الرغبة الجماعية في رؤية محاكمتي . قادني رجال الشرطة عبر المسرح ووضعوني في مقدمته قريباً من موضع عازفي الموسيقى ، كما لو أنني القربان يعرض أمام الناس ليتملوه !

بدأ كاتب المحكمة يزعق مرة أخرى ، داعياً شاهد الإثبات الأول للإدلاء بشهادته ، فنهض رجل متقدم في السن لم أكن أعرفه ، وتقدم دعي . للكلام حتى ينتهي الماء في الساعة ، وكانت عبارة عن كرة مجوفة ملئت ماءً ليتسرب يبطء عبر ثقب صغير فيها ، فقال :

«إن واجبي أيها السادة القضاة ، أن أدلل على أمر أراه ذا خطر عظيم إذ هو يؤثر في سلامة المدينة بأكملها ، واثقاً من أن حكم حضراتكم سيكون مثلاً يحتذى به ، وإن إحساسكم بالكرامة الوطنية لن يسمح لكم بالنهوان في جريمة قتل مواطنيكم.الدموية المتعددة التي ارتكبها هذا الوغد المائل في قفص الاتهام . ينبغى على حضراتكم ألا ترتابوا في أنني مدفوع بدافع شخصي في تقديم هذا الاتهام . إنني رئيس عسس المدينة ، وأشك في أن ثم إنساناً يمكنه اتهامي بعدم الانضباط في أداء واجباتي . فأذنوا لى أن أقص عليكم تفصيل ما حدث بالضبط الليلة البارحة . حوالى منتصف الليل كنت أنهى تطوافي ، وقد تجولت في كل شارع واستوثقت من أن كل شئ على ما يرام ، شد انتباهي هذا الشاب وهو يركض كالمجنون الهائج وسيفه وصلت في يده في زقاق خارج المدينة بقليل . فلما وصلت وجنودى كان ثلاثة رجال سقطوا قتلى تحت قدميه ، والدم يتفجر من جراحهم ، وقد فر القاتل من فوره ، مدركاً بجلاء بشاعة جريمته ، ورغم العتمة رأيناه يتسلل إلى بيت قريب حيث لبث طيلة الليل ، وضعنا البوابة تحت الحراسة ، واستطعنا برحمة الأرباب التي تأبى أن تمر جريمة من هذا القبيل دون عقاب، أن نأخذه بكور هذا اليوم قبل أن يتدبر أمر الفرار من باب جانبي ، وقد جثت به الآن أمام حضراتكم لتحكموا عليه بما يستحق من عقاب ، إنه قاتل من الدرجة الأولى ، قبض عليه مضرج اليد ، ورغم أنه ليس من مواطني تساليا فإننى لوائح من أن الحكم عليه سيكون شديداً كما لو كان أن اسمه مسطر في سجلات المدينة» .

لم يكذ يكمل كلامه حتى وثب كاتب المحكمة وأمرنى بأن أشرع في الدفاع عن نفسي إذا كان عندى دفاع . لم أستطع في البداية شيئاً إلا النحيب ، لأ بسبب من قسوة التهمة بقدر ما كان السبب تأنيب الضمير ، بيد أنني ألهمت أخيراً ، بشكل أو بآخر قدراً من الجرأة للدفاع .. فقلت :

«حضرأت القضاة ! مهما بلغ صدق روايتي عن الظروف التي لاقى فيها مواطنوكم الثلاثة هؤلاء مصيرهم على يدي - وهم الذين جئ بجثثهم دليلاً ضدي - فإنني لأعلم علم اليقين مدى صعوبة إقناعكم ، وهذا الجمع الكبير، ببراءتي من القتل العمد .

إن تفضلتم بالإصغاء إلى قليلاً ، فإنني كفيل بتوضيح أنني أقف هنا الآن في قضية قد تكلفني حياتي ، لا بسبب أية نزعة إجرامية فيّ ، بل نتيجة حادثة إذ سمحت بالغضب للحق أن يسيطر على نفسي ، وما حدث أنني عدت البارحة من حفل عشاء متأخراً نوعاً أكثر من المعتاد ، ثملاً من الشراب - أعترف بهذا - وما أن بلغت منزل مواطنكم المبجل ميلو الذي أنا ضيفه ، حتى رأيت عصابة من الأوباش تحاول دخول البيت عنوة . كانوا قد حطموا مساند البوابة الحديدية وكانوا يتوعدون بقتل كل من في البيت ، وقد صاح زعيمهم الضخم الجثة الذي كان يقوم بالعمل الأكبر : «هيا يا شباب ! بينوا من أي طينة أنتم ! حين ندخل سوف نقتلهم جميعاً ، لا تراجع الآن ، من يقاوم تحطم جمجمته ، من يكن في فراشه يرسل في نومة أبدية ، الموتى لا يخبرون بشئ !» وعندها .. أعترف يا حضرات القضاة ، بأنني سللت سيفي الذي أحمله احتماء من خطر من هذا القبيل ، حسبت أن من واجبي إخافة هؤلاء السفلة المتعطشين للدماء بإظهار القوة لهم ، وبدلاً من أن يفرّوا حين رأوا أنني ذو سلاح ، وقفوا في أماكنهم بوقاحة وأبدوا أهبتهم للقتال . اندفع زعيمهم - إذا كان لي أن أسميه كذلك - نحوى وأمسك بشعري بيديه وشرع يشد رأسي إلى الورا و صاح : «سرعة! هاتو حجراً ! حطموا جمجمته !» لكنني استطعت لحسن الحظ ، أن أغرز سيفي في جنبه قبل أن يحصل على بغيته ، فوقع عند قدمي ، وقبض الآخر على عقبي وحاول عض قدمي ، غير أنني عاجلته بطعنة تحت عظم كتفه ، ثم سحبت سيفي واستقبلت الثالث مسرعاً بضربة صرعه .

انتهى القتال ، وشرعت أهني نفسي إذ صنت حياة مضيئى ومضيئى وحافظت على الأمن فى المدينة ، لقد كنت فى الحقيقة انتظر ألا أسامح فى ما فعلت فحسب بل أن أتاب على ما قدمت من خدمة ، وإنى لمندھش الآن، أستغرب من تهمة القتل العمدة هذه ، وأنا على كل حال ، رجل على المقام فى بلادى ، ولم أنهم أبداً بأدنى جرم . إن تقديرى لسمعتى يفوق كنوز الأرض جميعاً . ولا أحد فى هذا المسرح بأكمله يستطيع أن يبرهن على أنه كان لى أدنى خلاف قبل الليلة البارحة مع هؤلاء الأشرار الأوغاد ، أو أنه كانت لى صلة بأى منهم ، إن كنت متهماً بالسلب فليركم الادعاء شيئاً واحداً يزعم أننى أخذته من فوق أجسادهم ، إننى اعترف بذنب واحد هو القتل المبرر ليس غير» .

ثم انفجرت باكياً مرة أخرى ، ويدائى معدودتان توسلاً ، لا تذأ بروح الإنسانية من جمهور المشاهدين ، وتضرعت إلى الجميع بكل عزيز لديهم أن يرحموني ، فلما ظننت أن دموعى وبؤسى الواضح خلقا انطبعا لمصلحتى ابتھلت إلى عيون العدل الیقظى ، بل الشمس ذاتها ، أن تعلن براءتى أمام مجلس الآلهة المقدسة ، وأخيراً جرؤت على أن أرفع هامتى قليلاً فرأيت - لذرعى - الجمهور بأكمله يهتز جوراً يحاول كتمانہ .. الجمهور كله يكتم ضحكة ما عدا ميلو ، مضيئى الطيب ، صديقى ، حامى ، الذى كان جالساً فى مقدمة الحاضرين يقهقه دونما خجل .

فكرت فى نفسى : «أيتها السماوات الرحيمة ! أليس له قلب ؟ هل عدم الضمير ؟ أنقذ بيته من السطو وأنجيه وأهله من القتل ، وحين أقف هنا بتهمة قد تكلفنى حياتى أجده لا يرفع إصبعاً لإنقاذى ، بل يجلس ويكركر ضحكاً فى انتظار موتى !» .

فى تلك الأثناء جاءت شابة تركض عبر ممشى المسرح الرئيسى تحمل على صدرها طفلاً وهى تعول ، تتبعها عجوز شمطاء فى أسمال قدرة ،

كانت الاثنتان تنتحبان بأعلى صوتيهما وتحضران فى أيديهما أغصان الزيتون علامة الاسترحام ، صعدتا المسرح ، وانحنا حيث مددت الجثث الثلاث مغطاه بقطعة قماش ، وطفقتا تضربان صدريهما زاعقتين ، صرخت الحيزبون «يا حضرات القضاة أدعوكم باسم الشفقة ، أدعوكم باسم الضمير ! لهؤلاء الشباب الرائعين الثلاثة أم .. أرملة مسكينة .. تطلب الثأر لمقتلهم البشع» وصاحت المرأة الصغرى : «أكبرهم كان زوجى - وها أنذا الآن أرملة تعيش مسكينة ، لكن مهمما يحدث لى ، يا حضرات القضاة ، فأرجوكم على الأقل ألا تنسوا طفلى الذى يُم على صفر ، أنوسل إليكم أن تمحوا بدم هذا القاتل تلك الجريمة النكراء التى ارتكبت فى هوباتا - مدينتنا المطيعة للقانون» .

نهض رئيس القضاة وخاطب الجمهور : «بما أنه ما من أحد حتى ولا المتهم لوكيوس ، يمكنه أن ينكر أن هذه جريمة تتطلب أشد العقاب ، فلم يبق أمامنا سوى القيام بواجبنا التالى وهو معرفة شركائه فى هذه الفعلة الشنعاء ، يبدو من غير المحتمل أن فى مكنته قتل رجال أشد كهؤلاء وحده ، لكن العبد الذى رافق المتهم من حفل العشاء إلى بيته اختفى بطريقة غامضة وتركه شاهداً وحيداً على الجريمة ، وعلينا استخلاص الحقيقة منه عن طريق التعذيب : حتمٌ علينا أن نجبره على البوح بأسماء عصابته حتى يهدأ بالنا - فلعلهم يهيئون لشرور أكبر» .

وفى الحال أحضرت أدوات التعذيب المستعملة عادة فى بلاد اليونان ، موقد الجمر لكي أطراف قدمى ، والعجلة لفك مفاصلى ، ناهيك بالألة المسماة (القطعة ذات الذبول السبعة) ثم «الفلة» الفظيعة ، وقد تضاعف يؤسى حين أدركت أنه لن يسمح لى بالموت دون تقطيع أطرافى ، وكنت فى انتظار أن يبدأ تعذيبى حين تقدمت الحيزبون ، التى أفسدت كل شئ بزعيقها ، وتوسلت إلى القضاة : «قبل أن تصلبوا هذا المجرم الذى قتل

فلذات كبدي ، أرجو حضراتكم أن تأذنوا بأن يكشف عن جثثهم حتى يرى الجميع هنا شبابهم وجمالهم ، سوف يزيد هذا في غضبكم وتصرون على عقاب قاسٍ قسوة الجريمة ذاتها» .

عم السرور الجمهور ، فأمرني القضاة على الفور بأن أمضى وأزيع غطاء الجثث . رفضت القيام بهذا العمل ، وغالبت جنود الشرطة الذين حاولوا أن يجعلوني أطيع الأمر ، وجدت من المفزع أن أطيع أمر كشف جريمتي أمام الجمهور بعرض ضحاياي ، بيد أنهم استطاعوا أن يلوا يدي من على جانبي ويمدوها فوق الأجساد المطروحة ، لم يكن ثم بد ، وكان عليّ الاستسلام مهما كانت النتيجة ، فأمسكت بطرف الكفن ، والتردد الخائف يملأني ، وجذبته .

لكن .. يا إلهي !! ما هذا ؟ ما هذا المنظر الخارق ؟ ما هذا التحول الكامل في الموقف برمته ؟ منذ لحظة عدت نفسي عبداً للملكة بروسرين أساق إلى قاعات زوجها الجهنمية - والآن .. لا شيء من هذا القبيل ! فوقفت أهدق بغباء كالمعتوه ، وحتى اليوم أجد من العسير عليّ تبيان الأثر الصاعق الذي كان لهذا المنظر فيّ . لم تكن الجثث الثلاث سوى ثلاث قرب ، مشقوبة في أماكن مختلفة ! وبقدر ما أذكر تفاصيل معركتي واللصوص ، كانت الثقوب تتفق تماماً ومواقع طعنات سيفي !

بعدها انفجر الضحك الذي كان حتى تلك الساعة يمنعه مديرو المسرح بخبث أن يعلو من الجمهور ، انفجر صاخباً من جميع أرجاء المسرح الواسع . كان قسم من الحاضرين يغمرنى بالتحيات باعتباري مثال المرح والفكاهة ، غير أن الكثيرين لم يقدروا على شيء سوى وضع أيديهم على بطونهم تخفيفاً لشدة الضحك ، وقد انتهى الاحتفال بغتة ، وفي حين خرج الجمع الكبير كالسيل من المسرح ، في فيضان من الجبور ، كانت الوجوه تلتفت لتتظر إليّ نظرة أخيرة تطفح بالبشر .

منذ لحظة أن شددت الكفن عن الجثث وقفت فى مكانى متصلباً بارداً كالحجر ، تماماً كما لو كنت أحد العمد الرخامية التى تمسك بالسقف ، ولم تكن روحى قد حلقت راجعة من ظلمات الموت حين أتى مضيفى وسجنى معه برفق ، بعدها تفجرت دموعى مرة أخرى ولم أستطع كبج جماح عبراتى ، فأخذنى إلى البيت من الشوارع الجانبية والطرق الضيقة ليجنبنى حرج التعرف عليّ ، وقد حاول تهدئتى بكلمات مرحة يطيب بها خاطرى ، غير أننى كنت ألتهب إحساساً بالإهانة إذ كنت ضحية بهذا الأسلوب فلم يستطع معى شيئاً .

بعد قليل وصل القضاة إلى بيتنا وهم فى أرديتهم الرسمية وحاولوا جهدهم أن يخففوا عنى : «يا سيد لوكيوس ! إننا ندرك تمام الإدراك مقامك ورتبة عائلتك السامية ، فإن أسرة والدتك بالطبع ذائعة الصيت على طول بلاد اليونان وعرضها ، فلا تظنها إهانة مقصودة أن جعلناك موضع مراسم المهرجان التى أثرت فىك هذا التأثير كله ، نرجو أن تنسى غضبك الآن . الواقع أننا اليوم نحتفل مثل كل عام ، احتفالاً مهيباً تكريماً للضحك ، خير الأرباب أجمعين ويجب أن يحتفى به بدعابة عملية جديدة . الآن يصاحبك رب الضحك بمودة حيثما ذهبت ولن يتركك مهموماً أبداً ، وهو يسمح جبينك بألوان زاهية تدل على أنك من خلصائه ، أكثر من هذا .. لقد أسبغت عليك مدينة هوياتنا بالإجماع أكبر شرف يمكنها أن تمنحه - لقد سجل اسمك فى سجل أكبر المواطنين الصالحين فيها ، وسوف يرفع الستار فى الوقت المناسب عن تماثيل النحاسى فى ميدان السوق » .

فأجبت بأدب : «أرجو أن تبلغوا مواطنى هذه المدينة الفريدة الرائعة عميق شعورى بالشرف الذى حظيت به ، ولكننى أرجو أن تغفروا لى اقتراحى بأن يحفظوا إقامة التمثال لمن هم أكبر منى وأجدر» ثم اغتصبت ابتسامة وأنا أستأذنهم فى مغادرتهم بلطف ، وجاهدت لأوحى إليهم أننى

كنت سعيداً كل السعادة .

ما أن خرجوا حتى دخل أحد الخدم مسرعاً : «تحيات السيدة براهينا ، وهل يتفضل سيدى بأن يتذكر دعوتها للعشاء التى تكرم بقبولها الليلة البارحة ؟ سوف يصل الضيوف بعد قليل» فأجبتة وقد اقشعر بلدى بمجرد ذكر بيتها : «أرجو أن تبلغ حضرتها أنني شديد الرغبة فى تلبية الدعوة ، لولا ارتباط لا أستطيع فكه ، لقد أقسم عليّ مضيفى ميلو باسم رب مهرجان اليوم ، أن أتعشى معه الليلة ، وأصر على ألا أعادر البيت وألا يخرج هو معى ، يؤسفنى أن أوجل هذه المتعة إلى مساء آخر مناسب» .

أخذنى ميلو بعد ذلك إلى أقرب حمام ، وقد أمر عبداً أن يتبعنا بمواد الزينة ، وكان رب الضحك فعلاً يصاحبنى حيثما ذهبت ، انكشيت من التحيات الضاحكة من كل من قابلنا ، وأنا ملتصق بجانب ميلو قدر ما استطعت ، أكاذ أذوب خجلاً إذ جعلت هزوة ذلك اليوم ، ولست بمستطيع صدقاً ، أن أتذكر كيف تمكنت من أن أغتسل وأنعطر وأجفف جسدى فى الحمام ، بل كيف عدت إلى البيت . كنت مضطرباً مرتبكاً من نظرات أهل المدينة وإشاراتهم إليّ .

ازدردت لقيمات زهيدة حقيرة فى منزل ميلو ، ثم أعلمته بأن كثرة بكائى سببت لى صداعاً عنيفاً وأنه يجب على القصد إلى النوم فى الحال ، فعذرنى ميلو مدركاً حالى ، ومضيت إلى غرفتى وألقيت بنفسى على الفراش حيث شرعت أفكر فى أحداث اليوم .

بعد قليل دخلت حبىبتى الغالية فوتيس متسللة ، وقد أسلمت سيدتها أمنة إلى فراشها ، لم تكن مطلقاً فى بشاشتها المعتادة ولا حيويتها ، بل كانت قلقة مقطبة الجبين . بعد صمت طويل غمغمت قائلة : «لدى ما أعترف به يا لوكيوس ، أنا الملوومة الوحيدة على كل ما حدث لك اليوم من

ضنك» ثم استلت سوطاً مجدولاً من تحت ثوبها ودفعته إليّ : «خذ هذا . ها هو . انتقم لنفسك من الفتاة التي خانتك ، الهب جسدى به كيصفما شئت وحيثما شئت ، فقط .. لا تظن لحظة أننى تعمدت أن أسبب لك هذا العناء البالغ ، أشهد الآلهة جميعاً على أننى مستعدة لسفك دمي ولا أدعك تعاني أقل أذى يأتيك من قبلى ، أو تحس بأى ألم يحيق بك ، غير أن الشؤم يتبعنى دائماً ، أمرت بعمل شئ آخر لسبب مختلف فكانت نتيجة إيلامك على هذا النحو الفظيع» .

لم يكن فضولى خبا بتلك التجربة القاسية ، وكنت مشوقاً لمعرفة سر القرب الغامض ، فصرخت باستهجان : «أتخضرين لى هذا الشئ البشع الشرير وتدعينى لأن أجلدك به ؟ سوف أقطعه إرباً قبل أن يلمس بشرتك الناعمة . لكن قولى لى يا حبيبتى ، أرجوك أن تقولى لى ، ما الذى فعلته بالضبط فجعلنى بائساً كل البؤس ؟ أقسم لك بوجهك الذى أحبه كل الحب أن ما من أحد ، حتى ولا أنت نفسك ، بقادر على إن يجعلنى أو من بأنك أمتنى عمداً . من مبادئ العدل أن النية السليمة لا تعتبر نية آثمة لمجرد أن نتيجتها كانت نحساً عن طريق الصدفة» .

كانت عيناها نصف المغمضتين مخضلتين بالدمع ، ثم استعادت هدوءها وقالت : «يجب على أولاً أن أقفل الباب حتى لا يسمع أحد ما سأقوله لك - شئ خاص للغاية - فيقع كلانا فى أوحم العواقب» . قالت هذا وسارعت إلى إقفال الباب وتأمين مصراعيه ، ثم عادت إلى وأمسكت برأسى قريباً من رأسها ويدها معقودتان خلفه وبدأت فى همس رقيق : «إن لم أكن واثقة كل الثقة من كتمانك للسر لفرزعت كل الفرع من إطلاعك على أسرار هذا البيت ، إنك من أسرة نبيلة ، وذو روح نبيلة ، وقد انتسبت إلى أسرار دينية متنوعة ، ولذا فإنى أعلم أنك لن تكشف لأحد أبداً ما سأبثك به الآن . إن حبنى العميق لك يدفعنى إلى البوح به ، وستكون الإنسان الوحيد فى العالم

الذى وثقت به ، قد تبدو قصة تافهة لكن ينبغي أن تجاربنى بأن تحفظها إلى الأبد سرّاً مكتوماً فى أعماق أعماق فكرك ، إذ هى تتعلق بمولاتى بامفيلى وفنون السحر التى تقدر بها على استعباد الأشباح والتحكم فى النجوم وابتزاز الآلهة وأن تجعل العناصر الخمسة تحت إيهامها تماماً .

مولاتى تستخدم هذه الفنون كلما وقعت فى هوى فتى وسيم الأمر الذى يحدث كثيراً ، وهى الآن مولعة بحب فتى من بويتيا جميل الصورة فى الحقيقة بشكل رائع ، وتستعمل كل سحرها لإغوائه . مساء أمس سمعتها تتوعد الشمس بأنها سوف تلقى عليها سحابة من الظلام ، إن لم تسرع فى الغروب لتتيح وقتاً أطول لتعاويدها ، وتسلم الأرض إلى ليل سرمدى . كان ذلك بعد أن رأت فتاهها يقص شعره عند الحلاق ، وأمرتنى سرّاً أن أمضى إلى محل الحلاق والتقط بعض الشعر الملقى على الأرض ، ورغم حذرى ألا ألفت النظر إليّ فقد شدنى الحلاق الذى كان يعرف أن بيتنا ذو سمعة سيئة فى عالم السحر الأسود ، وصاح : «حقاً .. هذا كثير جداً أيتها الساحرة الصغيرة ! متى تمتنعين عن سرقة شعر من يحلق عندى من الفتيان ذوى الجمال ؟ إن لم تنه هذا العبث حالاً فأندرك بأننى سأقتادك مباشرة إلى المحكمة» ، ثم أفتك خصلات الشعر منى بكل فظاظة ، وكان غاضباً أشد الغضب . استأثت لما حدث ، إذ أنتى أعرف مولاتى تمام المعرفة ، إذ كلما قابلت مثل هذا الموقف انحدرت إلى طبع لثيم وضربتني ضرباً مبرحاً ، فكرت فى الهرب ، لكننى عزمت ألا آتى شيئاً من هذا القبيل بمجرد أن فكرت فيك ، فلما عدت إلى البيت واجمة رأيت رجلاً يجز شعر جلود الماعز بجلم فى يده . كانت الجلود معلقة أمام حانوته مربوطة من أعناقها بقوة ومنفوخة بإحكام ، وتصادف أن لون شعرها كان أشقر لون شقرة شعر الفتى البويتى ، فالتقطت جملة خصل وعدت بها إلى مولاتى دون أن أخطرها شعر من كانت الخصل حقيقة .

عندما ساد الظلام صعدت متحفزة إلى غرفة سطح البيت ، حيث تجد مكاناً يوافق قيامها بسحرها سراً - غرفة مفتوحة للرياح الأربع وفتحة كبيرة تطل على السماء الشرقية ، كان كل شيء مهيباً لأداء طقوسها المميّنة ، كل أنواع البخور النفاذة ، وألواح معدنية نُقشت عليها رموز سرية ، مناقير ومخالب طيور مشؤومة ، وقطع متنوعة من لحم الجثث - فى مكان رتبت أنوف وأصابع المصلوبين ، وفى مكان آخر وضعت المسامير التى دقت فى راحات أيديهم وعقبهم وقطع من اللحم لا تزال عالقة بها - كما كان هناك أكياس صغيرة ملئت دماً مأخوذاً ممن قتل من الرجال ، وجماجم مجرمين كانوا ألقوا إلى السباع فى ميدان المصارعة . بدأت فى تلاوة بعض التعاويذ على أمعاء حيوان لا تزال حارة ترتعش ، وهى تغمرها على التوالى فى جرار من ماء النبع ولبن البقر وعسل الجبل ، ثم جدلت الشعر الذى أعطيتها إياه من قبل وعقدته ، وألقته وقدرأ هائلاً من البخور على نار الفحم المعدة من قبل . إن قوة هذه التعاويذ لا تقاوم - يسندها ، كما يجب أن تفهم ، جبروت الآلهة العمياء التى دعتها ، ورائحة الشعر ، يعلو دخانه على النار ، تجبر صاحبه على المشول فى المكان الذى استدعى إليه ، من هنا ترى أنه بدلاً من مجئ الفتى البويتى جاءت جلود الماعز تتعارك للدخول من بوابة بيتنا ، وقد أسبغ عليها السحر نفس الإنسان وحواسه وإدراكه ، ثم وصلت أنت أيضاً ، لسوء الطالع ، ثملاً ، وفى الظلمة الغامرة حسبت الجلود لصوصاً على سبيل الخطأ ، سللت سيفك بشجاعة ، مثل أجاكس حينما جن وحسب قطعان الغنم أعداءه ، لكن عملك كان أنبل إذ أنك لم تسفك قطرة من دم حتى وإن كان دم نعجة ، وها أنت الآن يا حبيبي ، عدت إلى ذراعى سالمأ ، بعد صرعى للرجال الثلاثة - أعنى التيوس الثلاثة ! » .

رددت المزحة قائلاً : « نعم أنا هرقل ! عملى الأول هذا يضاهى قتله للملك جريون ذى الأجساد الثلاثة ، أو أسره للكلب كريبروس ذى

الرؤوس الثلاثة ! ولكن إذا كنت تبغين أن أغفر لك من كل قلبى ما سببته لى من نكد فإن عليك القيام بعمل واحد من أجلى .. أريد أن أكون حاضراً، خفية ، عندما تستخدم مولاتك الآلهة الجهنمية فى المرة القادمة ، وبخاصة عندما تستخدم قواها الخارقة لتحويل نفسها إلى حيوان من الحيوانات ، إننى مصمم على معرفة كل شئ ممكن عن عالم السحر ، وأنت - بالمناسبة - تبدين عالمة به تمام العلم ، شئ واحد واثق منه كل الثقة ، رغم أننى تحنيت دائماً حب حتى ربات الخدور من النساء فإننى الآن عبد مطلق العبودية لعينيك البراقطين، وخديك الورديين ، وشعرك اللامع ، إنها عبودية إرادية أيضاً، ولا يخطر على بالى أبداً التخلّى عنك ، ولا أندم على بعدى عن وطنى أبداً» .

قالت «يسعدنى أن أفعل ما تطلب يا حبيبى لوكيوس ، غير أن بامفيلى وحش عجوز بالتأكيد ، وحين تشرع فى شعوزة من هذا القبيل تختلى بنفسها فى مكان منفرد ، تستوثق فيه من أن أحداً لا يزعجها. وعلى كل حال فلسوف أخاطر بكل شئ فى سبيل إرضائك ، وعليه فسأراقب حركاتها بعناية وأعرفك متى انشغلت مرة أخرى ، لكن .. تذكر ما قلت لك ، يجب أن تعد بملازمة الصمت حول الأمر كله» .

♦

لوكيوس يتحول

اندفعت فوتيس ذات صباح داخله غرفتي تنتفض نشوة ، وأنبأني بأن سيدتها تنوى تلك الليلة ، بعد أن أخفقت في اجتذاب الفتى البويتى بالطرق المعتادة أن تتحول إلى طائر وتطير إليه في داره ، ويجب عليّ أن أخذ أهبتي بعناية إذا ما رغبت في مشاهدة الحدث .

عند السحر قادتني بهدوء شديد جداً عبر السلم السطح إلى باب غرفته حيث أومأت لي بأن اختلس النظر من خلال شق فيه ، أظمت وبدأت أرقب بامفيلي في البداية تنزع عنها ثيابها تماماً ، ثم فتحت صواناً صغيراً به جملة صناديق صغيرة فتحت احدها ملئ مرهماً ، أجالت فيه أصابعها وطلت به جسدها كله من أعلى الرأس حتى أسفل أخمص القدم ، ثم تمت برقية طويلة وانتفضت ، فبدأ الريش ينبت في أطرافها - وأنا أرقبها - شيئاً فشيئاً ، وتحول ذراعها إلى جناحين قويين ، وتقوس أنفها إلى منقار ، وانقلبت أظافرها مخالب ، وسرعان ما أمحى كل ريب في الأمر ، لقد صارت بامفيلي بومة ! زعقت وقفزت على الأرض قفزات صغيرة مادة جناحيها حتى تيقنت من قدرتها على التحليق ، ثم أشرعتها وانطلقت تطير فوق سطح الدار .

لم أكن أنا نفسي مسحوراً وقتها ، لكن الدهشة شدتني تماماً فوقفت متسماً في مكاني ، فركت عيني لأستوثق من أنني لوكيوس حقيقة وأن هذا لم يكن حلماً من أحلام اليقظة ، هل تراني جنت ؟ استعدت إدراكي

بعد قليل ، وأمسكت بيد فوتيس ووضعتها ما بين عيني : «يا حبي الغالى !» قلت لها «أتوسل إليك أن تسدى لى فضلاً كبيراً - فضلاً لن أمل فى رده أبداً - دليلاً على حبك لى ، إن تفعلنى هذا أعدك بأن أظل عبدك إلى الأبد ، هل تحاولين يا حلوتى أن تحصلى لى على قليل من هذا المرهم ؟ أريد أن أكون قادراً على الطيران ، أريد أن أحوم حولك مثل كيوييد مجنح فى خدمة ربته !» .

فهممت وقالت : «إذن هذه لعبتك .. يا حبيبى ؟! تريد أن تخدعنى ، تسلمنى فأساً وتقنعنى بأن أبتز قدمى ؟ هذا كله حسن لكن لم يكن من اليسير عليّ أن أحفظك طيلة هذه المدة ، من ذئبات ثساليا ، كنت لهن لقمة سائغة لو لم أحملك بحبى ، فإذا صرت الآن طائراً كيف لى أن أتبع أثرك ؟ وأنى لى أن أراك مرة أخرى»

اعترضت : «لا سمحت آلهة السماء كلها أن أكون وغداً كما تظنين ، اسمعى : أتخسين أننى لو تحولت إلى نسر وحت فى السماء الواسعة مثل مبعوث جوبيتر الشخصى ، أحمل صواعقه الرعدية فخوراً بين مخلبى ، أتخسين حقيقة أن مثل هذا العزّ المجنح يمنعنى من التحليق كل ليلة عائداً إلى عش غرامى بين ذراعىك ؟ أقسم لك بعقدة الشعر الرائعة على هامتك تلك التى اشتبكت فيها روحى مستسلمة دون حراك ، أقسم لك أننى غير قادر بطبعى على حب أية امرأة أخرى فى الوجود بأكمله فيما عدا محبوبتى فوتيس ، ومهما يكن الأمر ، فإننى لو حسبت أن هذا المرهم يحولنى حقاً إلى طائر لوجب عليّ الابتعاد عن المدينة ، إذ البوم طيور بلغت من الشؤم حد أنها إذا دخلت بيتاً على سبيل الخطأ لم يبق أحد لا يبذل جهده فى الإمساك بها وتسميرها من جناحيها الممدودين على مدخل البيت ، وشئ آخر ، لو أننى غبت عنك وجربت حظى مع سيدات أخريات متكرراً فى شكل بومة ماذا ترين مدى ترحيبهن العظيم بى ؟ لكن هذا يذكرنى - ما هى

الرقية أو الترياق الذى يعيدنى كما كنت إن تحولت إلى بومة ؟» .

قالت : «لا تقلق من هذا الجانب ، لقد علمتنى مولاتى أشكال السحر وتركيباته كلها ، ليس بالطبع لشعورها الطيب نحوى بل لأن علىّ عندما تؤوب من إحدى مغامراتها أن أعد لها الترياق المناسب لتستعمله ، من العجيب فعلاً أن ترى مدى بساطة الأعشاب التى يمكن للمرء أن يستعملها لينال تحولاً كاملاً من شكل إلى آخر ، الليلة مثلاً لن نحتاج مولاتى إلى أكثر من شئ من الأقحوان وبعض أوراق الغار مغلية فى ماء النع ، تشرب قليلاً من الماء وتغتسل بالباقى فتعود امرأة كرة أخرى فى الحال ، يمكنك أن تفعل الشئ نفه بعد طيرانك» .

استوثقت منها مراراً حول هذه النقطة بالذات قبل أن تذهب ، وهى ترتعد رعباً ، وتصعد سلم سطح الدار وتعود إليّ بصندوق من الصوان فطفقت أحضنها وأقبلها ، ثم شرعت أغمم بتلاوة صلاة أدعو فيها لنفسى بطيران موفق ، ثم خلعت ملابسى ، وغمست يدى بشرافة فى الصندوق ، واغترفت كتلة كبيرة من المرهم طليت به بدنى كله .

وقفت أخفق بذراعى اليسرى فى البداية ثم اليمنى ، كما رأيت بامفيلى تفعل ، لكن لم يظهر عليهما ريش ولازغب ، ولم يبد عليهما أنهما تحولتا إلى جناحين ، كل ما حدث أن شعر ذراعى أخشوشن شيئاً فشيئاً وتيس جلدتهما وصلب ، بعدها تجمعت أصابعى لتصير كتلة واحدة وصارت يداى عبارة عن حافرين ، ولحق التغير نفسة فى قدمى ، وأحسست بذيل طويل ينبثق من أسفل عمودى الفقرى عند العصعص ، ثم انتفخ وجهى ، واتسع فمى ، وتدلّت شفتاى تتأرجحان ، وانتصب أذناى طويلتين يعلوهما الشعر وأخيراً - لم يكن لى إلا مواجهة الحقيقة الممينة وأنا أنفحص نفسى ، لم أتحوّل إلى طائر ، بل تحولت إلى جحش أوضح ما يكون !! أردت أن ألعن فوتيس على خطئها البليد ، بيد أننى وجدتنى

عاجزاً عن الكلام ، أو حتى الإشارة ، فظلمت أصب جام غضبى عليها
بتحريك شفتى السفلى والنظر إليها شزراً بعينى الكبيرتين المليتين بالماء !

عندما رأيت فوتيس ما حدث لظمت وجهها بيديها الاثنتين فى نوبة من
تأنيب الذات وأعولت : «أواه .. هذا كفىل بأن يقتلنى لابد أننى فى غمرة
حيرتى وذعرى أخطأت الصندوق ، هناك صندوقان متشابهان تماماً ، ومع
هذا فليست الأمور يا عزيزى من السوء كما تبدو ، لأن الترياق فى هذه
الحالة أسهل شئ الحصول عليه ، كل ما عليك أن تمضغ بعض الورود
فتعيدك حبيبى لوكيوس من جديد . لو أننى فقط أعددت أكاليل وردى هذه
الليلة ! إذن لو فرت عليك أن تبقى جحشاً وإن ليلة واحدة . عند أول تباشير
الفجر ، أعدك بإخلاص أن أخرج وأتيك بما تحتاج إليه» . ومضت تلعن
نفسها مرة بعد مرة لغباؤها وعدم حيطتها ، ورغم أننى لم أعد لوكيوس ،
ولا يدل مظهرى كله على شئ إلا على جحش ، مجرد دابة من دواب
الحمل ، فقد احتفظت بقدراتى العقلية ، وكان لى مع نفسى حوار حاد
عنيف عما كان ينبغى عليّ أن أعرض فوتيس وأرفسها حتى الموت أم لا ،
كانت ساحرة .. ألم تكن كذلك ؟ بل ساحرة شريرة أيضاً بيد أننى قررت
فى النهاية أنه من الخطر ، بل من الغباء أن أقتل الشخص الوحيد الذى
سيساعدنى على استعادة شكلى الإنسانى ، فابتلعت سخطى آنذاك ، وأنا
أطأطأ رأسى وأهز أذنى إذعائاً ، وأسلمت نفسى لقدرى القاسى ، وتعثرت
فى طريقى إلى الاصطبل حيث أجد على الأقل صحبة جوادى الأبيض
الذى حملنى حين كنت إنساناً .

كان حصانى فى الاصطبل رفقه حمار آخر لمضيفى - أعنى مضيفى
سابقاً - ميلو . وتوقعت فى الحق أن حصانى سوف يعرفنى ، إن كان
للحيوانات العجماء شعور طبيعى بالولاء ، ويشفق عليّ من جراء مصيبتى ،
وأن يحتفى بى فى الاصطبل كما لو كنت سفير دولة أجنبية يزور بلاط روما

الإمبراطورى ! لكن حصانى - يا جوبتير المضيفا ويا أرباب الولاة والإخلاص أجمعين ! - حصانى البديع قرن رأسه برأس حمار ميلو الفطيع على الفور ، يساورهما الشك فى أننى أأمر على طعامهما ، وتحالفا ضدى ، فبمجرد أن اقتربت من عليقهما نصبا آذانهما إلى الورا ، ودارا دورتين وشرعا يرفسانى فى وجهى . جوادى أنا؟! يا له من عرفان بالجميل ! ها أنذا أبعد عن الشعير الذى اكتله له منذ سويغات يدي الاثنتين .

وفيما أنا واقف فى ركنى المنزوى منبواً من مجتمع رفاقى ذوى الأربع ، عازماً على انتقام مروع منهما صباح الغد بمجرد أن أكل الورد وأعود لوكيوس كما كنت ، لاحظت هيكلاً صغيراً للربة إيونا وسط كوة فى عمود الاصطبل الرئيسى ، محاطاً بورود قطفت منذ قليل - الترياق الذى أبحث عنه ، فتوازنت يلائى الأمل ، على قدمي الخلفيتين ، ودفعت الأماميتين أبعد ما أمكننى ، ومددت رقبتي إلى أقصى مدى ومططت مشفرى إلى الأمام ، لكن حدث - بشئ من النحس فعلاً - قبل أن أتمكن من أكل وردة منها ، أن رآنى عبرى الذى كان يقوم مقام السائس وأنا منهمك فى العمل ، فهب غاضباً من فوق كوم القش الذى كان مستلقياً عليه وصاح : «شبت إزعاجاً من هذا الجحش الأحمق الملعون ، فى البداية يحاول نهب طعام رفاقه ، وها هو الآن يحاول سرقة الأرباب ! إن لم أجلد هذا الحيوان النجس حتى لا يستطيع تحريك حافر واحد ...» ثم بحث من حوله حتى عثر على حزمة عصى التقط واحدة غليظة منها ملأى بالعقد ، كانت أكبرها وانهاهال دون رحمة يلهب بها كفى ضرباً .

فجأة ارتفع صوت دق وخط على باب البيت الخارجى وصيحات من بعيد : «الصوص ! اللصوص !» ألقى السائس العصا من يده وفر فرعاً ، بعيداً انفتح باب الباحة على مصراعيه واندفع اللصوص المسلحون :اخلين ، أسرع بعض الجيران لمساعدة ميلو فتغلب عليهم اللصوص

بسهولة، كانت سيوفهم تلمع كأشعة الشمس المشرقة فى ضوء المشاعل التى كانوا يحملونها ، وكان معهم فؤوس حطموا بها باب الغرفة الرئيسية المتين المسدود بقوة فائقة ، غرفة مملوءة بأموال ميلو وجواهره أخرجوها عن آخرها وفرقوها على عجل إلى عدة صرر منفصلة ، كانت الصرر أكثر مما يستطيع اللصوص حمله فكان عليهم أن يعملوا الفكر فى الأمر بفتنة ، أتو إلى اصطبنا واقتادوا ثلاثتنا وحملونا بأثقل الصرر قدر ما استطاعوا أن يكوموا على ظهورنا ، ثم ساقونا خارج البيت المسلوب والعصى تتوالى ضرباتها علينا ، وأسرعوا نحو التلال عبر طريق مهجور ، يضربوننا على طول الطريق ، بينما تخلف واحد منهم يتجسس على أن يلحق برفاقه بعدئذ ويعلمهم بما اتخذته السلطات من خطوات لمعالجة الجريمة .

كانت التلال منحدره ، وحملى ثقيلًا ، وكانت الرحلة لا نهاية لها وسرعان ما أحسست بأنى أقرب إلى الموت منى إلى الحياة ، وباعتبارى مواطناً رومانياً قررت إخطار السلطة المدنية وأنقذ نفسى من بلائى الرهيب بالشكوى إلى الإمبراطور ، كان الوقت ضحى حين مضينا عبر قرية كبيرة تحتفل بمناسبة ما ، فحاولت أن أنادى باسم قيصر العظيم بحضور حشد من أهل ثساليا ، وتمكنت من أن أزق : « آ... » بصوت مجلجل مبين.. ولا شئ غير هذا ! لم استطع أن أنطق بكلمة « قيصر » وقد أزعج نهيقى المنكر اللصوص فطفقوا يلهبون جلدى التعس بالعصى حتى صار لا يصلح غربالاً من غرابيل القمح المتسعة الثقوب !

أخيرا أناح لى جوبتير المنتخذ بكرم فرصة للنجاة ، فبعد أن اجتزنا أبنية المزارع العديدة وبيوت الريف الكبيرة رأيت بستاناً صغيراً رائعاً تملأه الأزاهير المتنوعة الأشكال والألوان ، ومن بينها بدت الورود فى براعمها لا تزال تقطر بندى الصباح ، انبهرت فرحاً وأسرعت من خطاى وأوشكت على بلوغ الوزود يسيل لعابى أملاً ورجاءً ، ثم - فى اللحظة الأخيرة -



أعملت الفكر فى خطتى ، من المؤكد أن اللصوص سيقتلونى لو لم أظل جحشاً وصرت لوكيوس مرة أخرى - إما لأعتبارهم إياى ساحراً أو خشية أن أشى بهم ، على الآن أن أتناسى الورود وأمضى فى تحمل بؤسى مدة بأن ألوك شكيمتى مثل الحيوان الذى كنته .

حوالى منتصف النهار ، وتحت الشمس الالهية ، انحرفنا عن الطريق وأتينا دسكرة توقفنا فيها عند أحد المنازل ، فخرج رجلان أو ثلاثة يستطيع أى حمار أن يرى من طريقة تبادل التحية والعناق والحديث الطويل الذى تبع أنهم أصدقاء اللصوص ، أعطوهم شيئاً من الحمل على ظهري وهمسوا بما لا بد أنه كان تحذيراً بلزوم الصمت ، وعندما أنزل حملى وحمل حصانى وحمار ميلو أطلقنا لنعزى فى الزريبة المجاورة ، لم أكن اجتماعياً بالقدر المناسب لأستمتع بصحبة رفيقى ، لاسيما أننى لم أعود أكل العشب بعد ، فوثبت بجسارة ، والجوع ينهش أحشائى ، إلى قطعة أرض خلف الزريبة زرعت بالخضراوات حيث ملأت بها معدتى ، فلما شبت دعوت كل أرباب السماء فى صمت ونظرت فيما حولى متفحصاً - قد يصادف وجود شجرة ورد فى إحدى الجنائن القريبة ، وهذا مكان منزو تماماً بعيد عن الطريق تخفيه أشجار الفاكهة ، فلو عثرت على ترياقي واستعدت شكلى البشرى لكان من غير المحتمل أن يشهد أحد هذا التحول ، وبينما كنت أزن فرص النجاة متلهفاً رأيت على بعد ما بدا وهدة فى الأرض تحيط بها شجيرات زينة صغيرة ، ولمحت حمرة الورد البراقة تظهر وسط بساط الأوراق الزاهية الألوان ، صور لى خيالى ، وهو أبعد ما يكون عن خيال بهيم ، ذلك المكان كما لو كان أنه غيضة من غياض فينوس والحسان الثلاثة وألوان زهرتهن الملكية الرائعة تشع بالبهاء فى معبد فاخر . تلوت صلاة صامته لآلهة الحظ ، وركضت بسرعة فائقة أحسست معها أننى جواد من جياذ السباق أكثر منى جحشاً من الجحوش ، بيد أننى لم أستطع حتى بهذه

السرعة الفائقة أن أسبق القدر الذى كان يتعقبنى ، إذ لم أجد المكان الذى بلغتته وهدة ، بل جدولاً تغطى ضفتيه الأشجار الكثيفة ، ولم تكن الورود الغضة الطرية ، تقطر ندى عسلياً تضحك فى وجهى سعيدة من خلال أكمامها ، وروداً كانت ما يسميه أهل الريف «ورد الغار» ، أزهاراً حمراء قدحية الشكل تنمو على شجيرة طويلة الأوراق تشبه الغار ، عديمة الرائحة تماماً وذات سم زعاف ، فصممت لشدة يأسى ، وقد ألفتينى محاطاً بالنحس من كل جانب ، على أن أنتحر بأن أكل هذه الورود الزائفة .

مضيت فى سبيلى متردداً إلى الشجيرة ، فجأة جرى نحوى شاب ، لا ريب أنه كان صاحب قطعة الأرض المزروعة بالخضروات ، يملأه الغضب وفى يده عصاً غليظة ، ضربنى بقسوة انتقاماً للفساد الذى أحدثته حتى كاد يقتلنى لو لم أسارع للدفاع عن نفسى بأن أرفع مؤخرتى وأرفسه بكلتا قدمى الخلفيتين ، ثارت منه برفسات شديدة متتابعة تركته معها ملقى على جانب التل لا حول له ولا قوة ، ثم أطلقت أقدامى للريح .

حدث لسوء الحظ أن زوجته - وأنا أظن على الأقل أنها زوجته - كانت واقفة على قمة التل ورأته ملقى أسفله مشرفاً على الموت فسارعت إلى نجاته وهى تصرخ : «اقتلوا جحش السوء ذاك ! كاد يقتل زوجى !» وعلى الفور خلّص جيرانها كلابهم من أطواقها وأطلقوها فى إثرى صائحين : «مزقوه ! مزقوه !» بدت نهايتى قادمة ، إذ كان ثم عدد كبير من هذه الكلاب الضخمة من تلك الفصيلة المستخدمة لجذب الشيران والديبة فى ميادين المصارعة، فتبع ما بدا لى فرصة البقاء الأخيرة ، وبدلاً من أن أفرّ ضاعفت من سرعتى عائداً إلى الزريبة بأسرع ما استطعت ، فنادى القويون كلابهم وما استطاعوا إبعادهم عنى إلا بصعوبة ، وفى الزريبة قيدت بسير جلد متين إلى بيت لسان القفل وضربت بقسوة شديدة مرة أخرى ، كانت تلك نهايتى بالتأكيد لولا غبائى فى ملء معدتى بالخضروات النيئة ، وكان أثر الضربات

على معدتي انبجاس محتوياتها نصف المهضومة فى وجوه ضاربى كان
إسهالاً فظيماً ، والرش مقرزاً ، جعل الجميع يهربون ساخطين لاعين !

عند العشية حملنا اللصوص مرة أخرى ، مراعين أن يضعوا أثقل حمل
على ظهري ، كنت متعباً من أثر الرحلة الطويلة والثقل العظيم فوقى ،
وكانت جوانبى يمضها ألم الضرب ، وكنت غير قادر على المشى إلا
بصعوبة إذ كادت حوافرى غير ذات النعل تذوب ، وحين تقدمنا فى المسير
بدأت أدبر خطة جديدة للنجاة .

كنا نتخذ طريقنا فوق جرف يمر بمحاذاة واد ، فعزمت على أن أقع وتحتى
أرجلى الأربع ، وألا أتقدم شبراً واحداً حتى إن ضربنى اللصوص بعصيهم
أو نغزوني بسيوفهم ، لا بد أن هذا سيجعلهم يدركون أننى استهلكت تماماً
وأنى ثلاثة أرباع ميت ، فما المانع من أن يمنحونى تسريعاً جميلاً على
أساس من سوء صحتى ؟ كنت أعرف أنهم لا يطيقون أى تأخير ،
وحسبت أنهم حين يعجزون عن إنهاضى سيقسمون حملى بالطبع بين
حصانى وحمار ميلو ثم يمضون فى سبيلهم تاركين إياى فريسة للذئاب
والعقبان عقاباً لى .

غير أن هذه الخطة الرائعة لم تلبث أن أحبطها نحسى المعتاد ، فقد خمن
حمار ميلو ما كان يدور فى ذهنى وسبقنى إليه ، تظاهر بأنه انتهى تماماً
ووقع منبطحاً على الطريق بكامل حمله وتمدد كالميت ، لم يحاول أبداً أن
ينهض رغم الضربات المتلاحقة ونغزات السيف ، حتى عندما حاول
اللصوص رفعه ليقف على أرجله الأربع بشدة من أذنيه وذيله ، فلما
أدركوا أن الحالة لا رجاء فيها قرروا ، بعد نقاش قصير ، ألا يعطلوا فرارهم
لحظة أخرى من أجل حمار عائر ، وقال بعضهم لبعض :

« هذا الحيوان مفيد كحمار ميت ! » ثم فرقوا حمله بينى وبين الحصان ،

وقطعوا عرقوب الحمار بسيف وجروه بعيداً عن الطريق ودحرجوه
فى الجرف.

أرعبنى مصير زميلى المشؤوم ، وقررت ألا أجا إلى الحيلة الذكية بعدها
أو أفكر فى الخطط الرائعة ، بل أظهر لأسيادى أننى جحش مخلص قادر
على الاحتمال ، وإلى جانب هذا كان بعضهم يحث بعضاً بالقول إنهم
يقربون من كهف الجبل وأن رحلتهم المضنية قاربت على نهايتها ، تل آخر ،
غير شديد الانحدار ، ثم بلغنا أخيراً غايتنا ، فانزل حملى وحمل حصانى
ورصت الكنوز امنة فى الكهف ، ارغمت ، لغياب الماء ، على الأرض
وغمغت فى التراب لكى أستعيد نشاطى .

هنا يتوجب عليّ أن أصف الكهف وما يحيط به وصفاً دقيقاً ، وهذا
اختبار لقدرتى الأدبية ، كما يسمح لك فى الوقت نفسه بأن تحكم ما إذا
كنت جحشاً بالفعل فيما يتصل بقدرتى على تقييم الموقف ، فلنبداً إذن
بالجبل ، كان جيلاً وعراً شاهقاً - قلعة طبيعية حصينة ، تغطيها الغابات
المظلمة وتقطعها ، على غير نظام ، أخاديد تغص بشجر العوسج تنحدر
على جوانبه وتحاصرها جرف يستحيل الوصول إليها ، وقريباً من قمة الجبل
يتفجر نبع من الماء يجرى ساطعاً على جوانبه ، متفرغاً إلى عدد من الجداول
تغمر المروج ، أسفله ، بمساحات شاسعة من المياه ، أما الكهف فقد كان
مدخله قريباً من السفح ، علته قلعة مرتفعة بنيت من سياج من أغصان
الطلح ثبتت على عمد من شجر الصنوبر ، وقد وسّعت الطبقة السفلى من
جوانبها الأربعة لتكون حظيرة رحيبة للأغنام المسروقة ، وأحاط بمدخل
الكهف سور منخفض بنى على عجل بديلاً عن الجدار ، كان للصوص
بمثابة قاعة الاستقبال ، وليس ثمّ مبان قريبة أخرى ، كما عرفت فيما بعد ،
مركزاً للتنصت ، وكان الديدبان يُختار من بين اللصوص عن طريق القرعة
ليمكث فيه طيلة الليل ♦

كهف اللصوص

ربطنا اللصوص من خطمنا خارج الكهف وزحفوا إلى داخله على أيديهم وأقدامهم واحداً بعد الآخر ، وسمعتهم يصيحون في وجه العجوز المقوسة الظهر التي كانت ترعى مسكنهم :

« هيه ! بمَ تعبثين أيتها الجيفة القذرة ؟ »

« هي ليست جيفة » .

« أنا أقول : جيفة ! »

« وأنا أقول : لا . قد تستكف الحياة من أن تملكها .. لكن الموت أيضاً

يستحي من أن يرغب فيها ! »

« حسن .. على كل حال ، أنظر إليها مقعبة في هذا الوقت من الليل ! هيه .. أنت ! لم لا تقومين وتعددين لنا عشاءً طيباً ؟ نحتاج إلى مكافأة لنا عن الأخطار والمتاعب التي لاقيناها ، كل ما تفعلين - أيتها الجلدة المنقوعة - هو أن تدلّقي خمرنا ، ليلاً ونهاراً ، عبر حلقك الخشن العتيق » .

فصاحت العجوز بصوت مرتجف : « كلا .. كلا .. يا فتيانى الشجعان ! لا تقسوا عليّ .. كل أنواع اللحم تنضج في القدور ، وسوف تجدونه لذياً جداً كذلك ، وكمية مهولة من الخبز ، وأقداح لطيفة مغسولة بعناية وقدر ما يمكنكم شرابه من الخمر . وكالعادة - سخنت لكم الماء لتستحموا قبيل العشاء » .

خلع الجميع ثيابهم ووقفوا حول نار عظيمة تتأجج ودلقوا على أجسادهم من الماء الساخن ، ثم دهنوها بالزيت قبل أن يأخذوا أماكنهم على مائدة تكومت فوقها أكداس الأطعمة المختلفة ، ولم يكن المقام استقرار بهم حين دخلت جماعة كبيرة أخرى من اللصوص استحموا كما فعل السابقون . كان من الواضح أنهم خرجوا للغارة كذلك ، إذ جلبوا معهم كدساً آخر من الأسلاب - نقوداً وأوانى وثياباً مطرزة بالذهب ، فلما التحقوا برفاقهم على المائدة اقترح الجميع فيما بينهم على من يقوم بالخدمة . ياللسماوات !! كم أكلوا وشربوا ! كانت أقداح الخمر منصدة فى صفوف كصفوف الجند ، زعقوا بالغناء ، وصخبوا بألفاظ الفحش ، ولعب بعضهم بعضاً بالحركات والإشارات ، ذكرنى المنظر بسلوك القنطور واللبيث فى قصة زواج بيريثوس ، وفى الختام شرع أشدهم فى إلقاء خطاب :

«ليصمت الجميع ! إننى أتحدث باسم الفتيان الشجعان عند آخر هذه المائدة الذين أغاروا على بيت ميلو واكتسحوه فى هوباتا ، لقد نظفنا المنزل تماماً وعدنا بأكوام الذهب والفضة دون أن نفقد رجلاً واحداً - بل عدنا فى الواقع بزوجين من ذوات الأربع ، إن كان هذا يستحق الذكر ، أما أنتم فلا نعتد بكم كثيراً ولا بغارتكم فى بويتيا ، لقد عدتم أقل عدداً مما ذهبتم ، شئ واحد أقوله لكم : إن كل ما جلبتم من غنائم لن يساوى أبداً فقدان رئيسكم ، لا ماخوس كان رجلاً شجاعاً جداً» .

قال أحد الحاضرين : «شجاعاً جداً أكثر مما يجب .. فى الواقع ! وهذا سبب هلاكه ، لكن اسمه سوف يظهر فى كتب التاريخ يوماً ما جنباً إلى جنب مع أسماء الملوك والقادة» .

«لكنكم أيها السراق المنحطون البائسون تتسللون من خلف الحمامات العمومية تقومون بأعمال تافهة لباعة الملابس المستعملة أو تزحفون إلى دار عجوز متصدعة أملاً فى التقاط شئ من أحد الرفوف» .

اندفع رئيس الجماعة الكبرى يرد عليه بحدة : « هذا كله حسن .. أيها الأبله ! متى تتعلم أنه كلما كان البيت أكبر كانت السرقة أيسر ؟ حيثما كثر عدد العبيد لن يفكر أحد منهم في إنقاذ متاع سيده قبل حياته هو ، أما أواسط الناس ، قليلو العبيد ، فلا يكتفون بإخفاء أموالهم بعناية بل يدافعون عنها بشراسة معرضين حياتهم للخطر ، حتى إن كان مالا يسيراً ، إنصت إلى قصتنا وسترى كلامي معقولاً للغاية .

عندما قصدنا مدينة طيبة الشهيرة - ذات الأبواب السبعة كما يسمونها - سألنا عن أغني الناس في المنطقة ، وأنت نوافقني على أن قاعدة مهنتنا الأولى أن تعرف أين يوجد المال ، فأخبرنا بعضهم عن مصرفي ثرى يدعى خروسيروس ، كان يتظاهر بالفقر خشية أن يجبر على قبول منصب عام ، سمعنا أنه كان يعيش وحيداً في منزل صغير محكم الأبواب حتى لكأنه قلعة ، حيث يتطلع طيلة اليوم في ملابس قدرة إلى أكياس ذهبه ، قررنا أن نزور خروسيروس وظننا أننا سنواجه صعوبة يسيرة في تخليصه من أمواله - عدد كبير من الرجال ضد رجل واحد ، وما أن عمت الظلمة حتى تجمعنا أمام بابه ، غير أننا انفقنا على خطر كسر القفل ، أو تحطيم مساند الباب - كان باباً مزدوجاً - خشية أن توظف الجلبة أحداً ، كانت فكرة تحطيم الباب غير مقبولة على الإطلاق ، وعليه أدخل رئيسنا لامارخوس الشجاع ، بكل ثقته المعتادة وإخلاصه للواجب ، أدخل ذراعه من خلال ثقب مفتاح قديم وسّعه بقطع الخشب النخر من حوله ، وحاول أن يرفع رتاج الباب من الداخل ، ولسوء الحظ سمعنا ذلك الحيوان المقزز المعجوز ، خروسيروس ، وكان يرقبنا ، زحف إلى الباب بهدوء وقادوم في يده ومسمار في الأخرى ، وبضربة مباغته شديدة سمر يد لامارخوس المسكين الباب ، تركه يتلوى ألماً مثل مجرم مصلوب واندفع إلى سطح البيت الصغير الحقيق وصاح بجيرانه بأعلى صوته : « النجدة ! النجدة ! النار .. النار ! أسرعوا وساعدوني علي

إطفائها قبل أن تنتشر إلى بيوتكم !» ودعاهم بأسمائهم فرداً فرداً فجاءوا على عجل منزعجين ليحاصروا النار بالطبع .

ألت الخيرة بنا ووقعنا في ورطة ، ولم نجد سبيلاً للفرار دون أن نترك لا مارخوس وحده ، وكان هذا مستحيلاً ، فكان علينا القيام بعمل يائس ، حزننا ذراعه عند المرفق ، بموافقة طبعاً ، وتركناها ملتصقة بالثقب ، ثم ربطنا بقيتها في جسده ربطاً وثيقاً وعصبناها بالخرق ، خشية أن تترك قطرات الدم أثراً وراءنا ، وانطلقنا بما بقي من رئيسنا المسكين ، وكانت المدينة كلها آنذاك قد صحت ، فلاحقتنا الصيحات والصرخات ووجب علينا الركض سريعاً حتى لم يستطع لا مارخوس ، رغم إسرعنا به قدر ما أمكن ، أن يمضي معنا ، وكان معنى تركه وراءنا موته المحقق . فرجانا أن ننهي عذابه ، وذكّرنا بيمين العون المتبادل التي أقسمناها معاً على يد مارس اليمنى ، قال إنه لا يمكننا أن نترك رفيقاً وراء ظهرنا ليسجن ثم يصلب ، وإن سعادته الكبرى وقتها أن يموت على أيدينا - إذ إلام يمكن للص شجاع أن يحيا مفتقداً يده التي طالما سرق بها وحز بها الرقاب ؟! غير أنه لم يستطع أن يقنع أحداً منا بقتله مهما دعانا - فهذا يساوى قتل الوالدين بالضبط ، فاستل سيفه بيده اليسرى ، وبعد أن قبله مرات ومرات غرزه في صدره .

كان لا مارخوس أشجع من عرفنا وقد ترك فينا موته عميق الأثر ، فطوينا جسده بعناية في ثوب قماش وأسلمناه نهر أزميريوس ، وسوف يحمله النهر سرّاً إلى مئاوه الأخير في البحر المالح العريض .

«فليرقد بسلام !» هكذا ارتفعت آهات الجميع ، «كانت نهاية بطولية تتساوى وحياته الجسورة» .

«فقدنا أيضاً ألكيموس أذكى من خطط لسرقاتنا وغاراتنا ، بسبب ضربة حظ مشؤومة أخرى ، فقد دخل بيت إحدى العجائز وصعد إلى غرفة

الطبقة العليا حيث كانت ملقاة نائمة ، وبدلاً من أن يخنقها على الفور كما وجب عليه أن يفعل تركها وشأنها لسبب أو لآخر ، وشرع يرمى بمتاعها عبر النافذة إلينا لنجمعه . نظف الغرفة بطريقة المتمرس ثم ظن أننا نرغب أيضاً فى سرير العجوز الشمطاء فدفعها خارجه . كان على وشك أن يلقي بالفراش حين تشبثت الحيزبون الدنيئة بركبتيه وصرخت : كفى .. كفى ! ماذا تفعل يا ولدى ؟ لماذا تلقى بمتاعى المتهاالك وفراشى الممزق إلى ساحة دار جارى الغنى ؟»

خدع هذا القول ألكيموس . ظن أنه أخطأ النافذة وأنه بدلاً من أن يلقي الأشياء إلى الشارع ألقاها فى ساحة دار شخص ما ، وعليه مضى إلى النافذة ، غير مدرك أنه يواجه أى خطر ، وانحنى ليلقى نظرة فاحصة من حوله وعينه تبحث عن منزل الجار الثرى حيث أمل فى عمل يقوم به بعد ذاك ، فتسللت الجيفة العجوز من خلفه ودفعته دفعة مباغطة على غير انتظار - لم تكن دفعة قوية غير أن توازنه اختل فى تلك اللحظة وهوى يسبقه يافوخه ، ولم يكن الارتفاع عالياً غير أنه سقط على جنبه فوق حجر كبير خارج البيت بالضبط هرس أضلاعه ، وتمدد ينزف دماً ، وقبل أن يموت استطاع أن يخبرنا فى كلمات قليلة مستقطعة بما حدث فأرسلناه عبر النهر ليلحق بلامارخوس . نعم .. كان جديراً بهذا التكريم .

جعلتنا هذه الخسارة المزدوجة نبتعد عن تجربة حظنا فى طيبة مرة أخرى ، فمضينا إلى بلاتيا ، أقرب مدينة فى المنطقة ، حيث ألفينا الناس جميعاً يتحدثون عن مصارعة قادم . وكان ديموخاريس النبيل الذى يتبرع بالعرض رجلاً غنياً وكريماً ، وكان ما يقدمه من مناسبات لهو ومتعة حقيقية على مستوى نبيل ، ولافائدة من محاولة وصف الاستعدادات الفاخرة ، إذ لعلنى لا أوفى الرجل حقه ، لقد جمع ، على كل حال فريقاً من المصارعين اشتهروا بلعبة المعصم ، وفريقاً آخر اشتهر بلعبة القدم ، ناهيك بزمرة من

المجرمين الذين فعلوا ما استحقوا به حرمانهم حق الحياة ، وقد سُمِنُوا ليغدوا طعاماً للسباع ، ثم كان هناك بُنىٌ عظيمة من الخشب على عجلات ذات أبراج ومنصات وتصاوير رسمت على جوانبها ، استعملت أقفاصاً متحركة للمجموعة الخارقة من الوحوش التى جمعها ، وكان أغلب هذه الوحوش جلب من بلدان بعيدة - قبوراً حية للمجرمين - وبالها من قبور أنيقة !

كان لديه على وجه التخصيص جملة من الدببة المهولة اصطاد هو بعضها فى رحلات صيده وجاء بعضها الآخر من الباعة بضمن باهظ ، وأرسل بعضها إليه أصدقاء يتبارون فى سبيل شرف إهدائه أضخم الحيوانات وأكثرها توحشاً ، وقد وضعها فى حديقة دبته الفاخرة حيث كانت تنال الرعاية التامة . ورغم أن دافعه الوحيد لهذا الاستعداد كله كان أن يدخل البهجة على الناس فإن الآلهة بدأت تغار منه ، فصارت دبته تعتل وتنفق ، بسبب الحرارة والحبس الطويل وقلة الحركة ، ثم ما عثم أن أصابها وباء أدى إلى موتها واحداً بعد الآخر حتى لم يكذببقى واحد منها على قيد الحياة . بعيداً امتلأت طرقات بلاتيا بالدببة الميتة مثل سجون السفن القديمة ، وجاء الجوعى من أحيائهم الفقيرة ، المستعدون دائماً لالتهام أية فضلة يلتقطونها دون ثمن ، يتحلطون حول الجيف .

أوحى لى الموقف ولزميلى بابلوس بفكرة رائعة . جردنا إحدى جيف الدببة الضخمة إلى مقرنا كما لو أننا سنأكلها ، غير أن ما فعلناه كان سلخناها تماماً وتركنا الرأس متصلاً بالجلد فى نهايته ، ثم خرطنا داخل الجلد جيداً بالأمواس ، ونثرنا من فوقه رماد الخشب وعلقناه ليحجف فى حرارة الشمس ، وفيما كان الجلد يجف ازددنا بعض شرائح من لحم الدب ، وأقسمنا الأيمان على أن يقف بعضنا إلى جانب بعض فى السراء والضراء . كان على أفضلنا ، أعنى أشجعنا أن يتطوع بلبس الجلد ويتظاهر بأنه دب ، بينما تأخذه بقيتنا إلى بيت ديموخاريس باعتباره إضافة إلى

مجموعة دبته ، حيث يتربقب فرصة يفتح لنا فيها الباب الأمامى عند منتصف الليل . بعدها يمكننا الدخول واقتحام المكان .

أثارت عبقرية الخطة كل فرد فينا أكبر الإثارة حتى أن عدداً وافراً من المرشحين تقدم لينال شرف القيام بدور الدب الخطير ، وعندما وضعنا الأمر للتصويت وقع اختيارنا على ثراسوليون . وكان هادئاً كل الهدوء ونحن نخطط جلد الدب من حوله وقد صار ليناً مرناً . أخفينا أثر الحيط الرفيع بأن مشطنا من فوقه الشعر الأشعث الخشن ، وثبتنا رأسه خلف رأس الدب الذى نظفناه من قبل وتركنا ثقوباً للتهوية حول منخرية وعينية ، فبدأ دباً ينبض بالحياة . اشترينا له قفصاً رخيصاً جسر نفسه فيه على الفور .. أوه ! كان ثراسوليون فتى شجاعاً ، ثم بدا كل شيء جاهزاً لخطوتنا التالية وكانت أن نزور كتاباً باسم نيكانور ، وهو رجل من تراقيا قيل إنه واحد من أقرب أصدقاء ديموخاريس إليه ، فكتبنا أنه خرج فى رحلة صيد وأنه أهدى «أول ثمار الطراد ، هذا الدب البديع ، إلى الصديق العزيز ديموخاريس» .

كان قد مضى من الليل جزء حين أخذنا الكتاب والقفص ، وثراسوليون داخله ، إلى بيت ديموخاريس ، وقد تأثر هذا بجرم الدب الحديد المهور وابتهج لكرم نيكانور . لقد جاءت الهدية فى الوقت المناسب ، فأمر وصيفه بأن يعطينا عشر قطع ذهبية مكافأة لنا ، وطبعاً توافد أهل الدار جميعاً يتحلقون حول القفص وقد علت صيحاتهم : «أو ه ! ما أجمله ! ما أضخمه !» غير أن ثراسوليون كان من الحكمة بحيث أوقف فضولهم باندفاع مفاجئة إلى جانب القفص حتى أبعدهم عنه .

أما ديموخاريس فقد هنأه صحابه جميعاً على حسن حظه حين عوض خسائره السابقة ، جزئياً على الأقل ، بالحصول على هذا الوحش الرائع . بعدها أصدر أمره بأن يقتاد بعناية فائقة ليلحق بما بقى من مجموعة حديقة الدببة ، غير أنى اعترضت على الفور : «معذرة يا سيدى .. هذا الحيوان

لا يزال ضعيفاً بعد رحلته الطويلة الحارة من تراقيا ، يجب أن تحذر من وضعه بين حيوانات لم تُشَف بعد ، كما سمعت ، من وباء حمى الدببة الخطير . ينبغي أن تدعه يرقد في مكان بارد من هذا البيت يهب عليه نسيم المساء - لو أمكن بجوار فسقية ماء ، إنك تعرف بالتأكيد أن الدببة تقصد دائماً ، وهي مطلقة السراح ، جدولاً جارياً أو كهفاً يقطر من سقفه الماء .

تأثر بتحذيرى ووافقنى في الحال : «ضع القفص في أى مكان يعجبك» فأضفت : «إن شئت ، يا سيدى نحن مستعدون تماماً للبقاء عند القفص طيلة الليل لنطعم الدب ونسقيه وقت طعامه وشرابه ، لقد عانى الحيوان البائس كثيراً من الحر والرحلة المضنية» غير أن ديموخاريس قال : «كلا .. أرجو ألا تتجشموا العناء ! كل من فى بيتى تقريباً خُبر الدببة ويعرف كل شئ عن إطعامها» فودعناها وخرجنا .

مضينا إلى خارج المدينة حيث جئنا مقبرة ، فى موقع منعزل غير بعيد من الطريق الرئيسى ، دخلناها ونزعنا أغطية بعض التوابيت القديمة النخرة ، ولا تزال الجثث المتآكلة بداخلها ، لتكون خزائن ملائمة للغنائم التى أملنا أن نجلبها بعد قليل ، ثم تجمعنا خارج بوابة منزل ديموخاريس ، سيوفنا مسلولة بأيدينا آخذين أهبتنا للهجوم ، نترقب - كالعادة - غياب القمر وحلول الظلمة الخالكة حين يفرق الجميع فى الغفوة العميقة الأولى من النوم .

أدى ثراسوليون مهمته ببراعة ، انتظر اللحظة المناسبة تماماً قبل أن يتسلل خارجاً من قفصه ويقتل حرس البيت الراقدين بالقرب منه جميعاً بأحد سيوفهم ، ثم مضى ليقول البواب ويأخذ المفتاح من حزامه ويفتح لنا الباب الأمامى ويسمح لنا بالدخول . ثم دلّنا على غرفة الخزين التى لاحظ قبل قليل قدراً كبيراً من صحاف الفضة تودع فيها . دخلناها وطلبت من رفاقى أن يحملوا من الذهب والفضة أكبر قدر ممكن ويسرعوا لدفنها فى المقبرة فى بيوت أصدقائنا الموتى الموثوق بهم كل الثقة ، ثم يعودوا فى الحال لحسمولة

أخري وتطوعت أنا للمكوث حارساً البوابة حتى يرجعوا ، وكان على
ثراسوليون أن يظل متنكراً ، فقد فكرنا في أن وجود دب مطلق السراح
يجول في المكان ذو نفع كبير بدون شك . إذ لو أئفق أن استيقظ أحد العبيد
فلا بد أن يكون شجاعاً للغاية إن لم يهرب ويقفل من ورائه باب أقرب غرفة
يرتعد فرقاً إذا ما رأى الوحش المهول يتهدى في الظلمة .

كانت خطتنا تعمل على خير وجه عندما حدث شئ لم يخطر على بال
- كما شاء الحظ لنا - كنت لا أزال انتظر في قلق عودة رفاقي حين صحا
أحد العبيد ، أحسب أنه سمع صوتاً ما حدس أن شيئاً ما غير مألوف كان
يجرى ، فخرج من مقر نومه على أطراف أصابعه ، وحين رأى الدب
يتجول طليقاً في البيت أب في هدوء ، كما جاء وأيقظ العبيد الآخرين
وأخبرهم بما رأى . بعد لحظات خرجوا جميعاً يحملون المشاعل والمصابيح
والقناديل وما إليها . أضائت الباحة الداخلية كلها وكان الجميع مسلحين
بالهراوات والرماح أو بسيوف مسلولة ، أسرعوا لسد منافذ الباحة كلها
وفكوا قيود كلاب الصيد وراء ثراسوليون ، وفي أثناء الجلبة التي تبعت
تسللت خارجاً واختبأت خلف البوابة حيث رأيته يقا تل الكلاب قتلاً
ضارياً ، كما لو أنه يصارع كلب الجحيم ذاته بفكاكه الثلاثة البارزة ، ورغم
علمه بالنهاية لم ينس شرفه أبداً أو شرف عصابتنا ، وقام بدوره كأنه دب
حقيقي ، جرى أولاً ليتفادى هجمات الكلاب ثم استند إلى أحد الأركان
وشرع يضربها بمخليبه ، ثم تراجع مرة أخرى حتى استطاع الخروج من
البوابة إلى عرض الطريق ، غير أنه لم يستطع الفرار ، إذا جاءت الكلاب
المجاورة - وكانت ثلة متوحشة منها في الزقاق القريب - واشتركت في
المطاردة .

أرعبني أن أرى ثراسوليون التعس تحاصره عشرات الكلاب الهائجة
وقد غرزت أنيابها في أجزاء عديدة من جسده وشرعت تمزقه قطعاً ، ولم

أستطع الاحتمال أكثر مما فعلت ، اندفعت وسط الجمع المحتشد وفعلت كل ما فى وسعى لإنقاذ الرفيق البائس . صرخت : «يا للعار ! يا للعار أن تقتلوا حيواناً كهذا ! إنه يساوى بدراناً من المال» غير أن أحداً لم يصغ إليّ وفجأة جاء رجل ضخّم يركض وفى يده رمح مشرع وطعن ثراسوليون طعنة نافذة، فلما رأى بقية الجماعة سنّ الرمح تبرز من الجانب الآخر وانتهم الجرأة لاستخدام سيوفهم . وشرفى ! لقد مات ثراسوليون ميتة عظيمة ! إذ رغم فقدان كل شئ وجدته لم يفقد شجاعته أبداً وتقبل ما نزل به راضياً ، فإذا ما تلاقى صفان من الأتياب فى لحمه ، أو شرحه سيف من السيوف ، لم يزد على أن زام أو زمجر كالدب كيلا يفضحنا إن صاح أو صرخ كالإنسان، نعم .. لقد واجه قدره دون أن يطرف له جفن وحفظ سراً حتى النهاية . كانت معركة مجيدة ، وقد بث الرعب فى الحشد حتى أن أحداً لم يجرؤ على وضع إصبع على جثته ، وفى الصباح جاء جزار أشد قلباً من جيرانه وفتح جوف الجثة فوجد ، لدهشته، أنه لم يكن يسلخ جلد دب بل كان يجرد لصاً جريئاً من معطفه !

ذهبت لأخبر بقية جماعتنا بموت ثراسوليون - ولن يموت مجده ما دام أيّنا على قيد الحياة ليروى ما حدث - وعدنا إلى المقبرة حيث حملنا الغنائم التى كانت تحرسها لنا الجثث الأمانة ، وأسرعنا نخرج من المنطقة. كانت رحلة شاقة على التلال بحمولنا ، وقد صيرنا فقد رفاقنا الثلاثة خائرى العزم، وكانت صور ما حدث تلاحقنا طيلة الطريق حتى لم يبق لدينا شك فى أن ربة الأمانة غادرت العالم العلوى ، أسفاً لمعاملتها السيئة ، ومضت لتتحيا مع الأشباح والرمم ، وعلى كل حال - ها نحن ، وها هى الغنائم !» .

أترع للصمصم أقداهم بخمرة صرف وأراقوها على أرض الكهف قرباناً للأموال ، ثم أنشدوا بعض الترانيم على شرف راعيهم مارس ، تمددوا بعدها وراحوا فى سبات عميق .

كانت العجوز قدمت لى ولحصانى كمية كبرى من الشعير لعلها جعلت حصانى يتصور نفسه ضيف شرف فى مأدبة الكلية السولية بروما ، وقد استحوذ على الشعير كله ، إذ أننى رغم محبتى للشعير كنت آكله دائماً إما مسلوفاً سلقاً جيداً مع الطبخ أو مطحوناً مخبوزاً ، غير أنى عثرت على ركن خزنت فيه بقايا الأرغفة ، وشرعت ألتهمها بضراوة ، وقد ألم فكأى من أثر الجوع وبدا أن خيوط العنكبوت علتها لطول البطالة .

فى الهزيع الأخير من تلك الليلة أسرع اللصوص بمغادرة الكهف ، كان بعضهم يرتدى ملابس الأشباح ، بينما لبس بعضهم ثياباً مألوفة ، وحملوا سيوفهم معهم . لكن حتى النوم لم يكن ليمنعنى من مواصلة المضغ بشراهة دون توقف ، فعندما كنت لو كيبوس كان يمكننى القيام عن المائدة شعباً بعد رغيف أو اثنين ، أما الآن فإن لى كرشاً ضخماً لا بد لى أن أملاه ، وكنت أوشكت على إنهاء السلة الثالثة حين انبلج الفجر وألفانى لا أزال ماضياً فى أكلى . وأخيراً تركت طعامى - متردداً كما يجب أن أعترف - فى ذلة الحمار ، وأرويت ظمأى عند جدول قريب .

بعد قليل قفل اللصوص يعلو وجوههم الجد الجاد ، ولم يجلبوا معهم - رغم كثرتهم وسلاحهم - شيئاً من الغنائم على الإطلاق ، ولا حتى عباءة رثة ، وإنما مجرد فتاة واحدة أسيرة ، كانت تنتمى إذا ما حكمنا من مظهر ثيابها ، إلى إحدى العائلات الكبرى فى المنطقة ، وكانت جميلة بدرجة خارقة أقسم أنها جعلتنى ، أنا الجحش ، أقع فى غرامها : أدخلوها إلى الكهف حيث شرعت لبؤسها ، تشد شعرها وتمزق ثيابها . وقد فعل اللصوص كل ما استطاعوا للتخفيف عنها : «إنك آمنة تماماً يا سيدتى ، ولا نية لنا فى أن نوذيك أو نبدى نحوك ما لا يليق ، اصبرى بضعة أيام فقط ، ولو مجاملة لنا ، ترين أن الفقر هو الذى دفعنا لامتهان هذه المهنة وأن على أبويك الشحيحين أن يعجلا بفدية من المال . أنت - على كل حال -

ابنتهما الوحيدة وهما غنيان بشكل فاحش» .

زاد أساها بدلاً من أن ينقص بهذه المواساة الغليظة ، ولم أُلها على وضعها رأسها بين ركبتيها والعيول دونما انقطاع ، فأمر اللصوص العجوز بأن تجالس الفتاة وتؤانسها قدر ما استطاعت ، ثم انطلقوا إلى عملهم مرة أخرى .

لم تقدر العجوز على شيء مع الفتاة ، إذ علا نحيبها عن ذي قبل وكان صدرها يعلو ويهبط تهزه العبرات حتى تدرجت دموع العطف على شعر وجنتي ، كانت الفتاة تقول : «حين أفكر في فقدان كل شيء ! البيت الجميل ، والأصدقاء الأعزاء الكثير ، والخدم اللطفاء ، وأبوى اللذين أحبهما حباً يفوق الوصف ، هكذا أخطف بهذه الطريقة الفظيعة وأسجن كالمجرمين في سجن صخري دون شيء من سبل الراحة التي كانت لى طوال حياتي ! وسيف التهديد الدائم مصلت على عنقي وفي يد هؤلاء اللصوص المفزعين المتعطشين للدماء ! كيف لك أن تنتظري بقائى على قيد الحياة ؟» .

ومضت على هذه الوتيرة حتى جعلها الأسى واحتقان الحلق تتوقف عن النحيب ، فأغمضت عينها المتفتختين وغلبها النوم ، ثم صحت بعد قليل وقد زاد شجنها وشرعت تاطم وجهها الجميل وتضرب صدرها بيديها . توسلت العجوز إليها أن تفسر لها تفجر حزنها من جديد ، فأنت وقالت : «لا .. لم يعد هناك شك في الأمر ، لا أمل لى في النجاة ، انتهى كل شيء ، حبل ، أو سيف ، أو هاوية قريبة - بلغت الآن ...» .

استشاطت العجوز غضباً ، فحملت في وجه الفتاة وسألتها : «لماذا تبكين أيتها المخلوقة الصغيرة الضالة ؟ لماذا تنامين ثم تصحين في الحال تقريباً لتشرعى في هذا العبث الملعون مرة أخرى ؟ سوف أعطيك الهاوية ! أظن أنك تريدين الغدر بأولادى المساكين لكيلا يحصلوا على المبلغ الكبير

الذى طلبوه فدية لك ؟ إن لم تهدئى وتمتنعى عن العويل - اللصوص لا يتأثرون سريعاً بالدموع - فسوف أجعلهم يشوونك حية !» .

أخاف هذا الكلام الفتاة ، فأمسكت بيد العجوز وقبلتها وهى تقول :
«سامحني أيتها الجدة العزيزة ، سامحيني ! اصبرى معي فقط ، لا أصدق أنك عاجزة عن الشفقة ، وأنت السيدة المتقدمة في السن ولك مثل هذا الشعر الأبيض البديع ، أرجوك أن تأذني لى بأن أحكى لك كل شيء عن نفسى - إنها قصة حزينة جداً» .

فقالت العجوز إنها لا تمنع فى الاستماع ، فشرعت الفتاة تحكى :

«لى ابن عم يكبرنى بثلاث سنوات ، اسمه تليبوليموس ، لم انفصل أبداً منذ طفولتنا ... وكل منا يحب الآخر كل الحب ، إنه شاب نبيل ويود كل من فى المدينة أن يراه يرقى إلى أعلى المناصب . خطبنا منذ سنوات ، واليوم فقط سجل والدانا عقد زواجنا علناً ، ذهب هو بعدها مع أهله وأصحابه يقدم القرابين كالعادة فى مختلف المعابد ، فيما كنت أنتظره فى البيت بين أوراق الغار والمشاعل والجميع يغنى أناشيد العرس . كانت أمى قد ساعدتني فى ارتداء ثوب الزفاف تضمنى وتقبلنى باكية ، وشرعت تدعو بابتسحال أن أبارك بأولاد يحفظون اسم العائلة ، حين هجم اللصوص فجأة وسوفهم تلمع - تماماً كالمصارعين ، لم يحاولوا أن يقتلوا أحداً أو ينهبوه ، بل مضوا رأساً إلى غرفة العرس كتلة واحدة ، لم يقاومهم العبيد ولا أحد من الحاضرين أدنى مقاومة ، بل تركوا اللصوص يتزعوننى ، نصف ميتة من الرعب ، من ذراعى أمى . وانتهى حفل الزفاف بغتة ،
وحين غلبنى النوم منذ قليل رأيت حلماً مفزعاً أعاد إليّ شقائى أكبر من ذى قبل ، حلمت بأننى جذبت بقسوة من سرير عرسى ومن الغرفة ، ومن البيت ، وحملت عبر صحراء بدون طريق وأنا أنادى باسم حبيبى تليبوليموس ، وفى الحلم لحق بى ، يتضوع عطره وتعلو أكاليل الزهر هامته

كالعريس ، يتتبع أثر اللصوص ويصبح بالجميع أن يعينوه على إنقاذ زوجه الجميلة التي سرقت منه ، وقد أغضب هذا أحد اللصوص ، فالتقط حجراً كبيراً ورمى به فتأى المسكين وقتله ، فصحوت من النوم وأنا أصرخ» .

تنهدت العجوز عطفاً وقالت : «أيتها الحلوة العزيزة ! يجب أن تبتهجى وتمتنعى عن القلق للأحلام ، إذ لا يوثق بالأحلام التى تأتى نهاراً . الجميع يعرف هذا ، وحتى أحلام الليل تأتى بضدها مثلاً - إذا حلم الإنسان بأنه يبكى أو يضرب أو حتى تحزّ عنقه فهذا فال حسن ويعنى فى العادة تغييراً خيراً ، فى حين أنه إذا حلم بأنه يضحك أو يلتهم الحلوى أو يستمتع بشئ ما، فهذا شؤم وعلامة مؤكدة على المرض أو الشقاء ، دعينى الآن أروى لك حكاية أو حكايتين تجعلك أحسن حالاً ♦

كيوييد وبسوكى (أ)

«كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان ، ملك وملكة وكان لهما ثلاث بنات جميلات ، كانت البنات على غاية من الحسن لا يمكن معها سوى إيجاد الكلمات فى مدح البنتين الكبيرتين ، أما وصف جمال البنت الصغرى الآخذ بالأنفاس ، ذاك الذى لم ير له مثيل من قبل ، فقد كان فوق قدرة الكلام البشرى . كان الآلاف من رعايا أبيها ، ومن الأجانب أيضاً ، يحجون إليها كل يوم لتملى مفاتها ، وكان بهاؤها يخلب ألبابهم فيقدمون إليها فروض العبادة الواجبة للربة فينوس وحدها ، كانوا يضمنون سبابة أصابعهم وإبهامها ويرفعونها باحترام إلى شفاههم ثم يرسلون القبلات نحوها طائفة فى الهواء !

وقد انتشر خبر جمال الفتاة الفريد عبر المدن والبلاد المجاورة . قال البعض : «هذه فينوس الخالدة ، المولودة من عمق البحر الأزرق ، رفعت من زبده إلى السماء ، وهبطت إلى الأرض لتجسد بشراً سوياً إذن لكل إنسى أن يراها رأى العين» وقال آخرون : «كلا ... كلا ! إنها الأرض هذه المرة ، وليس البحر ، حملت بالفيض السماوى فولدت ربة جديدة للحب أجمل وأروع من فينوس ... لأنها لا تزال عذراء !» ولقد ذاع صيت الأميرة وانتشر إلى أبعد مدى فى الأقطار البعيدة فالأكثر بعداً ، وجاء الناس يحجون إليها من مسافات قصية عبر اليابسة وعبر البحار ليشهدوا أعظم أعجوبة فى زمانهم . وكانت النتيجة أنه ما من أحد جشم نفسه عناء زيارة

معابد فينوس فى قبرص أو كريت ، أو حتى جزيرة كوثيرا حيث لمست قدمها البديعة اليايسة أول مرة . أهملت احتفالاتها ، وانقطعت شعائر عبادتها ، وتناثرت على الأرض حشايا تماثيلها التى كانت تزخر بها معابدها المقدسة ، بل إن التماثيل نفسها تركت دون أكاليلها المعتادة ، كما تركت أنصابتها دون أن تكنس تحيط بها القمامة وفضلات القرايين القذرة التى مر على إحراقها شهور عديدة ، وتداعت هياكلها لتصير أطلالاً من أثر الإهمال .

كانت القرايين تقدم تشريقاً للأميرة الصغيرة ، كلما خرجت تمشى فى الطرقات صباح كل يوم ، وعند الأسمطة المقدسة من أجلها ، وتنتشر الزهور فى طريقها ، وأكاليل الورد يهديها إليها جمع المتبتلين المعجبين الذين كانوا يوجهون إليها الخطاب بنعوت وألقاب هى فى الواقع خاصة بربة الحب العظيمة .. فينوس ذاتها .

وقد أثار هذا التحول الغريب للتشريفات الإلهية عن فينوس نحو بشر مائت غضب فينوس الحقيقية بالطبع . إذ هزت الأخيرة رأسها وهى لا تقوى على كبح جماح مشاعرها وقالت متوعدة : « حقاً الآن ! من كان يظن أننى أعامل بمثل ما أعامل به اليوم ؟ أنا ... فينوس الرائعة للعالم بأسرها والتى يدعوها الفلاسفة (الأم الكونية) وأصل العناصر الخمسة الأول ... يتوقع منى ، أنا ، أن أشارك عليائى بشراً تتسكع هنا وهناك مدعية أنها هى أنا ذاتى ؟ ! وهذا اسمى الساطع المسجل فى السماوات العلى يبرّغ فى وحل الأرض القذر ؟ ! أى نعم ! ومع هذا يجب عليّ - طبعاً - أن أَرْضَى بانعكاس مجد عبادة الناس هذه الفتاة ، قانعة بجزء من قرايين التكفير التى تقدم إليها بدلاً منى ؟ أظن أنه لا معنى لأن قدم الراعى باريس - ذاك الذى صدق جوبيتر نفسه على حكمه العادل الأمين - تفاحة الجمال لى من فوق رأسى ربّتين أخريين منافستين ؟ ! كلا ... هذا عبث ! لا يمكن أن أدع هذه المخلوقة التافهة ، أياً كانت ، تسلبنى مجدى أكثر مما فعلت . سوف أجعلها



تتلوى ألماً وحسرة بسبب جمالها ذاك ، إن هذا الذى يحدث الآن مناقض للقواعد السماوية كلها ! » .

وفى الحال دعت فينوس ابنها المجنح إيروس - المعروف باسم كيبيد - ذلك الولد الماكر الذى لا يحمل ذرة من احترام للسلوك المهذب والذى يمضى وقته راكضاً من مبنى إلى مبنى طيلة الليل يحمل شعلته وسهامه ، مشتتاً شمل بيوت بالغة الاحترام . وهو مع ذلك لم يعاقب ، لسبب ما ، على كل ما يرتكبه من أذى ، رغم أنه لا يبدو قدّم حسنة واحدة تعويضاً عن فعلته ! وكانت فينوس تعلم أنه ميال بطبعه إلى الأذى ، فزادت فى إغرائه بسلوك أسوأ بأن جاءت به إلى المدينة التى كانت تعيش فيها الفتاة ، التى كان اسمها بالمناسبة ، بسوكى - وقصت عليه القصة برمتها عن المعبودة الجديدة التى فاقتها على الأرض . قالت وهى تتميز غيظاً من أثر المهانة : « ألتمس منك يا حبيبى ، إذا كنت فعلاً تحب أمك أن تستخدم سهامك الصغيرة العزيزة وشعلتك الحلوة تلك ضد هذه الفتاة الوقحة العديمة الحياء . إذا كنت تحترمنى حقاً فسوف تنتقم لى انتقاماً كاملاً . سوف تعمل على أن تقع الأميرة بائسة فى هوى واحد من أشنع البشر سوءاً ... رجل طريد منبوذ سوقي لا جاه له ولا مال .. فقد كل شئ ... رجل يمضى حياته فى رعب من هذه الحياة ، وقد بلغت به السفالة حدّاً لا يمكن معه أن تجد له نظيراً فيها على وجه البسيطة ! » .

هكذا قالت ، وقبلته قبله طويلة ، ثم قصدت شاطئ البحر القريب حيث عدت فوق قمم الأمواج التى هرعت نحوها يعلوها الزبد الأبيض ، وما لمست قدمها الوردية الماء حتى هدأ البحر كله ، وما أن شاءت أن تظهر قوى الأعماق حتى برزت جميعها كأنما نادى كلاً باسمه . كانت هناك عرائس البحر ترسل أنغامها ، ونبتون - الذى يسمى أحياناً : بورتينوس - بذقنه المزرق ، وزوجته سلاكيا - ربة أعماق البحر الماكرة وملء حجرها سمكاً

مقويًا للباه ، ومعها بلايمون الصغير ، سائق عربتهما ، ممتطياً دلفيناً ، ثم جاءت مجموعات من التريتونات تسبح فى كل اتجاه ، ينفخ أحدها صدفته بلطف ورقة ، وآخر يقى فينوس من أشعة الشمس بمظلة من حرير وثالث يمسك مرآة لتتأمل فيها نفسها ، بينما اصطفت مجموعة أخرى اثنين اثنين مشدودة إلى عربتها برصن . إن جيشاً كاملاً من الخدم والحاشية فى خدمة فينوس كلما ركبت فى نزهة بحرية !!

فى تلك الأثناء كانت بسوكى شقية كل الشقاء بكل ما يقدم لها من تكريم . كان كل امرئ يتمناها وكل إنسان يطرب جمالها .. لكن ما من أحد من عامة الناس ، ولا أمير أو حتى ملك ، جرؤ على مطارحتها الغرام . كان الجميع مأخوذين مذهولين بجمالها ، لكنه كان كذهول الشاخص نحو تمثال رائع البهاء ، وقد خطبت شقيقتها الكبرى الأقل منها جمالاً - واللذان لم تكن سمعتهما طيبة على كل حال - إلى ملكين وتزوجتا بهما ، أما بسوكى فقد ظلت دون زواج ، فمكثت فى البيت تعيسة إلى حد المرض وصارت تمقت جمالها الذى عبده الآخرون جميعاً .

خشى والدها المسكين أن تكون الآلهة غضبى منه إذ سمح لرعاياه أن يعظموا ابنته على هذا النحو ، فمضى إلى معبد أبوللو العتيق فى ملطة ، وبعد أن قدم القرابين وأدى الصلوات المعتادة سأل أين يمكن أن يجد زوجاً لابنته التى لم يرغب الزواج بها أحد ؟

وقد شاء أبوللو ، رغم أنه مؤسس ملطة الفعلى ورغم أنه يونانى أيونى ، أن ينطق بوحيه التالى باللسان اللاتينى :

فوق القمة ...

أعلى قمة جبل صخرية

تجلى العذراء ...

لطقوس العرس المقضية

من غير عزاء

لا تأمل صهراً بشرياً ..

بل شراً داهم .

غولاً مفترساً وحشياً ...

الخطر الدائم .

ذاك الذى يطير ...

فى الجو والأثير .

فى يده النار ...

والأخرى سيف بتار .

تخشى سطوته الأرياب .

جويتر يخشاه ...

ترتعب مجارى نهر ستوجيا

من رؤياه !

قفل الملك ، الذى كان من قبل رجلاً سعيداً ، راجعاً متخاذلاً من المعبد
إلى بيته تغلفه الكآبة ، وأنبأ زوجته الملكة بجواب الموحى السئ الذى جاءه ،
وقد أمضيا أياماً تعيسة كثيرة ينوحان وينتحبان على قدر ابنتهما البائسة .
بيد أن الوقت مر وكان لابد من طاعة أمر الوحى .

أزفت ساعة الاحتفال بزفاف بسوكى الرهيب . اختيرت مشاعل بطيئة
الاحتراق ذات سخام ولهب مضطرب ، وعوضاً عن لحن العرس المرح
عزفت النايات لحناً ليدياً باكياً . وختمت أغانى الزواج بنذب جنائزى

حزين، وكفكت العروس التعيسة الدموع من عينيها بطرف خمارها الأحمر اللون ، ثم انكفأ الجميع وكل منهم يغمغم أسفاً للكارثة التي عصفت بالبيت الملكي ، وأعلن في التو عن يوم حداد عام . لكن لم يكن ثم شيء يمكن عمله ، إذ لا مفر من طاعة أمر هيكل أبوللو . وهكذا عندما انتهت إجراءات هذا الحفل الكريه في أسى عميق شرع في إتمام حفل الزفاف ، وقد تبعه أهل المدينة قاطبة ، وفي مقدمتهم مشيت بسوكى امرأة تمضى إلى لحدها وليس إلى سرير الزفاف !

حاول أبواها اللذان غشاهما الأسى والهلع ، أن يعيقا الأمور بتعطيل دخولها، غير أن بسوكى عارضتهما قائلة : «أبى المسكين ... أمى المسكينة ! لم تعذبان نفسيكما بإطالة حزنكما دون مبرر ؟ أنتما فى سن تجعلكما أكثر إدراكاً منى ، لم تزيدان فى شجنى بنحيكما حتى يبح منكما الصوت ؟ لم تفسدان الوجهين - اللذين ما أحبت شيئاً فى الدنيا أكثر منهما - بالبكاء حتى تتقرح منكما الجفون ، وتقطيع شعركما الأبيض الجميل ؟ لم تضربان صدريكما حتى ينفطر قلبى ؟ أنتما تريان الآن ما جلبه عليّ جمالى ، لعنة الغيرة السماوية للمبالغة فى تعظيم الناس لى . يوم عظمى الناس من جميع أنحاء المعمورة باعتبارى فينوس الجديدة وقدموا لى القرايين ، ذاك كان يوم اساكما ونحييكما كما لو أننى مت من قبل . أعرف الآن كرائعة النهار أن علة شقائى الوحيدة هى هذا الكفر فى استعمال اسم الربة فينوس ، فلتحملانى إذن إلى صخرة الهيكل ، فأنا فى انتظار ليلة زفانى السعيدة وزوجى الرائع . لم أتردد ؟ لم أفر منه ، حتى إن كان ولد من أجل هلاك العالم بأسره ؟!»

ثم فى عزم قدماً نحو الهيكل ، وتبعتها الجموع صاعدة إلى الصخرة على قمة الربوة ، حيث تركت وحيدة هناك ، وعاد القوم إلى بيوتهم يغشيهم الحزن العميق ، يطفئون مشاعل الزواج بدموعهم ثم يرمونها . أما

أبواها الكسيرا الفؤاد فقد أوصدا على نفسيهما القصر خلف الأبواب
المغلقة وارخيا على نوافذه الستائر الثقيلة .

تركت بسوكى وحدها تنتحب وترتعش على أعلى قمة الربوة ، إلى أن
هبت ريح غربية رقيقة فجأة ، تلاعبت الريح من حولها وهى تنفخ شيئاً
فشيئاً ثوبها وخمارها وعباءتها حتى رفعتها من فوق الأرض وأنزلتها بلطف
على بساط من العشب الريان المطرز بالأزهار .

كان المكان ندياً ، مريحاً للرقاد عليه ، جعل بسوكى تشعر براحة بال
أكبر ، فتوقفت عن البكاء واستغرقت فى النوم ، فلما استيقظت وهى تحس
بالانتعاش الكامل كان الوقت لا يزال نهاراً ، فنهضت ومشت بهدوء
صوب الأشجار الطويلة التى بدت فى غيضة قريبة كان ينساب فيها جدول
صاف رقيق . قادها الجدول إلى قلب الغيضة حيث بلغت قصراً فاخراً
كان رائع البناء حتى لا يحسب من عمل بشر بل من صنع إله . فلما بلغت
بوابته عرفت أن رباً من الأرباب كان يتخذ مقامه هناك .

كان يدعم السقف ، المنقوش نقشاً رائعاً من شجر السرو والعاج ،
أعمدة من الذهب ، وكانت الجدران مغطاة بطبقة من الفضة نقشت عليها
جميع حيوانات الأرض تبدو وكأنها تجرى صوب بسوكى وهى تدخل
القصر . كان جلياً أن هذه صنع شبه إله إن لم يكن إلهاً كاملاً ، وكانت
الأرض لوحة فسيفساء من جميع أنواع الحجارة الكريمة ربت على شكل
صور . ما أسعد من يجد فرصة المشى على أرض مجوهره مثل هذه !
وكانت بقية أقسام القصر الواسع للغاية فى مثل هذا الجمال وهذه الفخامة
الباهرة . كانت تواجه جدرانه كتل ضخمة من الذهب تسطع من ذاتها
فتحيل البيت نهاراً من داخله حتى وإن غابت الشمس عن السطوع . كل
غرفة وبهو وممر تدفق بالضياء ، وكان الأثاث مساوياً للغرف . لقد بدا

القصر فى الواقع وكأن جوبتر نفسه شيدهُ قصرًا أرضيًا له .

ذهلت بسوكى ، ثم مضت على وجل ترتقى درج القصر ، ثم جرّوت بعد حين على تخطى عتبه . استهوّاها جمال قاعته ، وكان كل منظر جديد يضيف عجبًا إلى عجبها ودهشة إلى دهشتها ، وحين توغلت داخل القصر وصلت إلى خزائن رائعة ملأى بشروات لا تصدق . كل شئٍ فاخر يمكن أن يخطر على بال بشر كان هناك . لكن ما أدهشها أكثر حتى من الثروة الهائلة فى خزينة الأرض هذه أنه لم يكن ثمّ سلسلة واحدة أو حُاجز واحد أو قفل واحد أو حارس يحميها .

وبينما وقفت مذهولة فى غبطة المتعة جاءها فجأة صوت لم تدرك مصدره : « هل تدهش هذه الكنوز سموك الملكى ؟ إنها جميعها لك ، لم لا تذهبن الآن إلى غرفة نومك وتريحين جسدك المكدود ؟ وحين تشعرين بالرغبة فى الاستحمام فسوف نكون هناك لمساعدتك - هذه إحدى وصيفاتك تتحدث - ويعدها تجدين وليمة عرسك معدة لك » .

كانت بسوكى ممتنة كل الامتنان لصوت العناية المجهولة الذى رعاها هذه الرعاية كلها ، فاتبعت ما اقترحه عليها الصوت . مضت أولاً لترى غرفة نومها حيث تأملتتها مدة ، ثم قصدت الحمام حيث نزعّت أيد خفية عنها ثيابها ، وغسلتها ، وعطرتها ، ولبستها ثوب العرس مرة أخرى ، وما أن خرجت من باب الحمام حتى رأت مائدة شبه دائرية ممدودة وأمامها كرسي مريح . كانت المائدة معدة للطعام رغم أن شيئاً مما يؤكل أو يشرب لم يكن فوقها ، فجلست بسوكى تنتظر - وفى الحال ظهرت كالسحر قوارير الخمر المعتقة وأطباق فتح الشهية تطير فى الهواء نحوها من تلقاء أنفسها . لم تر أحداً على الإطلاق . كان خدام المائدة مجرد أصوات ، وحين دخل من يغنى ومعه من يصاحب غناؤه بعزف على القيثارة لم تر أياً منهما ولم تر القيثارة أيضاً . ثم انطلقت جوقة كاملة غير مرئية تترنم بأغنية عذبة . فلما انتهت هذه

المأدبة الممتعة حسبت بسوكى أن الوقت حان لتمضى إلى فراشها ، فقصدت غرفة نومها ثانية ونزعت ثيابها واستلقت على سريرها برهة من الزمن .

عند منتصف الليل سمعت همساً ناعماً بالقرب منها فأحست بوطأة الوحدة وتملكها الخوف ، فإن أى شيء ممكن الحدوث فى مكان فسيح غير مسكون مثل هذا المكان - وكانت أشد ما تخشى على عفتها . لكن ... كلا لقد كان همس زوجها المجهول !

ها هو يضعد ليشاركها السرير ، ها هو يأخذها بين ذراعيه ، ها هو يتملكها . ثم يجعل منها زوجته .

قبيل انبلاج الفجر بقليل غادرها على عجل ، وفى التو تقريباً سمعت أصوات وصيفاتها يؤكدن لها أنها رغم فقدانها عذريتها لم تفقد عفتها ... فعادت إلى النوم من جديد .

فى اليوم التالى كانت بسوكى أكثر اطمئناناً فى قصرها ، وفى الليلة التالية زارها زوجها الخفى مرة أخرى . ومضى اليوم واللييلة الثالثة بالطريقة ذاتها ، كما يتوقع المرء ، وقد ذهبت حدائق وجود الخدم غير المرئيين واستقر بها المقام على تلك الوتيرة الممتعة للغاية ، فهى على كل حال لم تعد تشعر بالوحدة وكل هذه الأصوات من حولها .

فى تلك الأثناء كان الملك الشيخ والملكة يعلان بالضبط ما طلبت منهما ألا يفعله - كانا يضيعان وقتهما فى حزن ودمع لا ضرورة لهما . وقد انتشرت أخبار مصير بسوكى المؤسف من بلد إلى بلد حتى سمعت اختاها الكبيريان كل التفاصيل ، فتركتا قصريهما وهرعتا فى أسى عميق إلى مدينتهما ، مسقط رأسيهما ، لتعزيا أبويهما .

ليلة وصولهما قال زوج بسوكى ، الذى لم تعرف منه إلا اللمس والهمس ، محذراً إياها : « بسوكى الحلوة ! يا زوجتى الحبيبة ! الأقدار

قاسية ، وأنت فى خطر عظيم ، فتحوطى منه بحذر ، لقد انزعجت أختاك
الكبريان لنبا موتك ، وسوف تزوران قريباً الصخرة التى هبت منها الريح
وأنت بك إلى هذا الوادى لتريا إن كانتا ستعثران لك على أثر . فلو حدث
أن سمعتهما تندبانك هناك فلا تلقى إليهما بالاً على الإطلاق . ينبغى ألا
تجيبهما وألا تنظرى إليهما ، فإن ذلك سيسبب لى شقاء عظيماً ويهلكك
أنت ذاتك» .

وعدت بسوكى أن تفعل ما طلبه منها زوجها . لكن عندما اختفت ظلمة
الليل ، واختفى هو كذلك ، أمضت الفتاة المسكينة النهار بطوله وهى
تسكب الدموع ، وهى تشكو وتعيد الشكوى من أن الأمر لم يقتصر على
كونها سجينه هذا القصر البديع دون أن تجد إنسياً يبادلها الحديث فحسب ،
بل إن زوجها يمنعها الآن من أن تسرى عن شقيقتيها البائستين أو حتى تنظر
إليهما مجرد النظر دون كلام . وفى تلك الليلة دخلت سريرها دون عشاء
أو حمام أو أى شئ آخر يخفف عنها وأغرقت وسادتها بالدموع . وقد جاء
زوجها مبكراً على غير عادته تلك الليلة . ضمها إلى صدره ، وهى لا تزال
تتنحب ، وعاتبها بلطف قائلاً : «أى بسوكى ! ماذا وعدتنى ؟ ما الذى
أتوقع أن تفعله بعد الآن ؟ لقد بكيك طيلة النهار والمساء ، وحتى الآن وأنا
أضمك إليّ ها أنت تبكين . حسن إذن افعلى ما بدا لك . اتبعى أوهامك
المهلكة . لكننى أنذرك بجد من أنك حين تشرعين فى ثمنى لو أنك أنصت
إلىّ يكون السيف سبق العذل» .

تضرعت إليه متوسلة وهى تقسم أنها سوف تموت إن لم يأذن لها برؤية
أختيها والتسرية عنهما والحديث معهما مدة قصيرة على الأقل ، حتى
اضطرته فى النهاية إلى الموافقة . بل إنه مكنها من أن تعطيهما ما
شئت من الجواهر . بيد أنه حذرهما بعزم رهيب من أن أختيها امرأتان
شريرتان وأنهما ستحاولان تحريضها على اكتشاف شكله ، فلو أنها أصغت

إليهما فإن فضولها يعنى نهاية كل سعادتها الحاضرة وأنها لن ترقد بين ذراعيه بعدها أبداً .

شكرته على لطفه وعادت إلى طبيعتها مرة أخرى : « كلا .. كلا »
اعترضت قائلة : « إننى أفضّل الموت ألف مرة على أن أفقدك ، أنا لا أعرف أبداً من أنت لكننى أحبك ، أحبك فوق الوصف ، كما أحب روحى ذاتها ، ولن استبدل قبلاتك بقبلات الإله كيوييد نفسه ، فأرجوك ... أرجوك ...
أن تنعم عليّ بفضل آخر ، أوامر خادمك الريح الغربية أن تحمل أختي إلى هنا بالطريقة الرائعة عينها التى حملتنى أنا بها » ثم طفقت تغمره بالقبلات الحلوة وتهمس فى أذنيه بكلمات الحب المعسولة وتلقى ذراعيها وساقها من حوله ألصق ما تكون وتناديه : « يا حبيبى ! يا زوجى الغالى ! يا روحى ! » حتى أجبرته ، وقد غلبته قوة حبها ، على الاستسلام ، وإن كان استسلاماً على مضض ، ووعدها بأن يعطيها ما شاءت ، لكنه اختفى ثانية قبل طلوع النهار ♦

كيوييد و بسوكي (2)

كانت أختا بسوكي في تلك الأثناء عرفتا طريقهما إلى الصخرة التي تركت وحيدة عندها ، فهرعتا إليها وهما تندبان وتضربان صدريهما حتى رجعت المهاوى صدى نواحيهما . كانتا تصرخان : «بسوكي ! بسوكي» حتى وصلت صرختهما الحادة أقصى بطن الوادي ، فجرت بسوكي خارجة من قصرها في تآثر عنيف وهي تصيح : «أختي ! أختي العزيزتين ! لِمَ تندباني ؟ لا داعي للتدب الآن ، ها أنذا ... بسوكي بذاتها ! أرجوكم .. أرجوكم أن توقفا هذا العويل الفظيع وأن تكفكفا الدموع ، لحظة واحدة ، وأعانقكما أنتما الاثنين !» .

ثم صفرت للريح تستدعيها وأبلغتها بأوامر زوجها ، فأطاعت من توها الأمر ونقلت الشقيقتين بإحدى هباتها اللطيفة آمنتين إلى بسوكي . وقد تعانقت الأخوات الثلاث وقبل بعضهن بعضاً بحبور ، وما أسرع أن تهاطلت من مآقيهن دموع الفرح بدلاً من دموع الأسى ، وقالت بسوكي : «هلما أدخلا معي لتريا بيتي الجديد ، سوف تسعدان به للغاية» ، ثم ارتهما خزانتهما ، وسمعتا أصوات الخدم غير المرئيين . بعدها أمرت لهما بحمام فاخر واحتفت بهما على مائدتها السحرية احتفاءً رائعاً . غير أن الكشف عن هناة بسوكي شبه الإلهية جعل الأختين كليهما تشعران بالغيرة المريرة - وبخاصة صغراهما التي كانت دائماً فضولية الطبع جداً . كانت تتحرق شوقاً لمعرفة مالك هذا الخير الأسطوري ، فشرعت في الإلحاح على بسوكي

لتنبئها أى نخط من الرجال كان زوجها وكيف يعاملها .

كانت بسوكى وفية لوعدها فلم تخبر أختها بشئ ، بل اختلقت قصة تناسب المقام . قالت إن زوجها كان شاباً بالغ الوسامة وله ذقن صغيرة ناعمة ، وإنه يقضى وقته كله فى الصيد فى الهضاب والوديان المجاورة . لكنها شعرت بالخوف عندما بدأت شقيقتها فى استنطاقها . لتفرض أنها ناقضت نفسها أو زل لسانها أو نكثت عهدها ؟ فسارعت إلى تحميلهما الاتئتين بفصوص الحجارة الكريمة والخواتم وطوقت عنقيهما بالعقود ، ثم استدعت الريح الغربية وطلبت منها حملهما بعيداً عنها فى الحال . حملتهما الريح إلى أعلى الصخرة ، وفى طريق عودتهما إلى المدينة بدأ سم الحسد عمله فى قلوبهما .

قالت الكبرى : «لكم عاملتنا ربة الحظ بظلم أعمى قاس ! هل تظنين من العدل أن نعطى نحن الشقيقات الثلاث مثل هذه المصائر المختلفة ؟ أنت وأنا الكبيران ، ورغم هذا نفى من وطننا ونبعد عن أصدقائنا ونزوج لغريبين يعاملنا كالإماء ، فى حين تعطى بسوكى - ثمرة جهد أمنا الواهن الأخير للحمل - أفخم قصر فى الوجود ورياً زوجاً لها ، وهى لا تعرف حتى كيف تستعمل ثروتها الطائلة . هل رأيت ، عمرك ، مثل هذه الأكوام من الجواهر وهذه الصوانات الملائى بالثياب المطرزة ؟ أوه !! بل إن أرض القصر ذاتها صنعت من الذهب المرصع بالدر والياقوت ! فلو أن زوجها كان مثل إله فى منظره كما تقول فهى لا شك أسعد امرأة فى الدنيا كلها ، ولو أنه ظل على هيامه بها كما هو الآن فسوف يجعل منها ربة ، آه .. ألم تكن تسلك كالربة فعلاً ؟ إنها - على كل حال - ليست سوى لحم ودم ورغم هذا تأمر الريح فتطيع ، ولها قصر ملئ بالخشم غير المرئيين . لكم أمقتها ! إن زوجى أكبر سناً من أبى ، وأظهر صلعاً من القرع ، وضئيل كالولد الصغير ، وهو يوصد الأبواب على كل شئ فى البيت بالسلاسل والأقفال» .

« قالت الأخت الصغرى : «زوجى أسوأ من ذلك ، فهو يتوجع من عرق النسا الذى يمنعه من النوم معى أكثر من مرة واحدة كل ظهور قمر جديد ، وأصابه متصلة ذات عقد من أثر النقرس ، وعليّ أن أفضى نصف وقتى فى تديكها . هل تذكرين يدى البيضاوين الجميلتين ؟ حسن . انظرى حالتهما الآن بسبب عفص مكمداته العفنة ومراهمه الكريهة ، ولصوقه القدر ! إننى مساعدة طيب أكثر منى ملكة . وأنت ، يا عزيزتى ، صبورة أكثر مما يجب . أو - لو سمحت لى بهذا القول - أنت فى الواقع مسترقة بقبولك هذه الحالة الفظيعة ، أما أنا شخصياً فلا أستطيع ببساطة ، تحمل رؤية أختى الصغرى تحيا هذه الحياة الباذخة التى لا تستحقها . أنا سعيدة بأنك لاحظت كيف عاملتنا بتمعال ، وكيف باهت بأموالها ، وكم كانت شحيحة بهداياها . ثم عندما ملت زيارتنا استدعت الريح وطيرتنا خارج قصرها . لكن سوف لن أدعى امرأة بعد الآن إن لم أعمل على دحرجتها من عليائها فى القريب العاجل وإيقاعها فى حفرة بلا قرار ، فإن كنت تحسين بالمرارة كما أحس ، وكما يجب ، من الطريقة التى أهانتنا بها فلم لا نوحّد القوى ونرسم خطة ما للإطاحة بها ؟ » .

قالت الأخت الكبرى «أنا معك ، واقتراح أولاً وقبل كل شئ الا نرى أحداً ، حتى أبانا وأمنا ، هداياها هذه ، ولا نخبر أحداً أبداً أنها لا تزال على قيد الحياة ، يكفى سوءاً أن نراها ترفل فى نعيم حظها الحسن دون أن نطلق أخبارها فى بيتنا لتنتشر بعدها فى المدينة كلها ، يجب أن تدرك بسوكى أننا لسنا خدماً لها بل نحن أختاها الكبريان ! » .

« طيب ! » قالت الأخت الصغرى : «نعود إلى بيتنا الحقيرين وزوجينا الشيخين القميئين دون أن نخبر أمنا ولا أبانا بشئ ، وعندما تفكر إحدانا فى خطة محكمة لإذلال كبرياء بسوكى نأتى إلى هنا مرة أخرى وننفذها بكل جرأة » .

تعاهدت الأختان الشريرتان على هذا الأمر ، وأخفنا الهدايا الثمينة التى أعطتهما بسوكى ، وعندما اقتربتا من قصر أبيهما شرعت كل منهما فى تخميش وجهها وتقطيع شعرها فى حزن متكلف لعدم عثورها على أى أثر لأختها مما زاد فى حزن الملك والملكة أكثر من ذى قبل . ثم افترقتا ومضت كل منهما قافلة إلى بلاد زوجها يملأها الحقد الدفين وهى تقدح زناد فكرها لاستنباط حيلة تهلك بها أختها البريئة حتى ولو كان هذا يعنى قتلها .

فى تلك الأثناء قدّم زوج بسوكى الخفى إنذاراً آخر لها، سألها ذلك ليلة: «هل تدريكين أن عاصفة هوجاء تعتمل من بعيد ؟ سوف تهب عليك بعد قليل إن لم تتخذى أكبر الحيلة وسوف تأخذك أخذاً . إن هاتين الذئبتين الغدارتين تعدان العدة لهلاكك . سوف تحثانك على النظر إلى وجهى رغم أنى طالما قلت لك إنك ما إن ترينه حتى تفقدننى إلى الأبد ، فلو جاءت هاتان الحيتان الكريهتان لزيارتك مرة أخرى ، وأنا واثق من إنهما ستفعلان ، يجب أن ترفضى الحديث إليهما ، وإن كان هذا عسيراً بالنسبة لفتاة طيبة القلب ساذجة مثلما أنت كذلك ، فلتتجنبى على الأقل الرد على أى سؤال منهما عنى . تظاهرى بأنك لم تسمعيهما ، هذا أمر مهم جداً - إذ نتوقع أن نكون أسرة بعد قليل ، ورغم إنك لا تزالين أنت ذاتك مجرد طفلة فسيكون لى فى القريب طفل منك يولد إلهاً إن كتمت سرى ، فإن أفشيتيه ولد بشراً مائتاً» .

غمر بسوكى الابتهاج حين سمعت إنها قد تلد رباً ، وبدأت مهتاجة فى عد الشهور والأيام التى يجب أن تنقضى قبل أن يولد . لكنها ما كانت تعرف سوى القليل عن حقائق الحياة ولم تستطع أن تفهم لم كان لثلم عذريتها مثل هذا الأثر الغريب على قوامها .

كانت الأختان الشريرتان فى طريقهما مسرعتين إلى قصر بسوكى كرة أخرى تنفخ فيهما شياطين الحقد القاسى ، ومرة أخرى أنذرت بسوكى :

«اليوم يوم الفصل ! عدوك قريب ، لقد عسكر وأطلق جنوده ونفخ النفير ، عدوك من جنسك ودمك . إنهما أختاك الكبيران مندفعتان نحوك بسيفين مسلولين هدفهما عنقك ، أى حبيبتي بسوكى ! أى أخطار تحقيق بنا ! أشفقى على نفسك ، وأشفق على ، وعلى طفلنا الذى لم يولد بعد ! احفظى سرى طى الكتمان ، واحفظينا جميعاً من الهلاك الذى يتهددنا . ارفضى رؤية تلك المرأتين الشريرتين ، لقد سلبتا الحق فى أن تدعى أختيك بسبب مقتهما القاتل لك ، امنعهما من المجئ إلى هنا ، ارفضى الإنصات إليهما عندما تجعلان الصخور تردد صدى صوتيهما البائس مثل السيرينات المنحنيات على مهوى الوادى ، اعتصمى بالصمت المطبق» .

قالت بسوكى وصوتها تكسره العبرات : «يمكنك بالتأكيد الوثوق بى ، عندما زارتنى أختاى آخر مرة أعطيتك برهاناً ساطعاً على وفائى وقوتى على حفظ السر ، وهذا ما سيحدث غداً . أرجوك فقط أن تأمر الريح الغربية أن تقوم بواجبها كذى قبل ، واثذن لى على الأقل أن ألقى نظرة على أختى - تعزية بسيطة جداً عن عدم رؤيتى لك أبداً ... يا حبيبى !! هذه الخصل الفواحة تنحدر حول رأسك ، وهاتان الوجنتان الناعمتان كوجنتى ، وهذا الصدر المشع بالحرارة الدافقة ، أوه ... لكم أشتهى أن أعرف كيف تبدو الحقيقة بأن أتفحص وجه طفلى ! أتضرع إليك أن تخفف ما بى من شوق - فإن رفضك مضر بالطفل جداً - واسعد حبيبتيك بسوكى . أنت وأنا يحب كل منا الآخر كل الحب ، وأعدك إن سمحت لى برؤية أختى ، بالأأخشى الظلمة أو يعتربنى الشوق العارم لرؤيتك حين أضمك بين ذراعى .. يا نور حياتى !!» وقد حطم صوتها ومداعباتها اللطيفة مقاومته ، فجفف عينيها بخصلات شعره وأعطاهما ما طلبت . ثم اختفى كالعادة مرة أخرى قبل أن يطلع النهار .

أما الأختان الشريرتان فقد رسا مركبهما عند أقرب ميناء وهرعتا ، دون أن تتكلفا حتى زيارة أبويهما ، قاصدين الصخرة مباشرة ، وقفرتا منها بجرأة فائقة دون انتظار الريح لتنفخ ثيابهما . وعلى كل حال فقد كانت الريح الغربية مجبرة على طاعة الأمر رغم ما قد يكون اعتراها من تردد ، فأمسكت بهما من رداءيهما فى منتصف الطريق إلى قاع الوادى وحطت بهما سالتين على الأرض .

جرت الأختان إلى القصر تصيحان : «أخناه ! أختنا العزيزة ! أين أنت؟» ثم عانقتا ضحيتهما عناقاً كانت تحسبه حباً عميقاً . وبعدها صاحتا وهما تضحكان ضحكاً صاعباً تخفيان به غدرهما : «ماذا حدث يا بسوكى ؟ إنك لست نحيلة القوام كما عهدناك ، ستصبحين أما عما قريب ، إننا نتحرق شوقاً لنرى أى نوع من الأطفال سوف يكون ، وسيتهج أبوانا بهذا الخبر ، أوه ... كم نحب أن نرعى طفلك الذهبى ، فإن شابه أبويه ، كما ينبغى الأمر ، فسوف يكون كيوييداً صغيراً كاملاً» .

وشيئاً فشيئاً اكتسبتا ثقتهما ، ولما رأتهما متعبتين من الوقوف دعتهما للجلوس والراحة بينما يسخن الماء لهما ، وعندما انتهتا حمامهما ، قدمت لهما ألد عشاء تذوقته فى حياتهما طبقاً بعد طبق من المطاعم الشهية بدءاً بالسجق المتبل بالبهارات وانتهاء بالفالودج ، فى حين كان عازف قيثارة خفى يلعب لهما طبق أوامرهما وعازف ناى غير مرئى يطربهما ، وجوقة تشدو بأعجب الألحان . غير أن قلبى الأختين القاسيين لم تلتئهما حتى الموسيقى السماوية ، وبمكر خادع أدارتا دفة الحديث ليجرى عن زوجها وسألتاهما من كان ومن أين جاءت أسرته .

كانت بسوكى ساذجة جداً ، فاخطلت لهما قصة جديدة وقد نسيت ما حدثتهما به من قبل ، قالت إنه تاجر فى منتصف العمر من البلاد المجاورة ،

مفرط الغنى ، ذو شعر وخطه الشيب ، ثم أنهت الحديث بسرعة ، وحملتها بالهدايا السنية وودعتهما فى عربة الريح .

فى طريقهما إلى بلديهما قالت الأخت الصغرى : «ماذا تعدين هذه الأكاذيب الفظيعة التى تحدثنا بها ؟ لقد قالت هذه المخلوقة السخيفة فى البداية إن زوجها شاب ذو ذقن صغيرة ، ثم ها هى تذكر أنه رجل فى أوسط العمر ذو شعر أشيب ! زلة لسان ... هيه ؟ ! يمكنك القول إما أن هذه الحيوانة تخفى عنا أمراً أو أنها لا تعرف هى نفسها ما شكل زوجها» .

قالت الأخت الكبرى : «مهما تكن الحقيقة يجب أن نهلكها بأسرع ما يمكن ، لكن إذا كانت فعلاً لم تر زوجها أبداً فمن الضروري أن يكون إلهاً وسوف يكون ابنها إلهاً أيضاً» .

قالت الصغرى : «لو ان شيئاً مثل هذا حدث ، لا سمحت السماء ، فسأشئق نفسى فى الحال ، لست أحتمل أن تكون بسوكى أمأ لإله خالد . أحسب انه يجب إيجاد وسيلة ما الآن لأفضل طريق لخداعها ، وفى هذه الأثناء .. ماذا لو زرنا الوالدين ؟» .

ذهبتا إلى القصر حيث أبويهما تحية مقتضبة ، وقد أبقاهما عنف انفعالهما ساهرتين الليل بطوله ، وما أن انبلج الصبح حتى أسرعتا إلى الصخرة وألقتا بنفسيهما منها لتنزلقا كالعادة إلى الوادى بمساعدة الريح الغربية ، وقد حكتا جفونهما بشدة لكى تستخرجا منها بضع قطرات من الدمع ، ومضتا إلى بسوكى وقالتا لها : «أوه .. يا أختاه ! إن الجهل فى الواقع نعمة ! ها أنت تجلسين سعيدة هادئة البال دون أدنى اشتباه فى النكبة الرهيبة التى حلت بك ، ونحن فى أشد العذاب من أجلك ، ترين أننا نسهر على مصلحتك كالشقيقات الحقيقيات ، ولما كنا نحن الثلاثة اقتسمنا دائماً السراء والضراء فإن من الخطأ أن نخفى عنك الخطر المحدق بك ، ذلك أن

الزوج الذى يأتى مستتراً لينزلق ليلاً فى سريرك ليس غير أفعوان ضخمة ذى فكين واسعين فاغرين ، وجسم يمكن أن يلتف من حولك اثنتى عشرة مرة ورقة متنفخة بالسم الزعاف ، تذكرى ماذا قال موحى أبوللو مكتوب عليك أن تتزوجى حيواناً متوحشاً ضارياً .

لقد قابله عدد من المزارعين ، الذين يذهبون للصيد فى الغابات المحيطة بهذا المكان ، عائداً إلى بيته هذا من مرعاه عند هبوط الليل ، كما رآه كثير من الناس فى القرية المجاورة يسبح عبر النهر هناك ، وهم جميعاً يقولون إنه لن يذللك أكثر مما فعل ، وحين تقترب شهورك التسعة من نهايتها سوف يلتهمك حية ، إذ الواضح أن طعامه المفضل امرأة فى أيام الحمل الأخيرة ، الأفضل لك إذن أن تقررى إما أن تأتى وتعيشى معنا وسوف نفعل كل ما فى الوجود لإنقاذك - أو تفضلى الإقامة هنا مع هذا الأفعوان الجهنمى حتى تلقى نهايتك فى أمعائه - أم لعلك استهواك العيش هنا وحيدة دون رفيق سوى الأصوات المحيطة بك طيلة النهار ، وفى الليل يعانقك أفعوان سام فى سرية مقرزة . إن كان الأمر كذلك فهنيئاً لك بحياتك ، ونحن على كل حال أدينا واجبنا كشقيقتين محبتين بتحذيرك من النهاية الحتمية» .

ذهلت بسوكى المسكينة الساذجة عند سماعها هذا الكلام ، وفقدت كل سيطرة على نفسها ، ارتعدت فرائصها وانقلب لونها إلى شحوب الموت ، واندفعت فى هاوية الشقاء ، ناسية كل تحذيرات زوجها وكل وعودها له ، وانفجرت قائلة : «يا أعز الأخوات ! شكراً على لطفكما ، إنكما على صواب تام فى تحذيركما لى وأحسب أن من حدثكم بهذا الأمر صادق فى حديثه ، الحقيقة أننى لم أرَ وجه زوجى مطلقاً وليس لدى أدنى فكرة عمن يكون أو من أين جاء ، إننى اسمعه يحدثنى همساً فى الليل فحسب ، ومن العسير عليّ أن أكون زوجة من يكره ضوء النهار مثلما يفعل زوجى ، ولذا فإن لدى كل سبب وجيه أن أفترض كما تفعلان ، أن لا بد من كونه وحشاً

من الوحوش ، وفضلاً عن ذلك فهو ينذرني دائماً مما سيحدث إن حاولت رؤيته ، فأرجوكم أن تنصحنى كيف أسلك فى هذا الموقف المخيف ، وأرشدانى أيتها الأختان العزيزتان ، وإلا ضاع الجهد الذى بذلتماه بلطفكما فى سبيلى .

أدرت المرات أن استحکامات دفاع بسوكى قد نهاوت وأن قلبها بات مفتوحاً للهجوم ، فاستغلنا الفرصة السانحة بضراوة .

قالت الصغرى : « الدم لا يصبح ماء يا عزيزتى ! والتفكير فى الخطر المحقق بك ينسينا الأخطار من حولنا نحن . لقد تدبرنا الأمر نحن الشتين مرات لا نحصى منذ أمس ووصلنا إلى نتيجة أن لديك فرصة واحدة فقط لإنقاذ نفسك ، وهى هذه : خذى مدية قاطعة حادة ، وزيديها حدة بشحذها على راحة يدك ، ثم خبيها فى مكان ما بجانب السرير الذى تنامين عليه ، وخذى أيضاً مصباحاً وامسئيه زيتاً حتى حافته واقضى ذبالته بعناية ، ثم أوقديه واخفيه فى غرفة النوم ، قومى بهذا كله خفية ، وعندما يزورك الوحش كالعادة انتظرى حتى يتمدد على طوله فوق السرير ، وستعرفين من نفسه العميق انه استغرق فى النوم تماماً .

عندها انزلقى من السرير والمدية فى يدك وامشى على أطراف أصابعك إلى مخبأ المصباح ، وأخيراً بمساعدة نور المصباح ، نفذى عملك النبل ، أغرصى المدية بما أوتيت من قوة فى عنق الوحش السام وحزى رأسه ، ونحن نعدك بالوقوف قريباً منك والمراقبة الحذرة . وفى اللحظة التى تنقذين فيها نفسك بقتله نهرع إليك ونعينك على الفرار بكل ثروتك وأموالك . بعدها نزوجك من إنسى مناسب لك » .

فلما رأت الأختان أن بسوكى مصممة على اتباع نصيحتهما غادرتاهما بهدوء ، خوفاً من أن تكونا فى أى مكان قريب منها عند حلول الكارثة .

وقد نقلتهما الريح الغربية إلى الصخرة ، ومنها جرتا إلى سفينتهما بأسرع ما استطاعتا وأبحرتا فى الحال .

ظلت بسوكى وحيدة ، فيما عدا شيطانات الشر التى تتملك روح امرأة عزمت على قتل زوجها . كان بالها مضطرباً كالبحر الهائج . فى البداية كان عزمها ثابتاً وهى تهىء لجرمتها ، ثم بدأت تتردد ويتتابها القلق متفكرة فى ما سيحدث إن نجحت وماذا سيكون إن أخفقت . سارعت .. ثم تباطأت ، غير شاعرة بالثقة التامة فى ما إذا كانت تقوم بعمل صواب . ثم تملكها الغضب مرة أخرى . وأعجب ما فى القضية أنها رغم نفورها من فكرة النوم وأفعواناً ساماً فقد كانت لا تزال تحب زوجها . فلما اقترب الليل حزمت أمرها فى النهاية وأسهرت تعد المصباح والمدية .

جن الليل ، وجاء زوجها إلى سريره ، وبعد أن أنهيا عناق وتقبيل بعضهما البعض غلبه النوم فنام . لم تكن بسوكى بطبعها امرأة قوية ولا شجاعة ، بيد أن قوة القدر القاسية جعلت منها امرأة فحلة جسوراً . كشفت غطاء المصباح ، وهى تمسك المدية بقبضة قائلة ، وأذنت لنوره أن يشع فوق السرير . فى الحال كشف السر . هناك استلقى أرق وأحلى جميع المخلوقات «الوحشية» .. كيوييد ذاته .. إله الحب الجميل ، رآه لهب المصباح فتراقص جذلاً ، واحت المدية طرفها خجلاً !

صعقت بسوكى ، فقدت السيطرة على كل حواسها ، فوقعت على ركبتيها ترتعش ولونها فى شحوب الأموات . حاولت بيأس أن تخفى المدية بدفنها فى قلبها هى . وكان لها أن تنجح لولا أن تراجعت المدية عن الجريمة وتملصت من يدها ، مدهوشة يكاد يغشى عليها بدأت بسوكى تسترجع أنفاسها وهى تحرق فى جمال كيوييد السماوى ، كان شعره الذهبى المغسول بماء الحياة لا يزال يتضوع بأريجة ، وخصله الكثة تتماوج على العنق العاجى

والخدين المتوردين ، يهبط رائعاً متشابكاً على جانبي رأسه - شعر مشع حتى أن لهب المصباح طرف للنور الباهر المنبثق منه . وعلى كتفيه جناحان ناعمان أكثر بياضاً من الثلج ، ساكنان إلا الزغب عند أطراف الريش يرف بمكر طيلة الوقت . أما باقى جسده فكان من النعومة والجمال بحيث أن فينوس لم تكن لتخجل من اعتباره ابنها . وعلى طرف السرير رقد قوس إله الحب وجعبته وسهامه .

لم يكن يشبع فضول بسوكى غير فحص قريب لأسلحة زوجها المقدسة، فجذبت شهماً من الجعبة ولمست رأسه بطرف إبهامها لترى حدثه ، فضغطت عليه ، لارتعاش يدها أكثر مما يجب ، فوخز إبهامها وانبجست قطرة أو قطرتان من الدم ، فجأة وقعت بسوكى فى حب الحب ! فألقت بنفسها عليه يحرقها الوجه وتعصرها الرغبة وقد ازداد غرامها بكيوبيد عن ذى قبل ، وغمرته بالقبلات ، كان خوفها الوحيد أن يصحو سريعاً .

وفيما كانت ملتصقة به ، وقد أذهلتها المتعة ، طش المصباح الذى كانت لا تزال تحمله نقطة من زيتة الحار - غدراً أو حسداً أو لهفة على لمس وتقيل ذلك الجسد الرائع البديع - فسقطت على كتف كيوبيد اليمنى ، يا له من مصباح سافل دنى ! يا له من إناء حقير فى هيكل الحب ! فالمؤكد أن أول مصباح عرف كان اختراع محب دنف رام إطالة متعة النظر إلى محبوبه طيلة الليل - فأحرق كتف رب نار الحب الموقدة .

قفز كيوبيد ألماً وألقى نظرة سريعة على المشهد المشين كله ، وأفرد جناحيه وطار دون أن ينبس بكلمة واحدة ، غير أن الفتاة التعيسة تعلقت بقدمه اليمنى بكلتا يديها والتصقت بهما ، وكان منظرها غريباً وهى تطير هكذا خلال السحب . لكن قوتها ما لبثت أن خذلنها فوقعت تتدحرج على الأرض من جديد .

لم يهجرها كيوييد من فوره ، بل حط على قمة شجرة سرو قريبة حيث طفق ييكتها : «أوه .. يا بسوكى الساذجة الغريرة ! من أجلك عصيت أوامر أمى فينوس ! أمرتني بأن ألهبك بغرام رجل لا قدر له فضلت أن أهبط من السماء وأصبح أنا نفسى حبيبك ، أعرف جيداً أننى تصرفت دون تفكير .. فانظرى الآن إلى النتيجة ! كيوييد ، القواس الشهير ، يجرح نفسه بأحد سهامه ويتزوج فتاة تحسبه وحشاً ضارياً ، تحاول أن تقطع رأسه وتعتم عينيه اللتين طالما شعتا بحبها . هذا هو الخطر الذى حذرتك منه مرات ومرات ورجوتك بلطف أن تحوطى لنفسك . أما أختاك اللتان صيرتاك ضدى ونصحتاك هذه النصيحة الملعونة فسأنتقم منهما قريباً . أما عقابك أنت فسيكون ببساطة ، فى أن أظير بعيداً عنك» قال هذا ، ثم ارتفع محلطاً فى الجو ومضى إلى حال سبيله .

رقدت بسوكى دون حراك على الأرض تتبعه بناظريها وتتوح بمرارة ، وحين غيبت خفقات جناحيه الثابتة كيوييد عن بصرها صعدت إلى ضفة نهر كان يجرى بالقرب منها وألقت بنفسها فى الماء ، غير أن النهر اللطيف أخذها فوق موجة رقيقة - احتراماً للإله الذى تحس بسلطانه مخلوقات الماء كما تحس به السباع والطيور - ووضعها دون أن يلحقها أذى على بساط من العشب المزهر .

وقد اتفق أن كان بان ، إله الريف ذو الأقدام العنزية ، جالساً غير بعيد يداعب حورية الجبل ايكو ويعلمها كيف تعيد كل ضروب الأغنيات الحلوة . من حوله كان يطوف قطيع من الماعز يرعى العشب بنهم ، وكان بان علم بمصيبة بسوكى ، فواسى الفتاة المسكينة وقدم لها ما يستطيع للترويح عنها ، قال لها مهدئاً : «يا عزيزتى الحلوة ! على الرغم من أننى راع عجوز طاعن فى السن ومجرد رجل ريفى فقد مرت بتجارب كثيرة للغاية فى أيامى ، فإن كنت مصيباً فى تخمينى ، أو فى كهانتى كما يسميها الناس

العقلاء ، فإن مشيتك المترنحة ولونك الشاحب وآهاتك المتواصلة وعينيك الحزيتين تبين عن أنك فى حال حب عظيم . اسمعى .. لا تحاولى مرة أخرى الانتحار بالقفز فى هاوية أو ارتكاب أمر عنيف آخر . كفى عن العويل وحاولى أن تكونى مرحة ، وافتحى قلبك لكيوييد ... أعظمنا نحن الآلهة .. فهو شاب مدلل تماماً ينبغى عليك أن تناغيه بالصلاة له بأرق الكلمات وأحلى الحديث .

من حسن الطالع بالطبع أن يخاطب بان أحداً من البشر ، غير أن بسوكى لم تحر جواباً ، اكتفت بانحناءة احترام له ثم مضت فى سبيلها . زحفت على طول الطريق المحاذية للنهر مدة ، ثم قررت لسبب أو لآخر أن تتبع مسرباً أبعداها عن النهر ، وقادها المسرب عند غروب الشمس إلى مدينة اكتشفت أن أختها الكبرى كانت ملكتها فأعلنت عن مقدمها عند مدخل القصر وسرعان ما أذن لها فى الدخول .

بعد تبادل العناق سألت الملكة أختها بسوكى عن سبب مجيئها ، فأجابت : «هل تذكرين نصيحتك عن المدية والأفعوان الرهيب الذى اتخذنى زوجة وكان سيبتلعنى ؟ حسن لقد اتبعت نصيحتك ، ولكن ما أن أضأت مصباحى على السرير حتى رأيت منظراً عجباً : ابن فينوس المقدس .. كيوييد ذاته .. مستلقياً هناك فى نوم هادئ . غلبنى الفرح والحبور . فقدت صوابى ولم أدر كيف أطفئ شوقى إليه ، ثم سقطت عرضاً نقطة من زيت المصباح الحارق على كتفه فأيقظه الألم على الفور ، ولما رأتى ممسكة بالمصباح والمدية صاح فى : «أيتها المرأة الشريرة ! اخرجى من هنا حالا ! أنت طالق .. طالق .. طالق ! وسوف أتزوج بأختك الكبرى بدلاً منك» ثم نادى الريح الغربية التى أخذتنى خارج القصر وعصفت بى إلى هنا» .

لم تكذب سوكى تكمل قصتها حتى اندفعت أختها ، وقد أطاربت الغيرة عقلها لنوم أختها مع إله فى فراش واحد وأحرقها الرغبة فى تذوق طعم التجربة ، اندفعت إلى زوجها تنبئه بأن أبويها ماتا وأن عليها الإبحار إلى بلادها فوراً . وقد ذهبت من توها ، وحين بلغت الصخرة ، وكانت ريح أخرى تعصف ، صاحت بنقطة كاملة : «ها أنذا يا كيوييد ! امرأة جديدة بحبك ، يا ريح الغرب ! احملى سيدتك إلى القصر فى الحال !» ثم قفزت من الصخرة غير أنها لم تبلغ الوادى أبداً حية أو ميتة ، إذ مزقتها الصخور إرباً إرباً وهى تهوى فوقها ، وتناثر لحمها وأمعائها على جانب الجبل ، فالت بذلك ما تستحق ، واحتفلت الطيور الجارحة والوحوش على بقايا أشلائها .

هامت بسوكى هنا وهناك حتى جاءت مدينة أخرى كانت ملكتها أختها الثانية ، فأخبرتها القصة ذاتها ، وقد أبحرت المرأة الشريرة فى الحال ، وهى تتمنى أن تحل محل بسوكى بين ذراعى كيوييد ، وأسرعت إلى الصخرة وقفزت من فوقها ، فلاقت حتفها كما فعلت أختها من قبل ♦

كيوبيد وبسوكي (3)

مضت بسوكي في ترحالها من بلد إلى بلد باحثة عن كيوبيد ، بيد أنه كان في السماء طريح الفراش في جناح من قصر أمه الملكي يئن من فرط الألم . وفي تلك الأثناء غاص في الماء نورس أبيض من تلك النوارس التي ترفرف على سطح البحر تضرب بأجنحتها أمواجه ، حيث قابل فينوس التي كانت تستمتع بغطسة في البحر ، وأبلغها أن ابنها كيوبيد كان يلزم الفراش بسبب حرق بالغ أليم يشك في برئه منه . أخبرها أيضاً عن كل ضروب الفضيحة عن آل فينوس تتردد على الأفواه . أخبرها كذلك أن الناس يقولون أن ابنها هبط إلى جبل ما من أجل عمل غير لائق وفتاة إنسية ، وأن فينوس ذاتها هجرت واجباتها القدسية وقصدت شاطئ البحر للراحة والاستجمام ، وأضاف النورس قائلاً : «والنتيجة أن (متعة) و (حسنة) و (دعابة) اختفت جميعها من الأرض ، وإن كل شيء بات قبيحاً وسخيفاً ومضطرباً للغاية . ما من أحد يبالى الآن بزوجه أو صحابه أو أطفاله ، وأن نظام الحب البشري كله في حالة ارتباك كامل حتى بات إظهار العاطفة الطبيعية أمراً يبعث على الاشمئزاز للغاية» .

ولقد نجح هذا الطائر الفضولي الشرثار في إثارة فينوس ضد ابنها ، إذ هاج بها الغضب وصاحت : «إذن اتخذ ولدي الواعد محظية له .. هكذا؟! أخبرني أيها النورس ، إذ يبدو أنك الكائن الوحيد الذي ظل يحمل حباً حقيقياً ، هل تعرف اسم المخلوقة التي أغوت طفلي الساذج المسكين ؟ هل

هى إحدى عرائس الفن ، أم إحدى الحسان من تلميذاتى ؟ » .

كان النورس على أهبة الاستعداد لنشر الفضيحة التى سمعها على أوسع نطاق ، قال : « لا يمكننى القول على وجه التأكيد ، يا صاحبة الجلالة ، لكن إذا لم تخنى الذاكرة أظن الحكاية أن ابنك وقع فى حب عنيف لإنسية تدعى بسوكى » .

جنت فينوس غضباً وزعقت : « ماذا ؟ ! معها هى دون سائر النساء ؟ ! مع بسوكى مدعية جمالى ومنافستى فى مجدى ؟ ! هذا أسوأ وأسىء ! عن طريقى عرفها .. فهل يحسبنى هذا الولد الشقى قوادة له ؟ ! » ثم خرجت على الفور من البحر وأسرعت تخلق إلى غرفتها الذهبية حيث وجدت كيوييد مريضاً ملقى على الفراش كما أنبأها النورس .

بمجرد أن دخلت زعقت بأعلى صوتها : « أهذا هو السلوك اللائق ؟ شرفت عائلتك المقدسة وبنيت لنفسك صيتاً رائعاً !! تدوس أوامر أمك تحت قدميك كما انها لا سلطان لها عليك مهما يكن ، وبدلاً من أن تعذب غريميتها بعاطفة شقية ، كما أمرت أن تفعل ، لك من النذالة ما يجعلك تضاجع الفتاة أنت نفسك . فى سنك هذه أيها الحيوان الصغير الفاسق ! أحسبت أنه يسعدنى أن تكون لى كنة .. هيه ؟ ! أظننت أيها النصاب المحتال ، أيها الولد الفاجر ، أنك ورثت وأنتى جاوزت سن الحمل والولادة ؟ ! فلتفهم ، من فضلك ، أننى قادرة تماماً على إنجاب ابن آخر ، لو شئت .. أفضل منك مائة مرة ، واننى على استعداد كامل لحرمانك من الإرث فى سبيله ، ولكى أجعلك تحس بالخزى أكثر فأكثر فسأبني .. قانونياً ، ابن أحد عبيدى وأسلمه جناحيك وشعلتك وقوسك وسهامك التى كنت تستخدمها بطرق لم أنوها أبداً . ولى كل الحق فى أن أفعل هذا ، إذ ليس شئ من أسلحتك هذه قدمها أبوك فولكان . الحق أنك كنت سئ السلوك منذ أيامك الأولى ، وكان يحلو لك دائماً إيذاء الناس الطيبين ، ويا طالما أصبت

بسهامك من هم أكبر منك سناً ، وأنا - أمك - طالما أخرجتني أمام العالم كله يوماً بعد يوم ، أيها الشقي العاق ، بأن رشقتني في كل جارحة من جسدي بسهامك الصغيرة الفظيعة . أنت تشخر لى وتدعونى (الأرملة) لأننى وأباك ، كما أحسب ، لسنا على وفاق الآن ، ولا تبدى ذرة من احترام لزوج أمك .. مارس الذى لا يقهر .. بل إنك فى الواقع تبذل قصارى جهدك لمضايقتى بجعله يجرى خلف نساء أخريات وجعلى أنا أجن من فرط الغيرة . بيد أنك ستأسف عما قريب لاجترامك كل هذه الألاعيب ، وأنذكرك بأن زواجك هذا سيرتك طعماً حامضاً مرّاً فى فمك» .

لم يجب كيوييد بكلمة ، فطفقت تتشكى تحدث نفسها فى صوت خافت : «هذا كله حسن . كلهم يضحكون منى وأنا لا أدرى ماذا أفعل ولا إلى أين أذهب . كيف يمكننى - بحق السماء - أن أمسك بتلك السحلية الصغيرة الكريهة وأطبق عليها ؟ أظن أن الأفضل أن أطلب مساعدة (صحوة) العجوز ، وهى التى كنت أبداً شديدة الفظاظة معها فى سبيل ابنى الفاسد هذا . هل يجب حقاً أن أمضى إلى تلك الخنزيرة الجلفة القدرة ... عدوتى الطبيعية ؟ إن مجرد التفكير فى هذا يرسل القشعريرة فى أوصالى . بيد أن الانتقام لذيد من أى جهة جاء . نعم .. أخشى أن تكون الشخص الوحيد القادر على القيام بأى عمل لى . سوف تلقن هذا الحيوان الصغير درس حياته ، تصادر جعبته ، تثلم سهامه ، وتقطع أوتار قوسه ، وتطفئ شعلته . والأفزع من هذا أنها سوف تجز شعر رأسه الذهبى الذى كنت أجمعه باهتمام بيدى هاتين ، وتقص جناحيه الرائعين اللذين بيضتهما يوماً بلبن صدرى المدهش . فلبعننى ، حين يتم هذا أرتاح نوعاً ما» .

ثم اندفعت خارجة من فورها وعدت إلى حماتها يونو وعمتها سيريس اللتين لاحظتا مدى غضبها وسألتاها لم تفسد بهاء عينيها البراقتين بتقطيبه كالحة ، أجابت فينوس قائلة : «الحمد للسماء أننى قابلتكما . كنت فى

حاجة لكما لتهدئتي . هناك ما يمكنكما عمله لى .. رجاء . آمل أن تجدآ فى البحث فى كل مكان عن مخلوقة آابقة اسمها بسوكى - أنا واثقة من سماعكما كل شئ عنها وعن فضيحة العائلة التى سببتها بعلاقتها مع .. مع .. أنتما تعرفان !!»

كانت الربتان تعرفان بالطبع كل شئ عن الموضوع ، فحاولتا تطمين غضبها . قالت يونو : «يا عزيزتى ! يجب ألا تثقلى فؤادك بهذا الأمر كثيراً . لم تحاولين إفساد متعته وقتل الفتاة التى وقع فى حبها ؟ ما الاثم الفظيع الذى ارتكبه ؟ ليس جريمة بالتأكيد أن يضاجع فتاة جميلة !»

وقالت سيريس : «يا حبيبتى ! تتصورين أنه لا يزال صبيآ لأنه يحمل سنوات عمره دون أن تبدو عليه . لكن ينبغى أن تدركى أنه فى سن الشباب الآن . هل نسيت عمره ؟ الحق أننى ويونو نرى غريبآ منك ، أنت الأم والمرأة ، أن تصرى على دس أنفك فى شؤونه الخاصة ، وحين تكتشفينه متلبساً بحالة حب تلومين الفتى المسكين على مواهبه وميوله التى ورثها مباشرة منك . أى إله أو بشر يمكنه الصبر عليك ؟ أنت ترحين هنا وهناك تثيرين الرغبة الجنسية فى الناس بيد أنك تحاولين فى الوقت نفسه كبت الرغبة فى ابنك ! هل تنوين حقآ أن تغلقى المصدر الوحيد لضعف المرأة الكونى ؟»

لم تكن الربتان صادقتين فى دفاعهما عن كيوييد ، وإنما كانتا تخشيان سهامه ، وحسبتا من الحكمة أن تذكراه بخير حتى وإن كان غائبآ ، فلما رأت فينوس رفضهما الأخذ بما حل بها من ظلم أولتهما ظهرها فى كبرياء وأسرعت ثانية نحو أمواج البحر .

كانت بسوكى فى تلك الأثناء نائمة لا يقر لها قرار تصل الليل بالنهار بحثآ عن زوجها . كانت تأمل فى أن يرق قلبه لها ، مهما اشتد به الغضب . إما بملاطفته بلغة حبهما الخاصة أو بالركوع على ركبتيهما فى توبة الندم

النصوص . وذات يوم رأت معبدًا على قمة تل منحدر فقالت فى ذات نفسها: «هل يا ترى أجد زوجى هناك ؟» ثم مضت بهدوء صوب التل وقلبيها يخفق بالحـب والرجاء ، فبلغت المعبد بمشقة بعد أن صعدت جرفاً بعد جرف ، فألفته مليئاً بأكوام النذور من أكاليل الحنطة وحزمها وسنابل الشعير ، وكذلك المناجل وأدوات الحصاد الأخرى - وكلها مبعثر دون نظام كما لو كان ألقاها حصادون مهملون فى نهاية يوم صيف قائظ .

شرعت بسوكى فى ترتيب هذه الأشياء كلها بعناية ووضعها فى مكانها الصحيح ، وهى تحس بوجوب سلوكها باحترام أمام أى معبود يتفق أن تمر بمعبده ، وتطلب عون الأسرة السماوية كلها واحداً بعد الآخر، وكان ذلك المعبد خاصاً بالربة السخينة سبريس وقد رأتها منهمكة فى العمل فنادتـها عن بعد : «أوه .. يا بسوكى المسكينة ! فينوس غاضبة كل الغضب وهى تبحث عنك فى كل مكان ، تبغى أن تنتقم منك أبشع انتقام . يدهشنى أن تجدى الوقت لتنفقيه فى الاهتمام بشؤونى أو أن تفكرى فى أى شئ آخر على الإطلاق عدا النجاة بنفسك» .

تحدر شعر بسوكى على أرض المعبد فيما انحنت على قدمى الربة تبللهما بدموعها ، وتأوهت تسأل حمايتها : «ألؤذ بك ، أيتها الربة ، بسنابل القمح فى يدك ، بحفل موطن الحصاد السعيد ، بمحتويات السر فى قفاف القش المحمولة يوم عيدك ، بتنانين عربتك المجنحة ، بأخاديد المحراث فى صقلية التى اغتصب منها إله قاس ابتك بروسرين ذات مرة ، بعجلات عربته ، بالأرض التى أطبقت عليها، بعودتها خارج الأرض مضاءة الشعلة، وبأسرار أخرى يخفيها حرمك الأغريقى فى اليوسيس - ساعدينى .. أدعوك أن تعينى التعيسة المتبتلة إليك .. بسوكى .. اسمح لى أن أختبئ لبضعة أيام فقط تحت ذلك الكدس من حزم القمح حتى يفتـر غضب الربة العظيمة ، فإن لم يكن فاسمـح لى بقليل من الراحة لأننى - أقسم لك -

متعبة جداً جداً ، ولم أتوقف عن الترحال لحظة منذ بدأت .

أجابت سيريس قائلة : « ان دموعك وصلواتك تنفذ إلى صميم قلبي وكم أود لو ساعدتك . لكنني ، في الحقيقة ، لا يمكنني الإساءة إلى ابنة أختي . لقد كانت إحدى أفضل صديقاتي على مدى العصور المتطاولة ، وهى فى الواقع طيبة القلب لو عرفتها . الأفضل أن تغادري هذا المكان حالاً واحسبى نفسك محظوظة لأننى لم ألق القبض عليك » .

خرجت بسوكى من المعبد وقد ازدادت حزناً على حزن ، فهى لم تكن تتوقع مثل هذا الرد ، بيد أنها سرعان ما رأت فى الوادى أسفل التل معبداً آخر جميلاً وسط غيضة مقدسة . كانت تخشى أن تغفل أية فرصة ، مهما ضوّلت ، فى سبيل تسوية أمورها ، فهبطت إلى المعبد ترجو حماية ربه مهما كان هذا الرب . هناك رأت نذوراً متنوعة رائعة تتدلى من أغصان الغيضة ومن باب المعبد ، من ضمنها ثياب فأخرة مطرزة بحروف من الذهب تكون اسم الربة التى قدمت إليها .. يونو .. وتسجل أفضالها على مقدمى هذه النذور .

خرت بسوكى ساجدة على ركبتها ، ومسحت دموعها ، وبدأت فى التوسل وهى تحتضن مذبح الهيكل الذى كان لا يزال حاراً بالقرابين الجديدة : « يا أخت جوبتر العظيم وزوجته ! لا أدري أين أنت الآن . لعلك فى أحد معابدك فى ساموس - فأهلها يفاخرون بأنك ولدت فى جزيرتهم وقضيت طفولتك المثيرة هناك ، أو لعلك تزورين الآن مدينتك السعيدة قرطاجنة فوق هضبتها السامقة ، حيث تعبدن عذراء تمرح فى السموات فى عربة تجرها الأسود . أو لعلك تنظرين من أسوار آرغوس الشهيرة التى يشقها نهر اناخوس ، حيث تعبدن باعتبارك ملكة السماء وعروس الرعد . وحيثما كنت ، يا من يوقرك الشرق كله باسم زيجيا ربة الزواج ، والغرب كله باسم لوسينا ربة الولادة ، أبتهل إليك باعتبارك يونو الحارسة . أتوسل إليك أن

ترعيني فى مصيبتى وتنقذنى من الأخطار التى تهددنى . ترين - أيتها
الربة - أننى منهكة جداً جداً ، وأنا أعرف أنك دوماً مستعدة لمعاونة النسوة
الحبالى إذا ما حاقت بهن المتاعب .

ظهرت يونو بكل جلالها العظيم وقالت : «يا عزيزتى ! لكم أود
مساعدتك ، بيد أن التقاليد السماوية تمنعنى . لا يمكننى معارضة رغبات
فينوس زوجة ابنى فولكان كما تعلمين ، والتى أحببتها دائماً كما لو
كانت ابنتى ، إلى جانب أن القانون يمنعنى من حماية أية جارية طريدة دون
موافقة مالكها» .

ضاق الحال بيسوكى عند تحطم آمالها للمرة الثانية وشعرت بأنه لم يعد
فى قدرتها مطلقاً مواصلة البحث عن زوجها المجنح ، فقدت كل أمل فى
النجاة وقالت لنفسها : «أين المفر فى هذا العالم ، أو حتى خارجه ، ومن
أين أطلب العون إذا كانت حتى هاتان الربتان القويتان لا تقدمان لى شيئاً
سوى كلمات العطف ؟ لقد اشتبكت قدمائى فى شرك القدر حتى ليبدو
من العبث أن أطلب منهما أخذى إلى أى مكان آخر . أين ذاك المبنى الذى
أختفى فيه عن عيني فينوس الراصدة حتى وإن أوصدت كل نوافذه
وأبوابه ؟ الحق ، يا عزيزتى بسوكى ، أن الواجب عليك الآن استعارة شئ
من شجاعة الرجال . يجب أن تلغى كل أمل كاذب فى النجاة وتستسلمى
من تلقاء نفسك لمولاتك القاهرة . قد يكون الأوان فات لكن يجب على
الأقل أن تحاولى تخفيف سخطها بالاستسلام المطلق لها . وإلى جانب هذا،
وبعد بحثك الطويل دون جدوى ، فإن لديك فرصة ممكنة جداً أن تجدى
زوجك فى بيت حماتك» .

كان قرار بسوكى فى أداء واجبها خطيراً ، بل انتحارياً ، بيد أنها هيات
نفسها للأمر بالتفكير فى نوع الابتهاال الذى ينبغى أن توجهه إلى مولاتها
فينوس .

كانت فينوس فى تلك الأثناء قد رفضت استخدام أى بشر فى بحثها عن بسوكى ، وعادت إلى السماء حيث أمرت بإعداد عربتها . كانت العربية من الذهب الخالص المصقول ذات زخارف تجعل من قيمتها المادية صفراً إذا ما قورنت بقيمتها كعمل من أعمال الفن الرائعة، وكانت هدية زوجها فولكان يوم زواجهما من ضمن سرب على أهبة الاستعداد طارت أربع حمامات بسعادة يقدمن أعناقهن الملونة بألوان قوس قزح إلى أعنة العربية المرصعة بالجواهر. وما أن امتطت فينوس عربتها حتى مضت بها فى سرعة البرق، ومن خلفها حلق حشد من طيور السنونو المريحة وطيور صغيرة أخرى تغرد بحلاوة تعلن عن مقدم الربة العظيمة.

توارت السحب ، وفتحت السماء ، واستقبلتها طبقة الجو العليا بفرح وكان حشمها الشادى بالألحان لا يخشون فى شئ تلك النسور الحوامة أو الصقور النهمه . وقد مضت فينوس مباشرة إلى قلعة جوبتر الملكية حيث طلبت خدمات ميركورى ، منادى السماء ، على الفور ، فى أمر عاجل للغاية ، وحينما حرك جوبتر حاجب عينه الياقوتى بالموافقة سرت فينوس وانسحبت من حضرته ، ثم أبلغت تعليماتهما المحددة لميركورى الذى كان يصاحبها آنذاك : «أخى العزيز ! تعلم أننى لم أقم فى حياتى بعمل مطلقاً دون مساعدتك ، وتعلم كم ظلمت دون الحصول على خبر عن جاريتى الآبقة . ينبغى عليك الآن أن تعلن عن مكافأة لمن يجدها . واحرص على أن تطاع أوامرى فى الحال . يجب وصف شكلها وصفاً دقيقاً حتى لا يدعى أحد الجهل عذراً لإيوائها . هذا ملفها . اسمها بسوكى ، وفى الملف كل المعلومات المطلوبة عنها» ثم سلمته كتيباً صغيراً ومضت إلى مقرها على الفور .

فعل ميركورى ما أمر به ، مضى من بلد إلى بلد وهو ينادى : «يا هوه .. يا هوه !! من يمسك ويقبض على شخص أميرة هاربة ، احدى جوارى فينوس هانم ، اسمها : ب س و ك ي - أو يقدم أى معلومات تؤدى إلى

اكتشافها ، فليذهب إلى ميركورى .. منادى السماء .. فى معبده - طريق
سيدة الريحان - تل الشوفان - روما . والجائزة المعروضة كما يلى : سبع
قبات حلوة من فم فينوس المذكورة نفسها ، ودفعة بالغة الحلاوة من لسانها
العسلى بين شفثيه المنفرجتين !!» .

بالطبع سرت فى البشر كلهم روح الغيرة المتنافسة عند سماعهم اعلان
هذه الجائزة ، وهذا ما وضع حداً كبيراً لتردد بسوكى . كانت قريبة من قصر
مولاتها عندما قابلتها واحدة من خدم القصر اسمها «العادة القديمة»
صرخت فى التو بأعلى صوتها «أيتها الشقية القذرة ! أنت ؟ ! عرفت أخيراً
أن لك مولاة ! هيه ؟ .. لا تتظاهرى يا صفيقة الوجه بأنك لم تسمعى بما
يسبته لنا من كرب عظيم فى بحثنا عنك . طيب ! أنا سعيدة إذ وقعت بين
يدى أنا وليس فى يد أحد غيرى من الخدم .. لأنك سالمة هنا .. سالمة بين
فكى الجحيم ! ولن يتأخر عقابك أيضاً ، أيتها الحقيرة العنيدة الوقحة !» ثم
غرزت أصابعها فى شعر بسوكى وجرتها إلى حضرة فينوس جراً - رغم
أن المسكينة جاءت بمحض اختيارها وإرادتها .

انفجرت فينوس فى ضحكة هستيرية تأتى من امرأة بالغة الغضب .
هزت رأسها متوعدة وحكت أذنها - الأذن اليمنى التى يقال أن خلفها
يوجد عرش الانتقام : «آه ..» هكذا صاحت : «تنازلت اذن لتقديم فروض
الاحترام إلى حماتك .. أليس كذلك ؟ ! أم لعلك جئت لزيارة فراش
مرض زوجك بعد أن سمعت أنه لا يزال مريضاً جداً من أثر حرقك إياه ؟
لكن .. لتراحتى . أعدك بالترحيب الواجب على الحماة الطيبة أن تستقبل به
كتنها !» ثم صفقت بيديها تستحضر عبيدها .. «قلق» و «حزن» .. فلما
حضر اراكضين اسلمتهما بسوكى للعقاب ، فقاداهما خارج حضرتها وطفقا
يجلدانهما بقسوة ويذيقانهما صنوف العذاب الأخرى ، ثم أعاداهما كرة ثانية
إلى حضرة فينوس .

ومرة أخرى وهو هت فيتوس بالضحك : «انظروا إليها» هكذا زعقت :
«انظروا إلى هذه الزانية ! إن بطنها المتنفخ هذا يجعلنى أشعر بالرتاء لها .
إنها ، وحق السماء ، لتعذب قلب الجدة فى صدرى ! جدة ؟! حقاً !! ما
أروع أن أكون جدة فى عمرى هذا ! وما أروع التفكير فى ابن هذه الجارية
المنفرة سيدعى حفيد فيتوس ! كلا .. هذا بالطبع كلام فارغ ، زواج رب
وبشر مائت ، احتفل به فى أعماق الريف دون شهود ودون موافقة والد
العروس ، لا يمكن أن يعترف به قانوناً . طفلك ، يا بنيتى ، سيكون ابن
حرام وغداً حتى إن سمحت لك بأن تلديه» .

ثم اندفعت نحو بسوكى المسكينة تمزق ثيابها قطعاً وتشد ملء يدها من
شعرها ثم أمسكت بها من كتفيها وهزتها هزاً عنيفاً حتى كادت تطير رأسها
من جسدها وتفك أوصالها . بعدها طلبت كميات من القمح والشعير
والدخن والعدس والفول وحب الخردل والجلبان ، وخلطتها جميعاً فى
كدس هائل . ثم قالت : «منظرك يبدو مخيفاً أيتها الجارية ! والسبيل
الوحيد لك للحصول على محب هو العمل الشاق . سأختبرك الآن بنفسى
لأرى جدك . هل ترين هذا الكوم من البذور المخلوطة ؟ استخرجى كل
نوع على حدة ، وضعيها فى أكوام صغيرة منفصلة ، وبرهنى على سرعة
أصابعك بأن تجعلى كل حبة فى مكانها الصحيح قبل هبوط الليل» ثم
مضت مسرعة ، لا تلوى على شئ ، لتحضر صبحية زفاف إحدى العرائس .

لم تحاول بسوكى البدء فى عملها المروع ، بل جلست تحديق ساهمة إلى
أن اتفق مرور نملة صغيرة جداً من غل الريف أدركت الذى كان يجرى ، وقد
جعلت الشفقة على بسوكى ، زوجة إله الحب العظيم ، تلك النملة الصغيرة
تصب اللعنات على رأس الحماة القاسية ، وتنطلق بسرعة لتجميع كل نملة
فى المنطقة : «أشفقن عليها يا أخواتى ! أشفقن على هذه الفتاة الجميلة يا
بنات الأرض السخية المنهمكات فى العمل الدؤوب ! إنها زوجة الحب

نفسه وحياتها فى خطر داهم ، أسرع .. أسرع إلى النجدة !»

وقد جاءت النملات على عجل بأسرع ما تحملها أقدامها الستة ، موجة بعد موجة ، وبدأت العمل بحماسة لفصل خليط البذور حبة بعد حبة . وما أسرع أن انتهت النملات من إعادة ترتيب البذور بأناقة فى أكوام منفصلة ، ثم جرت هاربة فى الحال .

عادت فينوس ذاك المساء وهى نشوانة قليلاً ، تفوح منها رائحة طيوب نفاذة ، وقد عصبت رأسها بضفيرة من الورود . فلما رأت السرعة التى أنهت بها بسوكى عملها قالت : «أنت لم تقومى بهذا بخبطة يد واحدة ، أيتها الشقية ! هذا عمل من سحرته ، أيتها الحقيرة ، لكننى سوف أريك ...» ثم رمت نحوها برغيف جاف ومضت عنها إلى فراشها .

فى تلك الأثناء كانت فينوس قد حبست كيوييد فى غرفة نومه ، أولاً لتمنعه من القيام بالأعيه الماكرة المعتادة فيزيد من سوء جراحه ، وثانياً لكى تبعده عن حبيبة قلبه . وهكذا قضى العاشقان ليلة بائسة غير قادرين على أن يزور أحدهما الآخر ، رغم كونهما تحت سقف واحد .

وبمجرد أن أرسلت ربة الفجر فريقها يعبر السماء نادى فينوس بسوكى وقالت : «هل ترين تلك الغيضة على حافة ضفة الجدول هناك تتدلى منها الثمار على سطح الماء ؟ فيها تسرح خراف ذهبية لماعة دون راع يرعاها . أريد أن تأتى لى بضميمة من صوفها الثمين ، ولا أبالى كيف تحصلين عليها» .

نهضت بسوكى دون أدنى نية فى طاعة أوامر فينوس . لقد حرمت أمرها على أن تلقى بنفسها فى النهر وتنتهى آلامها . غير أن قصبة خضراء ، مما يستخدم فى صنع مزامير بان ، طيرتها نسمة سماوية وهمست لها : «انتظرى يا بسوكى .. انتظرى ! أعلم كم عانيت من الام فظيعة . لكن

يجب ألا تلوثى هذه المياه المقدسة بالانتحار . وشئ آخر : يجب ألا تذهبي إلى الغيضة حتى لا تعرضى حياتك للخطر بين تلك الخراف . ليس بعد . فإن حرارة الشمس تهيجها حتى لتقتل كل بشر يغامر بالدخول بينها ، إما بنطحها بقرونها أو بخبطه برؤوسها الصلدة حتى الموت ، أو بعضة بأسنانها السامة . انتظري يا بسوكى .. انتظري حتى يقترب الأصيل من نهايته وتهدهد همسات الماء السارية هذه الخراف لتنام . اختبئى فى أثناء ذلك تحت شجرة السنط التى ترتوى من الماء نفسه كما أرتوى ، وبمجرد أن تهدأ الخراف امضى إلى الغيضة واجمعى ندف الصوف الذهبى التى تلفينها معلقة بأطراف النبت هناك» .

كانت قصة طيبة لطيفة اتبعت بسوكى نصيحتها فأثبتت صدقها . وفى ذلك المساء كان فى مكتبها العودة إلى فينوس بملء حجرها صوفاً ذهبياً ناعماً . ورغم هذا فإن قيامها بهذا العمل الثانى الخطر لم يرض فينوس التى قطبت جبينها وقالت ببسمة قاسية : «لقد ساعدك أحد ما مرة أخرى . هذا واضح . سوف أضع شجاعتك وفطنتك موضع امتحان أدهى وأمر . هل ترين قمة ذلك الجبل الشاهق هناك ؟ ستلقين جدولاً داكن اللون ينصب على جوانبه السحيقة فى هاوية أسفله ، ومن هناك يفيض على مستنقعات ستوجيا ويرفد «نهر النحيب» الأجلش الصوت . هذى جرة صغيرة . اذهبي الآن حالاً وأتى بها ملأى حتى حافتها بالماء البارد كالثلج من منتصف الجدول بالضبط حيث ينبجس من الصخرة» .

ثم أعطت بسوكى جرة من البلور الصقيل وشيعتها بتهديد مجدد عما سيحدث لها إن آبت خاوية الوفاض .

انطلقت بسوكى من فورها إلى قمة الجبل ، الذى كان يسمى آرووانوس ، وفى ذهنها أنها قد تجد هناك وسيلة على الأقل لوضع حد لحياتها البائسة ، وعندما اقتربت من القمة رأت أى عمل مفزع خطير أعد

لها . كانت مياه نهر ستوكس تتفجر من منتصف مهوى شاهق منزلق شديد الانحدار ، وتصب في قناة ضيقة شقت طريقها في الصخر بمرور القرون ، ثم تفيض من حيث لا ترى في هاوية أسفل الجبل ، وعلى جانبي المجرى رأت تينين رهيبين يزومان ، لا ينامان أبداً ، يحرسانه دون أن يطرف لهما جفن ، وقد مدا عنقيهما الطويلين فوق الماء المقدس . وكانت المياه تتدفق بعنف فترسل أصواتاً كالكمات بين الفينة والأخرى : «ابتعدى دى دى دى دى دى دى دى !» .. ماذا تريد دين دين دين دين !» .. «أمشى شى شى شى شى شى !» .. «ما قصدك دك دك دك دك !» .. «الحذر ر ر ر ر ر !» .. «أذهبى بى بى بى بى بى !» .. «الموت موت موت موت موت موت موت !» ..

وقفت بسوكى جامدة كالحجر وقد طار عقلها شعاعاً . فإن فكرة الاستحالة المطلقة للنجاة حية من الفخ الذى نصبته لها فينوس كانت تغمرها حتى إنها لم تعد تستطيع التنفيس عن عذابها بالدموع - وسيلة الراحة الأخيرة عند المرأة حين تمضى الأمور بها على غير ما يرام . غير أن عين «العناية» اللطيفة الحادة تلمح الأرواح البريئة عندما يحيق بها العناء . وبناء على خاطر منها أرسل طائر جويتر الملكى . النسر الكاسر ، جناحيه هابطاً على حين غرة من السماء إلى بسوكى ، وقد تذكر بشعور من الامتنان ذلك الدين القديم الذى كان مديناً به لكيوييد حين أعانه على حمل غانوميد ، الأمير الفروجى الجميل ، إلى السماء ليصبح ساقى جويتر . ولما كانت بسوكى زوجة كيوييد فقد صاح بها قائلاً : «أى بسوكى الطيبة الساذجة الغريرة ! كيف لك أن ترجى سرقة نقطة واحدة من ماء هذا الجدول المقدس المخيف ؟ لقد سمعت بالتأكيد أن جويتر نفسه يخشى مياه نهر ستوكس ، وكما أنك تقسمين بالآلهة المباركة فإن الأرباب تقسم بهذا النهر القاهر . دعينى آخذ منك تلك الجرة الصغيرة» . ثم خطف الجرة من

قبضتها بسرعة وحلق بجناحيه القويين ، وهو ينعطف يمنة ويسرة متبعاً طريقاً متعرجاً بين صفى الأنياب المفزعين ولساني التنينين المتذبذبين برؤوسهما الثلاثة حتى بلغ المكان المطلوب ، وقد رفض الجدول فى البداية أن يعطى قطرة من مائه وأنذر النسر لكى ينجو بنفسه مادام فى إمكانه النجاة، غير أن النسر ادعى أن الربة فينوس كانت تبغى الماء وأنها عهدت إليه بإحضاره - وهو ادعاء كان له بعض الأثر على الجدول ، فملاً النسر الجرة بالماء وعاد بها سالمة إلى بسوكى التى غمرها الحبور .

آبت بسوكى بالجرة إلى فينوس ، بيد أنها لم تستطع أن تهدئ من هياجها حتى بهذا النجاح الأخير . كانت فينوس عاقدة العزم على امتحانها مرة أخرى امتحاناً أفظع . فقالت لها بابتسامة حلوة تحمل فى طياتها هلاكها: «لابد أنك ساحرة .. بل ساحرة مأكرة شريرة .. وإلا ما تمكنت أبداً من تنفيذ أوامرى بهذه الدقة ، لكن لا يزال لدى عمل آخر تؤدينه أيتها الفتاة العزيزة ! خذى هذا الصندوق من فضلك واهبطى إلى العالم السفلى .. إلى مكان الموت .. حيث يعيش بلوتو ، سلمى الصندوق إلى الملكة بروسربين وقللى لها : تحيات مولاتى فينوس ، وهى ترجو أن تعيدى إليها هذا الصندوق مع شئ من جمالك فيه - ليس كثيراً ، بل ما يكفى ليوم واحد على الأقل ، فقد خسرت بعض مخزونها هى من الجمال نتيجة جلوسها طيلة الليل مع ابنها المريض حتى لم يبق لها الكثير . ثم ارجعى بالصندوق من فورك ، إذ يجب أن أستعمل تراويقها قبل ظهورى فى (المسرح الأولمبي) الليلة» .

بدا الأمر وكأنه خاتمة كل شئ ، إذ أن أوامرها كانت تقضى بالذهاب إلى «العالم السفلى» فى طرطروس . فقد رأت بسوكى أنها كانت مرسله إلى حتفها بجلاء ودون خفاء ، وفى الحال قصدت برجاً سامقاً ، وقد قررت أن أقصر طريق وأسهله إلى «العالم السفلى» أن تلقى بنفسها من أعلى

البرج ، لكن البرج نطق فجأة بلسان بشري : «أيتهما الطفلة المسكينة !» قال :
«هل تنوين حقاً الانتحار بإلقاء نفسك من فوقى ؟ كم أنت متسريعة فى
فقدان الأمل قبيل نهاية امتحانك ! هل تدركين أنك بمجرد خروج روحك
من جسدك تذهبين فعلاً إلى أعماق طرطروس ، لكنك إذا أخذت ذلك
الطريق مرة فلا رجاء فى الإياب أبداً ؟ انصتى إليّ .. إن مدينة لاكيدايمون
الإغريقية الشهيرة غير بعيدة عنا اذهبي إلى هناك حالاً واطلبي أن تقادى إلى
تايناروس ، وهو مكان تجدينه خارج الطريق العامة يقع على شبه جزيرة فى
الجنوب ، ومتى وصلت تجدين أحد منافذ تهوية العالم السفلى ، ضعى
رأسك فيه وسترين طريقاً تمضى إلى أسفل دونما مارة عليها . ادخلى من
المنفذ فى الحال وستقودك الطريق مباشرة إلى مكان بلوتو ، ولا تنسى أن
تأخذى معك رغيفين من خبز الشعير مخبوزين بماء عسلي ، واحداً فى كل
يلا ، وقطعتين من النقود فى فمك .

فإذا ما قطعت شوطاً كبيراً من الطريق لقيت جحشاً أعرج محملاً
بالأخشاب ، وسيطلب منك قائده الأعرج أن تمدي له قطع حبال ليربط بها
قسماً من الحمل الذى أوقعه الجحش . تجاوزه صامته ، ثم أسرعى حتى
تبلغى نهر الأموات ، حيث يطلب منك خارون رسم الدخول ويدخلك عبر
النهر فى قاربه المرقع وسط حشود من الأرواح . ويبدو أن إله الطمع يعيش
هناك ، إذ أنه لا خارون ولا أبوه بلوتو يقدمان شيئاً مقابل لا شئ .
(يتوقع من رجل فقير على حافة الموت أن يعد رسم مروره ، فلو عدم
قطعة نقود منع من الموت الحقيقى ، وترك يطوف كئيباً إلى الأبد على هذا
الجانب من نهر ستوكس) ما علينا .. أعطى الوغد الزنيم إحدى قطعتيك ،
ودعيه يتناولها من فمك لا من يدك ، وبينما تنقلين عبر النهر البطئ الحركة
تطفو جثة رجل عجوز ، سوف يرفع إليك يداً متعفنة ويرجوك أن تحمليه
فى القارب ، ولكن يجب أن تحرصى على ألا تستسلمي لأى شعور

بالشفقة نحوه - هذا ممنوع ، وحين تبلغين الشاطئ تقابلين ثلاث نساء بعيداً عن ضفة النهر ، ينسجن قماشاً ، وسوف يطلبن مساعدتك ، لمس القماش أيضاً ممنوع .

كل هذه الخيالات والرؤى فخاخ نصبتها لك فينوس وغايتها أن تسقطى أحد الرغيفين اللذين تحملينهما ، ويجب أن تعلمي أن في فقدانهما أو أى منهما القضاء المبرم - فهو يعني عدم عودتك إلى هذه الدنيا - بل تقدمينهما لسيربيوس الكلب المتوحش الضخم الجهنمي ذي الرؤوس الثلاثة فوق أعناق ثلاثة تبج كلها في وقت واحد ، ذلك الذى يخيف الموتى ، رغم أن الموتى ليسوا في حاجة إلى تخويله إذ ما هم سوى ظلال ، وليس في قدرته إيذاء الظلال .

إن سيربيوس هذا حارس سرمدى على باب قصير بروسيرين المظلم حيث تعيش هى وزوجها بلوتو في ذاك المكان الموحش . ألقى له بأحد رغيفيك وستجدين من اليسير عليك أن تجتازيه إلى حضرة بروسيرين ذاتها ، وسوف ترحب بك ترحيباً حاراً ، وتقدم لك كرسيّاً ذا حشايا وتحضر لك وجبة شهية ، فاجلسي على الأرض ، واطلبي كسرة خبز عادية ولا تأكل شيئا عداها ، ثم أبلغى رسالتك وستعطيك ما جئت من أجله .

حين تخرجين ألقى للكلب المتوحش رغيف الخبز الباقي رشوة له لكي يسمح لك بالمرور ، ثم ادفعي للمراكبي الجشع قطعة النقود الذهبية الباقية أجرة عودتك عبر النهر ، وحين تبلغين الضفة الأخرى سالمة اتبعي الطريق التى ذهبت منه حتى ترى نجوم السماء المألوفة مرة أخرى . إنذار مهم أخير : حاذري أني تفتحي الصندوق الذى تحملينه أو تلقى عليه نظرة ، فوعاء الجمال السماوى المخبوء ذاك ليس لك أن تطلع على ما فيه .

كان برجاً طيباً ملهماً وقد أخذت بسوكى بنصيحته ، مضت في الحال

إلى تانياروس حيث هبطت الطريق ، مسلحة بقطعتي النقود والرغيفين إلى «العالم السفلى» تجاوزت الرجل والجحش الأعرجين فى صمت ، دفعت لخارون قطعة النقود الأولى ، سدت أذنيها عن صرخات الجثة العائمة ، رفضت الاستجابة لرجاء النسوة الناسجات ، هدأت الكلب المرعب بالرغيف الأول، ودخلت قصر بروسرين ، وهناك رفضت الكرسي الوثير والوجبة المغربية ، وجلست بتواضع عند قدمي بروسرين ، راضية بكسرة خبز عادى ، ثم أبلغتها فى النهاية رسالتها ، فملأت بروسرين الصندوق بتكتم ، وأغلقته ثم أعادته إليها . أوقفت بسوكى نباح الكلب بالرغيف الثانى ، دفعت لخارون قطعة النقود الثانية ، وعادت من «العالم السفلى» وهى تحس بصحة ونشاط أكثر مما كانت وهى فى طريقها إليه . ولما رأت نور النهار مرة أخرى شرعت تصلي بحمد جماله، ورغم أنها كانت على عجل من أمرها لإنهاء مهمتها فقد سمحت لفضولها ، بغباء ، أن يغلبها ، قالت فى ذات نفسها : «أكون غبية لو أحمل ملء هذا الصندوق من الجمال المقدس دون أن أقترض ولو نزراً قليلاً منه لاستعمالى الخاص ، يجب أن أفعل أى شئ ممكن فى سبيل إرضاء حبيى الجميل» .

فتحت الصندوق ، بيد انها لم تر فيه جمالاً ولا أى شئ سواه ، وإنما زحف خارجاً منه نوم ستوجى بالفعل تلبسها ولفها بسحابة كثيفة من النعاس ، فوقعت على الأرض وظلت ممددة كالجثة الهامدة دون حراك ، وإلى جانبها الصندوق .

أما كيوييد فقد استرد عافيته من جراحه ولم يعد يطيق غيبة بسوكى لحظة أخرى ، فطار عبر نافذة غرفته الضيقة حيث سجنته أمه ، وحمله جناحه ، وقد ازدادا نشاطاً بفضل راحتها الطويلة ، أسرع من ذى قبل . ثم هرع إلى بسوكى وأزاح بعناية سحابة النوم عن جسدها ، وحبس السحابة ثانية فى الصندوق . وبعدها أيقظها بوخزة سهم لا تؤلم : «يا فتاتى

المسكينة!« قال لها «ها هو فضولك كاد يهلكك مرة أخرى ، سارعى الآن وأتمى عمل ما عهدت به إليك أُمى ، وسأتكفل ببقية المسائل» ، ثم طار ، ونهضت بسوكى على الفور لتسلم هدية بروسرين إلى فينوس .

أما كيوييد الذى ازداد ولعة ببسوكى وشغل باله اهتداء أمه المفاجئ إلى معنى السلوك المحترم ، فقد عاد إلى ألامعبيه الماكرة ، طار فى الحال بأقصى سرعة إلى أعلى أعالي السماء وألقى بنفسه مبتهلاً عند قدمى جويتر حيث عرض قضيته . قرص جويتر خديه المتوردين وقبل يده .. ثم قال : «يا مولاي الطفل ! إنك لم تعاملنى أبداً بالاحترام الذى قرره لى مجلس الأرباب ، وأنت دائماً ترسل سهامك فى قلبى المقدس ، موطن القوانين التى تحكم العناصر الأربعة وجميع كواكب السماء وكثيراً ما دنسته بمسائل الحب الأنسية المائتة ، مما يخالف قوانين السماء ، ويعارض مرسوم يوليوس عن الفحش ، ويعكر صفو السلام العام ، وأنت تسمى إلى سمعتى وسلطتى بتوريطى فى دسائس حب دنيئة ، وتحول مظهرى المهيب إلى مظهر أفعى أو نار أو حيوان متوحش أو طير أو ثور مزرعة .. لكن مهما يكن الحال لا أستطيع نسيان كيف هدهدتك على ركبتى وكيف يمكننى أن أكون رقيق الفؤاد ، وعليه فسوف أفعل كل ما تطلب ، لكن أرجو أن تدرك وجوب حماية نفسك من (شخص ما) قد يحسدك على زوجتك الجميلة ، وأن تكافئه فى الوقت ذاته على ما سوف يقدمه لك من خدمة . أنصحك إذن أن تقدمنى إلى أية فتاة أخرى ذات جمال باهر حقاً يتفق أن تكون فى مكان ما على الأرض اليوم !» .

ثم أمر ميركورى أن يدعو مجلس عموم السماء مع غرامة تخلف عن الحضور مقدارها عشرة آلاف درهم . وكان الجميع يخشى أن يغرم مثل هذا المبلغ ، فامتلاً المسرح السماوى فى الحال ، وألقى جويتر العظيم من عرشه العالى فى الجمع هذا الخطاب :

«أيها الأرباب المجلون .. أيتها الربات المفخمات .. من أسماؤهم مدونة فى سجل عرائس الفن الأبيض ! إنكم جميعاً تعرفون ذلك الشاب هناك ، وهو الذى ربيته منذ طفولته ، وقد آن الأوان ، فى رأيي ، لأن تكبح طبيعته العاطفية بطريقة أو بأخرى . يكفى تذكيركم بالشكاوى اليومية التى تأتى من تحريضه هذا أو ذاك على الفاحشة ونحوها . حسن .. لقد قررت منع الوغد الصغير من فعل أي شئ من هذا القبيل ، وذلك بتكيله بأغلال الزواج وأن يوثق بها فلا يجد منها فكاكاً ! لقد وجد ، وأغوى فتاة جميلة تدعى بسوكى ، وحكمى أنه يجب عليه أن يملكها ويتزوجها ، ويدللها منذ هذه اللحظة وإلى أبد الأبدين !

ثم التفت إلى فينوس قائلاً : «عزيزتى ! ليس من المناسب أن تحزنى أو تخجلنى من أن تحط ربتك أو مقامك فى السماء قربنة ابنك ، فسأعمل على أن يكون الزواج على أساس التكافل الاجتماعى ، شرعياً تماماً ، ومطابقاً لمطابقة كاملة للقانون المدنى » . قال هذا وأمر ميركورى بإحضار بسوكى على الفور والمثول فى حضرتها ، فلما وصلت أخذ قحداً من ماء الحياة وقدمها إليها قائلاً : «اشربى يا بسوكى وكونى خالدة ! لن يفلت كيوييد من بين ذراعيك بعد الآن ، بل يظل زوجك الوفى إلى الأبد ! » .

عندما مدت مأذبة العرس ، وجلس كيوييد فى الصدارة على كرسى الشرف ورأس بسوكى مرتاح على صدره . من بعده مباشرة جلس جوبتر مع يونو فى نفس الجلسة المريحة ، ثم بقية الأرباب والربات بحسب ترتيب المقامات . وقد قدم لجوبتر رحيق الحياة وطعام الآلهة بيد ساقيه غانوميد ، واهتم باخوس إله الخمر ببقية الحاضرين ، وكان فولكان رئيس الطباقين يومها . أما «الحوريات» فقد زينّ القصر بالورود الحمراء وأزاهير أخرى تصلح للأعراس ، ورشت «الحسان» ماء الزهر ، وشدت «عرائس الفن» بترنيمة العرس يصاحبهن ناي ومزمار من ساتوروس وينيكوس . وأخيراً

ترنم أبوللو وهو يعزف على قيثارته ، وكانت موسيقاه عذبة غاية العذوبة جعلت فينوس تتقدم وترقص بخطواتها الرشيقة أجمل رقص وأحلاه .

تزوجت بسوكي من كيوييد بطريقة لائقة ، وفي الوقت المناسب أنجبت له طفلها .. بتأ اسمها : لذة»

وقفت بجوار الفتاة الأسيرة أنصت إلى هذه القصة الجميلة ، ورغم أن التي روتها كانت عجوزاً ثملة ، نصف معتوهة ، فقد أسفت إذ لم تكن لدي وسيلة ما أسجلها بها كتابةً ♦

هزيمة اللصوص

رجع اللصوص بكمية هائلة من الأسلاب ، وإن كان واضحاً أنها جاءت بعد معركة ضارية ، إذ كان بعضهم جريحاً ، فقرر تضميد جراح هؤلاء على أن يمشوا في الكهف في حين يخرج الآخرون ليأتوا بأكياس أخرى ملأى بالأسلاب كانوا طمروها بجوار البيوت التي سرقوها . وبعد أن نالوا طعامهم قادوني وحصاني عبر الطريق ، وعصيتهم تهبط على ظهرينا ، وأخذوا يقطعون تلاً بعد تل في طريق دائري حتى بلغنا المظمر عند المساء . كنت وحصاني في منتهى التعب بيد أن اللصوص لم يسمحوا لنا بلحظة راحة . حملونا وقفلوا بنا راجعين في سرعة عصبية حتى أنهم ساقوني إلى صخرة ملقاة في الطريق فانكفأت فوقها . هبطت الضربات عليّ ثقيلة متلاحقة ولم أستطع النهوض إذ كانت إحدى رجلي الخلفيتين قد رُضت رُضاً شديداً وكدم حافري ، فصاح أحدهم : « إلى متى نبذر العلف الفاخر على هذا الجحش المتهالك ؟ وما هو الآن يطلع زيادة على ذلك » أجابه آخر : « نعم . لقد جلب لنا النحاس منذ أخذناه .. جُرح عدد من رفاقنا البواسل وعدد آخر مات ، ولم تكن الغنائم طيبة هي أيضاً » .

فوافق قائدهم : « حسن جداً . حالما ينقل هذا الحمل ، الذي يبدو أنه لا يبغي حمله ، سأدفعه في الجرف هدية للعقبان » .
« كلا .. هذه ميتة سهلة جداً لهذا الحيوان » .

وكانوا لا يزالون يتجادلون بابتهاج فى أفضل طريقة لقتلى حين وصلنا الكهف . أنزلوا الأحمال من فوقنا ، ودون أن يقدموا لنا طعاماً أو شراباً أو حتى يتجشموا عناء قتلى ، نادوا رفاقهم الجرحى وعادوا معهم ثانية على الفور إلى المطور ليعوضوا الوقت الذى سبب ضياعه كسلى ، كما قالوا ، وأخذوا معهم حصانى وتركونى .

أزعجنى التهديد بالموت إزعاجاً لا مزيد عليه ، فقلت لنفسى : «لوكيوس ! لم تقف ها هنا مستكيناً تنتظر نهاية سلسلة هذه الأحداث لتنزل بك وتلقى بك فى باطن الأرض ؟ لقد عزم هؤلاء اللصوص على قتلك قتلة شنيعة جداً ، ولن يجدوا عسراً فى تنفيذ وعيدهم .. هل ترى ذلك الجرف بصخوره الناتئة الحادة من جوانبه ؟ حين تدفع فيه سوف تمزق الخواف إرباً . إن السحر الرائع الذى خلب لبك لم يعطك سوى شكل جحش وعنائه ، لم يعطك حتى جلد الجحش السميك ، فجلدك طرى كجلد علقه الخيل . لم لا تكون رجلاً ، فى روحك على الأقل ، آخر الأمر وتنفذ نفسك ما دامت أمامك فرصة لذلك ؟ لقد حانت الآن اللحظة المناسبة - فجميع اللصوص غائبون ، هل تراك تخشى عبوزاً إحدى قدميها فى القبر يمكنك أن تقضى عليها برفسة واحدة من رجلك العرجاء ؟»

«ولكن أنى لى أن أذهب .. بحق السماء ؟» - هكذا تابعت حديث نفسى «من ترى يستضيفنى ؟ .. كلا هذا سؤال أبلى لا يسأله سوى جحش ! أى مسافر لا يسعده امتطاء ظهر دابة ضالة صادفته فركبها ؟» ثم استجمعت قواي كلها وشدت سير الجلد الذى كنت مربوطاً به وانطلقت بأسرع ما تحمّلنى أرجلى الأربع .

كان للعبوز عينان كعيني الصقر ، فالتقطت نهاية السير عندما شددته ، وحاولت بشجاعة أذهلتنى من مخلوقة فى مثل سنها أن تعيدنى إلى الكهف . أشرعت حافري الخلفيين ورفستها فطرحتها أرضاً، غير أنها

شددت قبضتها على السير حتى وهى طريحة الأرض ، فصرت برهة
أركض وأنا أجرها ورائى . لم يكن ثمَّ أحد سوى كاريتى التى خرجت من
الكهف تجرى حين سمعت صرخات العجوز . كان مشهداً فذاً لا بد أن
ديركى كانت تبدو فى مثل هذا المنظر حين ربطها ربيها زيثوس وأمفيون
إلى ذيل ثور هائج انتقاماً من قسوتها ! وقد انتهزت كاريتى الفرصة
بجسارة ، فكّت السير من قبضة العجوز ، ونهنت من سرعة خطواتى ، ثم
امتطنتى برشاقة وبدأت تستحثنى من جديد . قويت رغبتى فى الفرار بعزى
على إنقاذ الفتاة ، كما قويت بضرباتها على كفى . ضربت أربعتى الأرض
كجواد سباق وحاولت أن أرد على كلمات تشجيعها العذبة بالنهيق
المتصل . وكنت أحياناً أدير رقبتى ، متظاهراً بأننى أحك جنبى ، وأقبل
قديهما الحلوتين .

سحبت كاريتى نفساً عميقاً وهى تنظر إلى السماء نظرة اللهفة وشرعت
تدعو : « أيتها الأرباب المباركة ! ساعدنى - أدعوك أن تساعدنى الآن ،
فى هذه الساعة العصيبة ، وأنت يا ربة الحظ القاسية .. أدعوك أن
ترحمينى .. أرجوك ! ألم تكف بما أنزلته بى نكاية ؟ أقسم لك .. لقد
تعذبت كل العذاب » ، ثم مالت برأسها وطفقت تهمس فى أذنى : « أيها
الجحش .. أيها الجحش الأعز ! إنى معتمدة عليك فى سبيل الحياة والحرية ،
لو أعدتني ساعة إلى أبوي وزوجى الرائع لرأيت إلى أى مدى سنمتن لك
جميعاً .. لرأيت كيف نكرمك ! أفضل طعام فى الدنيا لك بمجرد أن تطلبه .
سوف أمشط عرفك وأجدله بيدى هاتين ، ثم أفرق خصل جبهتك
وأجعدھا وأزينها ، وسأنفق الساعات أسرح شعر زيلك الأشعث البائس
الذى طال به الإهمال وأنسقه . سوف أعلق على جسمك كله الرقى ، يا
منقذى ، حتى تشع كسماء ملأى بالنجوم ، وسوف أقودك فى احتفال
النصر وصيحات خدمى ترتفع بتمجيدك ، ساكرمك طيلة حياتى ، آتيك

باللوز وأطياب الطعام كل يوم فى ميدعتى الحرية . لكن .. لا تظنن أن الطعام الفاخر والمتعة الكاملة والحياة الطويلة السعيدة هى كل جزائى لك ، سوف أقيم لك تذكاراً فى بيتى ، لوحة منقوشة تصور فرارانا ، وسأكلف كاتباً ماهراً ليسطر القصة فى كتاب تقرأه الأجيال القادمة . سيكون العنوان - دعنى أفكر - سيكون : (فرار على صهوة حمار !) أو : (كيف نجت فتاة ذات دم ملكى من الأسر !) ليس الموضوع علمياً جداً بالطبع ، لكن سيكون لك مكانك فى التاريخ ، ستكون مثلاً حديثاً يقوى إيمان الناس بالأساطير - أعنى قصة فريكسوس وكيف عبرت الدردنيل على ظهر كبش ، وكيف امتطى أريون دلفيناً ، وكيف وصلت يوروبيا إلى كريت فوق ثور سابح ، وإذا كان جوبتير فعلاً هو ذلك الثور ذا الخوار فلم لا يكون جحشى أنا ذو النهيق أحد الآلهة ، أو لعله إنسان مسحور ! » .

مضت كاريتى تثرثر ، تنهت قلقاً تارة وتدعو رجاء تارة أخرى ، حتى بلغنا مفترقاً فى الطريق شدتنى فيه من مقودى وبذلت جهدها لأحيد يميناً ، أقرب سبيل إلى بيتها . وكنت أعرف أن هذا هو الطريق الذى سلكه اللصوص حين مضوا ليأتوا ببقية السلب ، فرفضت أن أفعل ما أرادت وحاورتها - عقلياً : «يا فتاتى المسكينة ! إنك تسيئين الاستفادة من خدماتى جداً ! ما الذى تحاولين فعله ؟ أترغبين فى الركوب إلى العالم الآخر ؟ سوف تقضين علينا نحن الاثنين معاً لو أخذت تلك الطريق » .

أصرت . قاومت . وفيما نحن نختصم مثل وريثين فى المحكمة يتنازعان حول تقسيم ملكية أرض أو ، إذا شئت ، حول حق شق الطريق ، جاء اللصوص بسلبهم . كان القمر بدرأ فعرفونا من بعد وحيونا بصيحات الضحك الساخر ، وزعق أحدهم : «إلى أين بهذه السرعة على ضوء القمر يا عزيزتى ؟ ألا تخافين الأشباح والأرواح الهائمة ؟ يا لك من ابنة طيبة ، أقسم بشرفى ، تختلسين زيارة مفاجئة لأبويك العجوزين العزيزين !

حسن.. عيب علينا أن ندعك ترحلين وحدك - وعليه فسنأتى معك مرافقين لنريك أقرب طريق !» ثم أمسك بشكيمتى وأدارنى وهو يضربنى دون رحمة بهراوة مثقلة . كان طبيعياً ، وأنا أفكر فى الموت يتهددنى بمجرد وصولى الكهف ، أن تذكرت حافرى المرضوض وشرعت أطلع وأنا أهز رأسى علواً وسفلاً ، فنخر اللص وضربنى بالهراوة ثانية : «إذن أنت تتعثر وتعرج المشى ؟ منذ لحظة كنت تطير مثل بيغاسوس !»

حين بلغنا السور خارج الكهف وجدنا العجوز معلقة من رقبتها فى غصن شجرة سرو ، فأنزلها اللصوص وجروها من نهاية الحبل ودحرجوها فى الجرف ، ثم أوثقوا الفتاة وبدأوا يلتهمون العشاء الذى طهته لهم العجوز الخبيثة (بمهارة جهنمية) كما لو كانوا يتندرون ، وشرعوا يتناقشون - مملوئى الأيدى والأفواه - فى كيف ينتقمون للإهانة التى ألحقناها بهم . وكما يمكن أن يتوقع المرء من جماعة عريضة كهذه اقترحت كل صنوف العقاب ، رغم اتفاق الجميع على قتلنا .

«احرقوها حية» .

«اربطوها لتأتى عليها الوحوش» .

«ماذا لو صلبناها ؟» .

«ضعوها فى سلسلة العذاب المعهودة» .

أخيراً استطاع أحدهم أن يهدئ من هرج رفاقه ليصغوا إليه ، فقال فى صوت رخيم هادئ : «أيها الرفاق ! إن قواعد جماعتنا وسمعتنا تمنعنا من أن ننزل عقاباً يفوق الجرم ، أنا شخصياً أستحى فى هذه الأحوال أن نلجأ إلى الحيوانات المفترسة أو الصلب أو المحرقة أو أدوات تعذيبنا المعهودة ، أو أية وسيلة تؤدى إلى الموت فوراً ، سبيلاً للثأر من إهانتنا ، فاصغوا إذن إلى رأيي ودعوا الفتاة تحيا ، نمط الحياة التى تستحق . تذكرون أنكم قررتم هذا

الصباح أن تقتلوا الجحش ، لقد كان أبداً بهيماً كسولاً لا هم له سوى بطنه ، وقد ادعى العرج وأعان أسيرتنا وساعدها على الفرار . رأيي أن تذبحوه غداً ، بدلاً من إلقائه فى الجرف ، وتبقروا جوفه ، وإذ فضل الفتاة علينا تدخلونها كرشه وتخطيطونه عليها .. أتركوا رأسها وحده خارج أحشائه ويمكن حشو بقية جسمها فى بطن الجحش ، ثم ضعوهما معاً علي صخرة تلهبها الشمس أشد ما يكون . ميزة اقتراحي هذا أنهما سيعانيان كل العذاب الذى جازيتموهما به جزاءً وفاقاً ، سوف يموت الجحش كما استحق منذ مدة ، وسوف تنهش الوحوش رأس الفتاة وتلتهم جسدنا الديدان . سوف تحترق كما لو كانت على المحرقة حين تبدأ الشمس اللاهبة فى شي جيفة الجحش . وحين تبلغ الكلاب والعقبان أحشاءها أخيراً ستتخيل نفسها على الصليب نعم .. انها لطريقة رائعة حين تعدون مزاياها الأخرى ، فهى أولاً سوف تترك لتحيا فى بطن دابة عزيزة ، وثانياً سوف يمتلئ منخارها بالنتن الكريه ، وثالثاً سوف تتعذب جوعاً وعطشاً ، ورابعاً لن تستطيع استعمال يديها لتقصير أمد عذابها بقتل نفسها .

وافق اللصوص بالإجماع على أن هذا هو المطلوب ، وقد التقطت أذنانى الطويلتان كل كلمة ، وفكرت : « آه .. يا جسدى المسكين ! غداً تتحول إلي جيفة ! » .

وحين بلغ الليل آخره وأضاءت الأرض بعربة الشمس الفاخرة وصل رجل إلي الكهف وقف منهكاً عند مدخله . وقد عرفت من تحية اللصوص له أنه ينتمى إلي العصابة ، وبعد أن استعاد أنفاسه قال :

« الأمر على ما يرام بالنسبة لبيت ميلو ، لا خوف علينا من أهل هوباتا ، أتذكرون ما أمرت به بعد سلبكم المكان وعودتكم إلى هنا بالغنائم ؟ كان علي أن أتخلف لأتجسس واختلط بالناس متظاهراً بالغضب لما حدث ، وأرقب الخطوات التى تتخذ لمتابعة السرقة ومعرفة السارقين ، ثم أرجع

إليكم بتقرير مفصل ، وهما هو : الجميع فى هوبانا يتهمون رجلاً يسمى نفسه لوكيوس - واسمه الحقيقى غير معروف - بأنه هو الذى نظم عملية السطو ، وقيل لى ان القضية واضحة تماماً وليست مجرد تخمين . لقد زور لوكيوس هذا رسائل تقديم باعتباره شخصاً عظيم الاحترام واستخدمها ليتسحب إلى ميلو الذى استضافه وعامله كفرد من أسرته ، فقضى وقتاً قصيراً فى بيته وكوّن علاقة مع جاريته وتظاهر بحبّها ، وعرف بدقة أفعال البيت ومزاليجه كلها ، كما عرف أين كان يخبئ ميلو أمواله . وقيل لى إن أمانة مهمة على جرمه اختفاؤه ليلة السطو نفسها وانه لم ير منذ ذلك الحين ويقولون إنه كان من السهل عليه جداً أن يهرب على جواده الأبيض الأصيل الذى اختفى معه أيضاً . وقد أتهم سائسه الذى كان لا يزال فى البيت عند وصول الشرطة ، بأنه ساعد فى الجريمة وفرار سيده ، وأمر القضاة بسجنه ثم بتعذيبه فى اليوم التالى ، وكادوا يقتلونه تعذيباً ، غير أنه فى الواقع لم يقر بشئ يدين سيده ، وقد أرسل تفويض إلى بلد لوكيوس بأوامر للبحث عنه وإحضاره لمناقشة الحساب .

كنت فى أثناء هذا التقرير أئنس فى داخلى وأنا أقارن بين الماضى والحاضر .. ذلك السيد لوكيوس السعيد بهذا الجحش التعس المشرف على النهاية ، وخطر لى أن الحكماء الأقدمين كانوا على صواب حين قالوا عن ربة الحظ إنها عمياء ، بل فاقدة العينين ، لطريقة ثوابها الطالحين أو الأشرار فهى لا تبدى مطلقاً أقل الإدراك فى اختيار من تفضل ، بل الحق أنها تفضل من الناس من لو كانت ذات عينين فى رأسها لارتدت عنهم مشمسة . وأسوأ أخطائها تشجيعها الناس على أن يروا فينا رأياً لا يتفق وطباعاً الحقيقية ، بل يناقضها تمام المناقضة ، فنرى الوغد يتمتع بعيش القديس بينما ينال الرجل الكامل البراءة عقاب الأشرار .. خذ حالتى مثلاً ، يبدو أن ربة الحظ بذلت أقصى الجهد لتحوّلنى إلى حيوان ، دابة حمل ، من أحط

الأنماط، يحسبه أعتى المجرمين - ويا لسوء الحظ ! - حيواناً بشعاً غير جدير بعطفه ، وفوق هذا كله وجدتنى متهماً لا بالسطو على بيت فحسب بل بسرقة مضيئى الكريم - وهى جريمة أنكر تضاهى تقريباً قتل الوالدين ، ولم يسمح لى حتى بالدفاع عن نفسى أو النطق بكلمة واحدة أنكر فيها ما نسب إليّ ، وما دامت التهمة وجهت إليّ فى حضورى فلم أعد أحتمل أن يحسب أحد صمتى تسليماً ضمنيّاً بها أو نتيجة تأنيب الضمير ، كنت أتعذب بالرغبة فى الكلام ولو أن أنطق بعبارة واحدة «هذا كذب !» .

زعت بـ : «ها .. ها» مرة بعد أخرى ، غير أننى وجدت من المستحيل أن أكمل : «ذا كذب !» وأنطق بالجملة ، رغم ما بذلت من جهد لتهتز شفتاى المتدليتان وترتعش بأفصح النطق ... فواصلت دون انقطاع : «ها .. ها .. ها !» ثم ساءلت نفسى : «لم أمض فى شكواي من ربة الحظ ؟ هل ثمّ شئ أبعث على العار من خدعتها الأولى حين جعلتنى رفيق حظيرة ورفيق عمل لخصائى ؟!» غير أن هذه التأمّلات أفسحت الطريق لفكرة واحدة وهى أن اللصوص على وشك التضحية بى واتخاذ جثتى سجنّاً لكاريتى حتى يمنعوا شبحها من مطاردتهم كما كانت ستفعل لو قتلوها قتلاً . فطفقت أردّد النظر مرة بعد أخرى إلى بطنى ، وبدت لى كأنها احتوت فى داخلها الفتاة العائرة الحظ .

فكّ الجاسوس الذى جاء يخبر تهمتى الباطلة خيوط ثيابه وأخرج ألف قطعة ذهبية كانت مخبأة فيها نهبها ، كما أوضح من بعض المسافرين قابلهم فى طريق عودته . أضافها إلى المال المكنوز ، ثم شرع يسأل بلهفة عن بقية رفاقه ، فلما أنبئ بأن بعضهم ، أشجعهم فى الحقيقة ، قتل بطريقة أو بأخرى ، وإن كان قضى ببسالة كبيرة ، اقترح أن يرتاحوا فترة من اللصوصية وينفقوا الوقت فى حملة تجميع رفاق جدد . قال إنه يمكن التأثير فى بعض شباب المنطقة وضمان ولائهم رهبةً ، نتيجة شعورهم بالخوف ، لكن يمكن

اجتذاب البعض الآخر رغبة فى الغنائم ، فيتقدم متطوعاً ، وقسم ثالث يسعده أن يستبدل حياة الدعة والكسل بالانتماء لعصابة تتمتع بالقوة الكاملة تقريباً . وأضاف إنه التقى بشحاذ شاب طويل القامة متين البنية ، وقال له إن من الواجب عليه أن يحسن استخدام يديه بدلاً من مدهما فى طلب الإحسان . لم لا يعين نفسه بهما للحصول على الذهب ؟ إن قلة الحركة جعلته مترهلاً ، ومن المؤسف ألا يستفيد من مزايا الصحة والقوة ما دامتا له ، وبعد نقاش قصير اقتنع الشحاذ بأن يتطوع للخدمة مع العصابة ، وهو الآن ينتظر غير بعيد فى الطريق .

وافق اللصوص جميعاً على الإجازة المقترحة وقرروا قبول القادم الجديد الذى بدا مالكا الصفات المطلوبة ، ثم البحث بعد ذلك عن أمثاله ليعيدوا للعصابة قوتها من جديد . فخرج الجاسوس وآب بعد قليل يصحبة الشحاذ . كان عريض المنكبين بشكل خارق للعادة ، وكان أطول من أضخم اللصوص ، ورغم أن ذقنه كانت لا تزال مجرد زغب فقد كان أوسم الحاضرين دون نزاع ، وقد بدا صدره المتين وعضلات بطنه واضحة من خلال خرق الثياب المهلهلة التى كان يرتديها .

كانت تحيته عندما دخل : « صباح الخير .. أيها السادة ! إن كنتم على أهبة قبولى بحالتى هذه لأنضم إلى جماعتكم فإننى لأفخر بأن أصبح رفيقاً لكم أخدم معكم تحت رعاية الرب العظيم مارس . أنا جسور جداً ويسعدنى توالى الضربات فى المعركة أكثر مما تسعدنى قطع الخشب تدس فى راحتى على سبيل الإحسان . غيرى يخشى الموت أما أنا فأزدريه . لا تحكموا علي بهذه الأسمال ، فلست صعلوكاً ولا متشرداً ، ولكننى زعيم سابق لعصابة لصوص شديدة المراس طالما نهبت وأرعبت مقدونيا . اسمى : هaimوس التراقى - الذى جعل البلاد ترتعد فرقاً ، وأبى كان ثيرو - زعيم عصابة شهير كذلك . رضعت الدم البشرى ، وربيت فى كهف للصوص

وورثت شجاعة أبي واقتنيت أثر خطواته . غير أنني فقدت عصابتي عن آخرها وكل الكنوز الهائلة التي جمعناها ، المشكلة كانت حين غضب مارس مني ، إذ هاجمت أحد كبار عمّال الامبراطور ، وهو حاكم إقليم سابق بمرتبة سنوى مقداره ألفا قطعة من الذهب ، وكان فقد منصبه نتيجة الحظ العاثر ، هل ترغبون فى سماع القصة ؟ » .

« نعم ! إبدأ من البداية يا شاب ! » .

« حسن إذن . كان لهذا العامل تاريخ مشرف فى خدمة الامبراطورية ، وكان الامبراطور نفسه يقدره وتقديرأ عالياً . غير أن خصومه وشؤاً به حتى نفى هو وزوجته السيدة بلوتينا - امرأة مخلصة طيبة جداً مع نفورها من حياة المدينة ، أنجبت لزوجها عشرة أولاد - وتشاركه مصاعبه بصدر رحب . وقبل أن تذهب وزوجها مخفورين إلى ميناء الرحيل قصّت شعرها وربطت أحزمة من النقود الذهبية وأثمن عقودها حول وسطها وارادت ملابس الرجال . لم تخفها سيوف الجند المسلولة وكانت ترعى زوجها خير رعاية ، قاسمته المخاطر وفعلت كل ما استطاعت من أجله وسلكت بشجاعة مسلك الرجل الذى كانت تدّعيه . وقد انتهى أسوأ جزء فى الرحلة حين شاهدوا مدينة زاكونثوس ذات مساء حيث حكم عليهما بأن يقضيا حياتهما فى المنفى ، وأبحرا عبر خليج أكثيوم . هناك أنزلت السفينة ركبها إذ كان البحر متلاطم الأمواج ، وقضى الزوجان الليلة فى بيت صغير على الشاطئ .

كنا قد غادرنا مقدونيا ، واتفق أن كنا نقوم ببعض المهمات فى تلك المنطقة ، فدخلنا البيت الصغير على الشاطئ وجردناه من كل ما فيه وانطلقنا سالمين . غير أن السيدة بلوتينا أطلقت النذير بمجرد أن سمعت صفق الباب وهو يغلّق ، وجرت إلى غرفة نوم زوجها وهى تصرخ بأعلى صوتها ! اللصوص ! اللصوص ! ولم تكتف بإيقاظ حراسها الشاكى السلاح وعبيدها منادية كلاً باسمه ، بل صاحت بالجيران ليأتوا إلى نجدها ، وما كنا

لنتخلص دون خسارة لو لم يرتبك عبيدها ويعمهم الاضطراب وكل منهم يبحث عن مخبأ له .

بعدها عادت هذه السيدة الرائعة - ولن أعتذر عن وصفها بالرائعة إذ أن هذه هي الحقيقة - عادت إلى روما وتوسلت إلى الامبراطور ، وعرضت قضية زوجها أمامه عرضاً ممتازاً جعله يوافق على إرجاعه من منفاه بل وينتقم لما لحقه من أذى . وقد عبر الامبراطور في الحقيقة ، عن رغبته في أن تمحي عصابة هايموس من الوجود ، وتعرفون معنى رغبة القيصصر ! نفذت هذه الرغبة في الحال ، وأرسلت دوريات الجنود وراءنا تطاردنا ليل نهار حتى لم يبق لنا ساق . مُزقت العصابة تمزيقاً ولم ينج منها سوى رجل واحد: أنا ! استطعت أن أتسلل من بين فكى الموت ، وتنكرت كامراًة في ثوب زاهى الألوان ذى تنورة طويلة ، وعلى رأسي نقاب ، وقد ضغطت قدمي في خفين صغيرين أبيضين من تلك التى تنتعلها بنات الأرياف . قفزت فوق ظهر حمار محمل بحزم الشعير وركبته سالماً وسط قوات الحملة المطاردة . لم يكشف أحد تنكرى ، إذ لم تكن ذقنى نبت وقتها وكانت وجنتاى ناعمتين حمراوين كوجتتى صبي . وقد عشت حتى بعد هذا حسب سمعة أبى وسمعتى ، رغم إقرارى بأن تجربتى مع الفولاذ البارد جعلتنى عصبياً نوعاً ما . قمت بغارات متكرراً فى زى المرأة ، بمفردى علي بعض بيوت الريف وحتى بعض القرى المحصنة ، وجمعت هذا المقدار الصغير من الذهب يعيننى على الطريق .

ثم مزق جوانب أسماله وأخرج ألفى قطعة ذهبية وقال : «ها هو إسهامى عن طيب خاطر فى رأس مالكم - سموه بائنتى إن شئتم ، وأنا على استعداد إن قبلتمونى لأن أقود جماعتكم وأتكفل بأن أعطى جوانب هذا الكهف الصخرى بالوواح الذهب الخالص فى أمد قصير » .

لم يتردد اللصوص وانتخبوه بالإجماع رئيساً لهم وأخرجوا له عباءة

نظيفة نوعاً ليرتديها ، فنبذ أسماله وارتدى العباءة ، وعائق رفاقه الجدد واحداً بعد الآخر ، ثم اتخذ مجلسه فوق الحشية عند رأس المائدة حيث بدأ العشاء وأترع الشراب احتفالاً بانتخابه . ثم أخبره اللصوص بأمر الفتاة وكيف حاولت الهرب على ظهرى وعن الحكم الرهيب بالموت الذى أصدروه بشأننا . سألهم عن مكان الفتاة ، فلما أخذوه إليها وألفاها مثقلة بالأغلال انقلبت وعلى وجهه علائم الاستياء وقال : «حتى لو جرؤت على مخالفة قراركم فلست من البلاهة بحيث أفعل . مهما يكن فمن العار عليّ أن أخفى عنكم ما أشعر به نحو الفتاة والجحش وأرانى ملزماً ، باعتبارى رئيسكم ، أن أتخذ ما يصلح لكم مصلحة لي ، فاسمحوا لى بأن أحدثكم بصراحة عما أفكر فيه ، على أساس أن قراركم هو القرار النافذ بالطبع إن رأيتم غير الذى أرى .. فى ظنى إن كان الانتقام وهو سلاح ذو حدين . إن قتلت الفتاة بأن خطمت عليها بطن الجحش قد تشفقون غليلكم لكن ما من نفع تجنونه ، فى حين لو أخذتموها إلى احدى المدن وعرضتموها للبيع فإن فتاة جميلة صغيرة كهذه لا تزال محتفظة بعذريتها سوف تأتى بثمان غال . كثيراً ما عاملت رجالاً كباراً فى عالم تجارة المواخير وأعرف واحداً منهم مستعداً لدفع مبلغ مجز فِعْلاً فى سبيلها ليضعها فى محلّ مناسب ذى مستوى رفيع لن أحسبها تهرب منه . وبذا تحققون انتقامكم أيضاً ، فهى بالتأكيد لن تستمتع بالرق فى ماخور . ولكم الحرية المطلقة الآن فى أن تقرروا ما تفعلون ، ولقد قدمت لكم النصيحة لأننى أراها فى مصلحةكم ليس إلا» .

لقد عرض الشاب الأمر اعتباراً لمنفعة العصابة ، غير أنه بسطه لمنفعتنا نحن أيضاً ، فكانت لحظات التفكير الثقيلة التى تلت عذاباً ممضاً . وأخيراً وافق اللصوص على اتباع نصيحة رئيسهم الجديد وفكّوا وثاق الفتاة على الفور ، وكانت منذ اللحظة الأولى التى رأت فيه الوغد الشاب وسمعته

يذكر تجارة الدعارة والمحل ذا المستوى الرفيع بدأت تنتعش وتعلو وجهها
البسمات . أحسست بأن هذا جاوز الحد فعلاً وكدت أنقلب كارها لجنس
النساء ، فما أشنع أن أرى فتاة صغيرة لا تزال عذراء ، ادعت منذ قليل انها
مغرمة بالرجل الذى كان فعلاً زوجها لتحيا معه أكرم حياة ، تخلص لبها
فجأة فكرة العمل فى ماخور قذر ! كانت أخلاق الجنس الأثوى بأسره فى
الميزان ، وكان الحكم جحشاً !!

قال رئيس العصابة الشاب : «أرى أن ندعو مارس ونتضرع إليه أن
ينيلنا ثمناً طيباً للفتاة ويعيننا أن نحصل على رفاق جدد آخرين . ليس لدينا
- بقدر ما أرى - قربان مناسب ولا خمر كاف لحفل شراب جيد . أحتاج
إلى عشرة شباب يأتون معى إلى أقرب بلدة نحضر منها اللحم والخمر
الذى يعوزنا باعتبارنا كهنة إلهنا مارس» .

انطلق وعشرة من اللصوص ، وما عتموا أن عادوا بقرب ملئت نبياً
وقطيع من الغنم والماعز . وقد اختير تيسٌ ضخّم كثيف الشعر قرباناً للمارس
رب المصارعين واللصوص ، أما باقي القطيع فللمأدبة . وكانت بقية
العصابة قد جمعت الحطب لنار كبيرة وقطعت أعشاباً خضراء للمذبح ،
وعلق الرئيس الحديد قائلاً : «سترون أننى أقودكم فى ميدان المتع كما
أقودكم فى غارات النهب والسلب !» ثم مضى إلى العمل بخفة وأظهر
قدراته المتنوعة بأن كنس أرض الكهف ثم سوى الحشايا ، ثم شرع يطبخ
اللحم ويتبله ، ثم قدمه أخيراً إلى رفاقه على أطباق أنيقة وهو يملأ أقداح
الخمر الكبيرة ويعيد ملأها من جديد ، وكان بين الفينة والفينة يجد فرصة
ليلم بالفتاة ، بزعم إحضار شئ احتاجه من آخر الكهف ، ويأتيها بطعام
اختلسه من المائدة وأقداح من الخمر ، وكانت تقبلها بسرور . وعندما أراد
مرة أو مرتين أن يقبلها كانت فى غاية السعادة ، بل بادلته القبلات بشوق
غامر ، قلت لنفسى : «يجب أن تخجلنى من نفسك ، يا فتاتى ، إذ تطأين

حبك القديم تحت قدميك وتؤدين دور الفاجرة فى وكر اللصوص هذا ! هل نسيت تليوبوليموس المخلص وحفل زفافك المبتور ؟ هل تفضلين فعلاً هذا الغريب ، هذا اللص المتعطش للدماء ، على الرجل الذى كنت ستقترنين به برضا أبويك ؟ ألا يخزك ضميرك ؟ وافرضى أن اللصوص الآخرين ضبطوك تقبلين هذا الرجل ، ماذا تفعلين عندها ؟ أتحاولين مرة أخرى الفرار على ظهري وأن ترسلنى بى إلى الموت من جديد؟ إنك حقاً تعرضين جلدى ، وجلدك أنت أيضاً للخطر إذ تلعين هذه اللعبة الصغيرة!«.

غير أن سخي ما عثم أن فتر حين أدركت ظلمى للفتاة ، إذ فهمت من شئ ما قاله الشاب وبلغ سمعى - ولم يكن بالطبع ليهتم إن كنت سمعته أو لم أسمع - شئ غير مباشر لكنه كاف لأى جحش ذكى أن يفهمه . فهمت أن رئيس العصاة الجديد لم يكن هايموس اللص الشهير بل عريسها تليوبوليموس ! وكان الذى قاله : «تشجعى .. حبيبى كاريتى ! بعد قليل يكون أعداؤك أسرى فى يدك !» وقد لاحظت أنه رغم امتناعه هو نفسه عن الشراب الكثير مضى يقدم للصوص مزيداً من النبيذ ، دون أن يمزجه بالماء بل كان يقدمه إليهم دافئاً ، فبدأوا يسقطون سكارى واحداً تلو الآخر . ولست أدرى - لعله وضع فى شرابهم عقاراً منوماً ، وعندما تمدد الجميع فى سكرهم الشديد على الأرض أخيراً كالأموات شد تليوبوليموس وثاقهم متعاقبين وربطهم جميعاً بالجل كمان شاء ، ثم أركب كاريتى فوق ظهري وانطلق بها إلى أهلها .

ما كدنا نظهر للعيان حتى تدافع أهل البلدة جميعاً نحونا على ترقب - أبو كاريتى وأمسها والأقارب والعقلاء والعبيد . لم يبق أحد إلا وجرى إلينا تعمهم الفرحة ، ثم كونوا مسيرة من خلفنا تتبعهم الجموع نساءً ورجالاً من كل الأعمار . كان المشهد لا ينسى ، عذراء تركب جحشاً بانتصار ! أما أنا

فقد غمرت الغبطة قلبي وقررت وضع نفسى ألصق ما أكون بهذه المسيرة بأن نصبت أذنى ووسعت منخرى وطفقت أنهق بقوة ونشاط . وكان الصوت الذى أطلقته مجلجلاً يشبه هزيم الرعد . وحين بلغنا منزل كاريتى جرت على السلم إلى غرفتها ليحضنها أبواها ويقبلاها ، فى حين أخذنى تليوليموس وعاد بى إلى الكهف مباشرة ، وكأنه معه جمع من رفاقه شبان المدينة وعدد من دواب الحمل . كنت على أتم الاستعداد للذهاب إذ أردت أن أرى لفضولى الدائم ، أى نوع من الأسرى سيكون اللصوص ، فألفيناهم لا يزالون موثقين تماماً بوثاق النوم ورباط الحبال ، وكان الأول أمتن وأقوى . وهكذا اكتسح تليوليموس ورفاقه الكهف ، وحملونا بالغنائم ودحرجوا بعض اللصوص فى هاوية قريبة دون أن يهتموا بفك وثاقهم ، وقطعوا رؤوس الباقين بسيوفهم وتركوا جثثهم ملقاة فى الكهف .

عدنا إلى المدينة منتصرين متهللين بتمام انتقامنا وسلمنا الغنائم إلى بيت المال . وبعدها اتصل حفل عرس كاريتى - الذى توقف فجأة - وانتهى بأن زُفّت إلى بيت تليوليموس . كانت فتاة ممتازة اهتمت اهتماماً كبيراً جداً بشأنى ، كانت تدعونى منقذها ، وقد أمرت ليلة زفافها بأن تملأ مخلاتى إلى حافتها بالشعير وقدمت لى تبناً يكفى لإشباع جمل من بلخ . لكن .. كم من اللعنات الكالحة لى أن أصبّها على يافوخ فوتيس إذ حولتنى إلى جحش وليس إلى كلب صيد ، عندما رأيت كلاب البيت تحشو بطونها حتى توشك أن تنفجر من بقايا اللحم على مائدة إفطار الزفاف الفاخرة ، أو المستلّ من المطبخ !

صباح اليوم التالى ذكرت العروس المشرقة المحيا لوالديها وزوجها مدى ما تحس به نحوى من دين عظيم ، وأبت أن تغير موضوع الحديث حتى وعدوا بمكافأتى بأعظم تكريم ممكن . فدعوا مجلساً من أحكم أصدقائهم وأكثرهم احتراماً ليقرروا نط التكريم الذى أنال . اقترح واحد

منهم أن أوضع فى الاصطبل معفىً من كل عمل وأن أطعم أفخر الشعير والفول والعدس ، غير أن آخر كان أكثر اهتماماً بحبى للحرية ، اقترح أن أطلق فى المروج لأكون أبا عدد من البغال لسيدتى من مهراتها اللاتى يرعين هناك - وكان هذا هو القرار الذى اتخذوه آخر الأمر ؛ فأرسلوا فى طلب القيم على مزرعة تربية الخيول وأسلمت إليه ، مع أوامر مشددة بحسن معاملتى . فرمحتُ فرحاً معه ، تغمرنى البهجة ، ترقباً لخلاصى من الأحمال والأثقال ، وحرىتى فى أن أركض فى المروج حتى يأتى الربيع بأزاهيره فأجد من بينها الورود . وقد خطر لى أنه ما دام سيدى وسيدتى أظهرتا مثل هذا الامتنان لى وأنا جحش ، فلعلهما يظهران امتناناً أكبر حين أستعيد هيئة الإنسان ♦

في مزرعة الخيول

أخذني القيمّ معه إلى مزرعة تربية الخيول على بعد أميال في الريف ، حيث تبين لي أنني لن أنال حريتي ولا شيء آخر من الأطايب التي وعدت بها ، بل العكس تماماً . إذ ربطتني زوجته الشريرة السليطة إلى طاحونة وجعلتني أطحن الغلال للعائلة بالعرق الناضح من جلدى المسكين الذي كانت توالى ضربه بأغصان الشجر ذات الأوراق . ولم تكتف بأن صيّرتني أكدح في سبيل أهل بيتها ، بل جعلتني أطحن الغلال لجيرانها كذلك وتحصل على قدر من المال عن طريق جهدي . بل إنها حرمتني الشعر الذي وعدته وأجبرتني على أن أدور وأدور طاحناً إياه لتبيعه أهل القرية المجاورة ، وكانت تأتيني عند حلول المساء ، وبعد أن أنهك تماماً ، بأقراص من النخالة القذرة تموج بالديدان ، عشاءً لي .

كان هذا أمراً بالغ السوء ، غير أن ربة الحظ لم تلبث أن ابتلنتى بامتحان أشد - وأظنها فعلت ذلك لتسمح لي أن أتباهى فيما بعد (بالسلوك الممتاز في البيت وفي الحقل) كما يقولون ! إذ تذكّر القيمّ على المزرعة الأوامر التي صدرت له ، هو لم يتذكرها بسرعة طبعاً ، أطلق سراحى فترة مع بقية الخيول في المرعى ، ها أنذا حرّاً أخيراً . توائبت جذلاً هنا وهناك وبرطعت في المروج في طريقى إلى المهرات أنفحصها بعناية لأرى أيها كانت الأجمل والأحلى . غير أن آمالى لم تعتم أن تحطمت جميعها حين رُوّعت فحول المزرعة ، وكانت في أفضل حالاتها لطول ما مكثت ترعى الكلاً فلا يمكن

بحال أن ياربها جحش تعيس مثلما كنت ، أقول إن الفحول رُوِّعت بفكرة أن يشوب نقاء القطيع شائبة . فألقت بواجب الضيافة جانباً وأسهرت نحوي بشراسة لتعاملني باعتباري منافساً ممقوتاً . رفع أحدها مقدمتيه الضخمتين وأصلاني بحوافره ، بينما دار آخر من حولي دورتين ثم رفسني رفسة فظيعة بكل ما في رجليه الخلفيتين من قوة ، في حين أطلق ثالث صهيلاً منذراً ، ونصب أذنيه وعضني بأسنانه البيضاء الحادة . تذكرت عندها أسطورة الملك ديوميد التراقي ، ذلك الجبار القوي الذي عرض ضيوفه التعمساء ، شحاً منه بالتأكد ، لهياج الخيول الوحشية ، ليوفر الشعير بإطعام حيواناته الشرهة اللحم النقي .. نعم .. لقد عانيت من الفحول وقتاً عصياً حتى وجدتني سعيداً بالعودة سالماً إلى طاحونة الغلال ، أدور حولها وأدور ويدير رأسى الدوار !

بدت ربة الحظ نهمَةً لا تقنع ، فدبرت عذاباً جديداً لى أدهى وأمر ، إذ خصصني قيم المزرعة لجلب الخطب من قمة جبل عال . ولعل الصبي الذي أوكلني إليه كان أكثر الصبيان شراً على وجه البسيطة ، فهو لم ينهكنى بأن جعل جسدى يتصبب عرقاً صعوداً إلى الجبل ، وهبوطاً منه مذبذباً حوافري على الصخور المدببة فحسب ، بل كان يضربني بقسوة واستمرار حتي كنت أحس بالألم فى نخاع عظامى . كان يضربنى دائماً فى نفس المكان ، على كفلى ، حتى تشقق جلدى وتقيح وظهرت فيه فتحة كبيرة ، أو لعله أخذود ، ومضى يضربه رغم الدم الذى يسيل منه . وكان يكوّم حملاً هائلاً على ظهرى يحسبه من يراه مخصصاً لفيل كبير . وكان الحمل غير متوازن أيضاً ، فإذا ما مال إلى أحد الجانبين عدّله بإضافة أحجار كبيرة على الجانب الأخف بدلاً من أن ينزل بعض الأعواد من الجانب الأثقل ، ولم ترضه مصائبى هذه ، فكان يحفظ قدميه من البلل إذا ما عبرنا مجرىً من الماء بأن يقفز على ظهرى كما لو أن وزنه شئٌ زهيد بالنسبة للحمل الفظيع المكوّم من فوقى !

فإذا حدث أن وقعت على ضفة المجرى المنحدرة لم يكن ليعيننى كما ينبغي أن يفعل - بأن يشدنى من شكيمتى أو من ذيلى أو يزيل جزءاً من حملى حتى أستعيد أرجلى على الأقل - لم يكن هذا الصبى الجحش حقيقة ليفعل شيئاً من هذا مهما بلغت شدة تعبى ، بل يدق شعر جلدى بعصا غليظة بادئاً بعينى حتى ينتهى إلى ذيلى ، فيكون لضربات أثر العقار المنبه !

حيلة شيطانية أخرى كان يلعبها معى بأن يأخذ حزمة من أفضع الأشواك السامة الحادة يجرها ويصلها بذيلى ، فإذا ما مشيت تأرجحت على عقبى وسامتنى سوء العذاب . كنت أجدنى فى مشكلة مرعبة ، إن جرّيت تجنباً لضرباتى شدتنى وخزات الأشواك القاسية ، وإن وقفت لأتفادى الألم أجبرتنى ضرباته دون رحمة مرة أخرى على مواصلة السير . كان يبدو أن هذا الولد الكريه لا يفكر فى شئ سوى كيف يقتلنى بطريقة أو بأخرى ، وكان يحلف أنه سيفعل فى نهاية الأمر . ثم حدث أمر أهاج ذهنه الحيوانى إلى حيوانية أنكى . إذ فقدت يوماً هدوئى فرفعت خلفتى ورفسته ، وكان انتقامه إجرامياً بمعنى الكلمة ، أخذنى إلى الطريق وعلى ظهرى حمل ثقيل من نبات الكتان مربوطاً ربطاً وثيقاً ، وعندما مررنا بمنتجع رعاة سرق جمرأ من موقد ووضعه فى وسط الكتان . نشبت النار فى الأعواد الجافة وارتفع لهيبها يحرق ظهرى ، ولم أرَ سبيلاً ينجىنى من الموت حرقاً . وكان من المستحيل أن أقف ساكناً أفكر فى طريقة أقاوم بها النار . لكن ربه الحظ جاءت إلى نجدتى لتبقى عليّ من أجل مخاطر أكبر ، إذ لحظت غديراً كبيراً وحلا من أثر مطر هطل فى الليلة السابقة ، فاندفعت إليه وتمرغت فيه . انطفأت النار فى الحال وقمت مرة أخرى دون حمل ودون جروح خطيرة . بيد أن الشيطان الصغير ألقى لوم شره كله عليّ أنا . قال للرعاة أننى تعمدت أن أتعثّر بنار عشائهم لكى أشعل النار فى الكتان ، ثم سألهم وهو يضحك : « إلى متى نضيع العلف على هذا الحيوان الجهنمى ؟ ! » .

بعد بضعة أيام فكر فى خطة رهيبة ، إذ توقف عند أول كوخ صادفه وبيع حملى من الخشب ثم قادنى إلى البيت ولا شئ فوق ظهري قائلاً : إنه لم يعد يتحكم فى أحاليلى المعيبة وأنه يأبى أن يأخذنى ثانية إلى الجبل لجلب الأخشاب .. «هل ترون هذا الحيوان الكسول البطئ الخطوات؟ إنه حقيقة جحش ! يكاد يودى بحياتى - إلى جانب ألعبيه الخبيثة القذرة الأخرى ... لعلكم ترون هذا أمراً مضحكاً ، لكننى أشتبك كل يوم فى جملة معارك من أجله ، وسوف أجدنى يوماً متهماً بجرم كبير» وقد روى قصصاً كاذبة أخرى على هذا النسق غير المهدب ، وزاد من استيائى أننى كنت مجبراً على ملازمة الصمت ، حتى استطاع فى النهاية أن يثير الرعاة ، فوافقوا جميعاً على وجوب هلاكى . صاح أحدهم : «نعم ! لم لا نقتل هذا الحيوان المختلط؟ إنه لا يستحق الحياة . هيه .. يا ولد .. اقطع رأس هذا الماجن - هذه فى الحقيقة صفته - وارم بأحشائه إلى كلابنا . لكن احتفظ باللحم لتتعشى به . يمكننا أن نغمر جلده بالتراب ونعيده إلى قيّم المزرعة ونقول له إن الذئب افترسته .. بسيطة .. هيه ؟!»

شرع الصبى يشحذ سكينه على حجر وهو يزوم متوعداً حين تذكر رفستى إياه . بيد أن راعياً آخر قال - قبل أن ينفذ الصبى الحكم : «كلا ! من الإثم قتل جحش بديع كهذا وفقدان خدمته ، لمجرد أنه ماجن لعوب ، ماذا لو خصيناه ؟ بهذا ننهى المشكلة ونهدأ طباعه ويسهل قياده . سوف يسمن ويتحسن حاله أيضاً .. فإذا لم يكن لديكم مانع سوف أذهب إلى السوق لمدة قصيرة ثم أمضى إلى البيت وأحضر أدوات الخصى معى وأنا زعيم بأن أعيده إليكم حيواناً وديعاً كالخروف» .

عندما رأيت أننى انتشلت من بين فكي الموت لكى أعانى عقاباً أشنع لا يخطر على بال شرعت أنتحب فى صمت ... وفكرت مرة أخرى فى الانتحار بأن أجوع نفسى حتى الموت ، أو ألقى بها من جرف كبير . وكنت

مصمماً على أن أموت دون أن يمثل بى على الأقل ، غير أننى لم أكن وصلت إلى قرار عملى صبيحة الغد حين أخذنى الصبى الفطيع إلى مسارى المعتاد نحو الجبل . شدنى إلى فرع شجرة بلوط ضخمة ومضى عني مسافة قريبة ليقطع حملى من الخشب ، فجأة أبرزت دبة رأسها المهول من كهف غير بعيد . كاد المنظر المباغت أن يطير صوايى رعباً ، فتراجعت بقوة مستنداً إلى كفى فانسقط وثاقى . اندفعت هارباً ليس ركضاً على أرجلى فحسب ، بل متدحرجاً علي منحدر الجبل حتي بلغت سفحه ، ولا شئ فى بالى سوى النجاة من الدبة المهولة ومن الصبى الأشد هولاً .

فى تلك الأثناء تصادف أن كان أحد المسافرين ماراً رأى أننى شارد فأمسك بى ووثب فوقى وطفق يضربنى بعصاً فى يده عبر سبيل غير مطروق . حملته مبتهجاً يدفعنى الأمل فى الخلاص من الخصائين ولم أبال بضرباته فقد تعودت على شديد الضربات . بيد أن ربة الحظ السيئة أبداً منعتنى من النجاة بهذه السهولة وأطبقت عليّ فخاً جديداً ، إذ سرعان ما قابلنا الرعاة وكانوا خرجوا يبحثون عن بقرة شاردة . أمسكوا بشكىمتى التى عرفوها علي الفور وشرعوا في جري منها . قاومهم راكبى بشدة وسأل : «لماذا تشدوننى بهذه الطريقة السمجة ؟ ارفعوا أيديكم .. رجاء ! يبدو أنه لا خلاق لكم ولا احترام للقانون !» .

صاح أحد الرعاة باحتقار : «القانون ؟ ! إنك سارق جحشنا .. قل لى أين أخفيت جسد الولد الذى كان يقوده .. قتلتة .. أليس كذلك ؟»

وبضربة واحدة طرحوه أرضاً وشرعوا يركلونه ويلكمونه وهو ملقى على الأرض رغم حلفه على الأيمان الغليظة بأنه لم يرَ معى ولداً ، ثم قال إنه وجدنى ضالاً وأنه أمسك بى وركبنى ليعيدنى إلى أصحابه طلباً للمكافأة . «أقسم بالآلهة أننى أتمنى لو لم تقع عيناي أبداً على هذا الجحش الملعون ! يا ليتة يستطيع الكلام ويشهد ببراءتى ، لو أنه قادر على أن

يخبركم بكل ما يعرف لخلجتم من الطريقة التي عاملتموني بها».

لم يلق الرعاة بالاً لاعتراضه بل قادوه من حبل حول عنقه إلى حيث كان الصبي يحتطب . لم يعثروا عليه فى أى مكان ، وأخيراً وجدوا بقايا وقطعا من اللحم البشري متناثرة هنا وهناك ، أدركت أن هذا من فعل الدبة وكنت بالتأكيد سأنبئ به لو كنت مستطيعاً الكلام ، غير أن كل ما استطعت فعله هو الفرحة الصامتة لشارى الذى تأخر طويلاً . فجمع الرعاة بقايا الصبي ودفنوها . أما راكبي الشهم فقد دعوه «السفاح الدموي» مصرين على أنه قتل الصبي وانهم قبضوا عليه يسرقنى ، وأخذوه إلى قريتهم حيث أوثقوه على نية تقديمه للمحكمة فى الغد بتهمة القتل . بعدها ظهر أبوا الصبي وشرعا يعولان وينوحان ، وكان صراخهما فى قمته حين جاء الراعى الذى وعد بخصيبي يتحرق شوقاً للقيام بهمه .

قال أحدهم له إن الوقت غير مناسب للعمل .. «كلا .. هذا الجحش الوغد ليس مسؤولاً عن فاجعة اليوم ، تعال غداً واقطع رأسه أو ما شئت أن تقطع ، يسعدنا أن نعينك» .

وهكذا أرجئت الكارثة مرة أخرى وأحسست بالامتنان للصبي الذى أكسبنى موته فى الوقت المناسب يوماً آخر على الأقل . غير أنه لم يسمح لى بأن أقضى حتى تلك الفترة القصيرة فى راحة وامتنان ، إذ اندفعت أم الصبي يعلو نواحها إلى حظيرتى . كانت تزعق وتصرخ لنهاية ابنها الفاجعة وهى تقطع شعرها الأبيض بكلتا يديها وتحشو عليه الرماد . ثم شرعت تخبط صدرها وتقول بكمد : «أنظروا إليه ! هذا الوحش عديم الفؤاد .. هذا البطين ورأسه مغروز فى الملعف ! أمن الحق أن يمضى يحشو معدته بالطعام والشراب دون أن يفكر فى المصير الذى حاق بصاحبه ؟ هو لا يهتم مثقال ذرة بمعجوز مثلى . بل له من القحة ما يجعله يحسب أنه سييراً وينجو من العقاب عن جميع آثامه ، هكذا المجرمون .. لا يتوقعون أبداً مهما بكتهم

ضميرهم أن يمسك بهم . باسم الآلهة المقدسة يا أشنع ذوات الأربع - حتى لو كنت قادراً على الكلام ، هل تظن حقاً أنك قادر على اقناع أغبيى الأغبياء بأنك غير مسؤول عن قتل ابنى الغالى ؟ كان يمكنك الدفاع عنه بأسنانك وحوافرك التى طالما هاجمته بها .. فلماذا لم تدافع بها عنه ؟ كان لك أن ترمج به فوق ظهرك وتنقذه من يدى ذلك السفاح الدمويين .. ما أبأس عملك حين ألقيت براكبك - رفيق خدمتك ، قائدك ، صاحبك ، صديقك الطيب الذي كان يطعمك ! ألا تعلم أن تخليك عمن يواجه خطر الموت عمل مناف لجميع مبادئ الأخلاق وجريمة تستحق العقاب ؟ حسن أيها السفاح ، لن يطول مقامك هنا تنفرس فى حزنى وكمدى . سوف أريك أى قدر من القوة يكمن فى صدور المحزونين !» ثم فكت ميدعتها وربطت بخيوطها سيقانى الأربع اثنتين اثنتين أوثق ما استطاعت لتمنعنى من الثأر . بعدها التقت قضيباً كبيراً كان يستخدم لتأمين باب الحظيرة وطفقت تلهبى به حتى اضطرت لألقائه إعياءً ، ثم أسرعرت إلى البيت ، وهى تشكو أن ساعديها تعباً قبل أن تستوفى انتقامها منى ، وأخذت من الموقد عوداً مستقلاً لتحرقنى به . لم يكن لدى من وسيلة للدفاع عدا ما استعملته بعد محاولتى الأولى للفرار ، فجبرتُ رشاشاً من الروث السائل فى وجهها وأبعدتها عنى ننتة عمياء العينين . لو أننى لم أفعل ما فعلت لانتهى الأمر بالنسبة لى كما حدث للمليغر عندما خَطَفَتْ أمه ألثايا الميسم الملهب انتقاماً من قاتل أبنائها الآخرين .

عند اقتراب الفجر وصل أحد عبيد سيدتى ورفيقتى فى العذاب ، السيدة كاريتى ، بخبر يقول انها وزوجها تليبوليموس قد ماتا . كانت قصة غريبة ومفجعة للغاية تلك التى رواها عند موقد النار ، قال : «يا سياس الخيل ، ويا أيها الرعيان ! ماتت مولاتنا المسكينة كاريتى فى ظروف فظيعة ، غير انها لم تمض إلى العالم السفلى بدون رفقة مناسبة كما ستسمعون .

سوف أقص عليكم القصة برمتها منذ البداية ، إنها تستحق فعلاً أن يسجلها من هو أكثر موهبة مني ، مؤرخ عظيم منح نعمة البراعة فى الكتابة بيسر ونثر جميل .

وهذه روايته :

«فى البلدة المجاورة لنا كان يعيش فارس ثرى يدعى ثراسولوس وهو شاب فاسد شغله الشاغل الشراب وارتياح المواخير العامة ، ولعلكم سمعتم به ، وكان على صداقة بزمرة من قطاع الطرق وربما شاركهم أحياناً فى جرائمهم . نعم .. هكذا كان والجميع على علم بهذا ، وحينما بلغت مولاتنا سن الزواج كان ثراسولوس أحد خطابها اللجوجين وقد صمم على الفوز بها ، لكن رغم أنه أكرم منافسيه أرومة وانه قدم لوالديها الهدايا السنية فقد ردّ على عقيبه باحتقار لسمعته السيئة . ثم اقترنت السيدة كاريثى ، كما تعرفون بتليبوليموس ، الرجل الفاضل الجدير بها ، غير أن ثراسولوس أبى ، وقد أهاجه الصدّ وازداد هيامه بكاريثى أكثر من ذى قبل ، أن يهجر كل أمل فى نوالها وتحين الفرصة لارتكاب جريمة دموية . لم يكن يشغل باله أمر آخر ، ومرت فترة قبل أن ينفذ خطته ، ويوم أن تمكن تليبوليموس بالشجاعة والدهاء من أن ينقذ مولاتنا كاريثى من مغارة اللصوص كان ثراسولوس لسان الحشد الذى تقدم بتهانيه . قال إنه جاء ليعبر عن فرحة أهل بلده باجتماع شمل الزوجين الشابين ورجائهم فى زواج مبارك بالرفاد والبنين . وقد أدخله مولاي ومولاتى البيت واحتفيا به احتفاءً يليق بمكانته ، وأخفى هو خططه الشريرة بذكاء حتى صار عندهما بمثابة أعز الأصدقاء . وكان يزداد منهما قرباً بالزيارة تلو الأخرى ، وكثيراً ما دعى للعشاء مما زاد غرامه بمولاتنا المسكينتين .. ولا عجب ، فإن نار الحب تبدأ صغيرة تبعث الدفء ، فإذا ما أرتتها بحضور المحبوب ارتفعت ألسنة لهبها لتحرق دون شفقة . وقد أمضى ثراسولوس زمناً طويلاً يتدبر كيف يبدأ علاقة حب سرية

مع مولاتنا المسكينة ، غير أنه وجد العيون الكثيرة ترقبه ولا تمكنه من ارتكاب الفاحشة ، ووجد السيدة كاريتى جاهلة كل الجهل بفن خداع الأزواج حتى إن تمكن من إقناعها بأن تعطيه ما أراد . ووجدوا وتليبوليموس عاشقين مدلهين مخلصين كل منهما للآخر من رابع المستحيلات التفريق بينهما ، فلم يقدر على شئ . بيد أنه كان يتحرق شوقاً لامتلاكها وأبى أن ينظر إلى الأمر نظرة القنوط رغم كل هذه العقبات الصعبة ، تعرفون أن ما يبدو عسيراً حين يقع المرء فى الحب أول الأمر يغدو فى وقت قصير يسيراً للغاية . هذه ، بالمناسبة ، قصة مفيدة جداً تبين لنا إلى أى مدى تدفع الرغبة العارمة الإنسان .

ذات يوم ركب تليبوليموس وثراسولوس لصيد الوحوش ، إذا جاز أن ندعو الأرانب وحوشاً - فإن السيدة كاريتى تأبى أن يمضى زوجها لصيد حيوان ذى قرن أو ناب . نُصبت شباك الصيد حول تل كثيف الشجر وهيئت كلاب الصيد الأصلية للطراد . كانت كلاباً مدربة تدريباً فائقاً انطلقت فى الحال ولم يكن لكائن أن يفلت منها ، ومضت برهة تتشم فى صمت ، حتى إذا ما دلتى أحدها لسانه أخيراً جلجلت أصوات الموسيقى تملأ الغابة . غير أن الذى بدأت تطارده الكلاب لم يكن أرنباً ولا ظبياً ولا أحد الحمر ولا أيلاً - بل كان خنزيراً برياً مهولاً لم ير له مثيل من قبل ، حيواناً قوى العضل سميك الجلد ، قذراً ، بدا شعره كالقنفذ وقدحت عيناه شرراً . اندفع كالصاعقة يعلو الزبد شدقيه مكشراً عن أنيابه ، وقد حاولت الكلاب أن تمسك به فلم تلبث أن غدت قطعاً ، ثم اندفع يمزق شبكة الصيد وأفلت . لم نكن نحن قوارعى الطبول معتادين مثل هذه الرياضة الخطرة ، ولم يكن لدينا من سلاح أو وسيلة من وسائل الدفاع فتبعثرنا مرتبكين واختبأنا فى الأعشاب الكثيفة وخلف الأشجار ، هنا حانت فرصة ثراسولوس ليلعب لعبة الغدر .. قال لتليبوليموس : « لم نقف هنا وندع ذلك الحيوان

الرائع ينجو ؟ هل هى المفاجأة فحسب ؟ أم أننا خائفان

كأولئك العبيد الأنذال الذين فروا كجمع من العجائز ؟ لم لا نركب ونطارده ؟ خذ أنت الرمح ولاخذ أنا مزارق صيد الخنازير» وهكذا انطلقنا يرمحان فى إثر الخنزير . غير أن هذا كان واثقاً من أنه نذلّ لهما معاً ، فدار حول نفسه ثم وقف يحديق فيهما بنظرة متوحشة مرعبة يعمل فكره بأيهما يبدأ . أرسل تليبوليموس رمحه فأسكنه ظهر الخنزير ، غير أن ثراسولّوس أغفل اتباع رفيقه ورمى ، بدلاً من هذا ، جواد تليبوليموس بالمزراق فضعضه ، وغرق فى بحيرة من دمه متدحرجاً وألقى بصاحبه من فوق ظهره . وعلى الفور هجم الخنزير على تليبوليموس يشق ثيابه ويشخنه بالجراح كلما حاول القيام ، أما ثراسولّوس - ذلك الشيطان - فقد جرى نحو تليبوليموس دون أن يحس بالتدم عما فعل ، وكان هذا بصرخ طالباً النجدة محاولاً حماية ساقيه المطعونتين ، ورماه برمحه . اختار الفخد الأيسر منه ، آمن موضع يضربه إذ يعرف أنه لن يميز ضربته وطعنة ناب الخنزير ، بعدها لاحق الخنزير وقتله دون كبير عناء .

عندما قضى الأمر نادانا ثراسولّوس من مخابئنا فجرينا إليه لنجد سيدنا فارق الحياة . وقد ازدهى ثراسولّوس فرحاً بموت الرجل الذى كان يمقت ، غير أنه أخفى مشاعره وشرع مثلنا يلطم - كنا جميعاً نبكى بحرقة وبحزن حقيقى - وهو يحضن جسد ضحيته ويقبله ويؤدى دور النادب بشكل واقعى ، فيما عدا أنه لم يستطع أن يعترض من جفنيه دمعة واحدة .

انتشر خبر موت تليبوليموس بسرعة وكان أهله أول من بلغهم الخبر ، وحالما سمعت السيدة كاريتي به - ولم تسمع المسكينة خبر سوء أبدأ - جرت عبر طرقات المدينة المكتظة بالناس وعبر الحقول كالسكرى ، وهى تصيح باسم زوجها القتيل ، وقد ولّى كل من رآها وتبعها بصرخات التعاطف معها ، وسرعان ما تدفقت المدينة كلها كالنهر من ورائها إلى مكان

الجريمة . وحين بلغته انكفأت علي جسده الميت تكاد تلفظ أنفاس الحياة التي شاركته إياها ، لولا أن أفلح أصحابها في أن يجروها بعيداً عنه لتظل رغم مشيئتها ، على قيد الحياة .

حسن . نقل الجثمان إلى الضريح وشيعت الجنازة المدينة عن بكرة أبيها . وكان ثراسولوس هناك ، انتحب بصوت عال وأعول وضرب على صدره ، بل نجح في أن يبكي . ترون أن الدموع التي لم تستطع أن تخرج في بدء ادعائه الحزن أعانتها الآن فرحة المناسبة . أخفى مشاعره الحقيقية بكل ضروب عبارات المودة وهو يخاطب تليبوليموس بحنان : « يا صاحبي ، رفيق صباي الغالي ، يا صديقي ، يا أخي .. واحسرتاه يا أخي المسكين تليبوليموس ! » وكان بين الفينة والفينة يمسك بيدي السيدة كاريثي ليمنعها من لطم صدرها وليطامن من شجنها بكلمات العطف المرتعشة ، مستشهداً بعدة أمثال تاريخية عن عدم اليقين في مسألة القدر . لكن هذا لم يكن بالطبع سوى ذريعة ليضع يديه القاتلتين على سيدتنا المسكينة مدغدغاً شهوته الموقوتة .

وما أن انتهت مراسم الجنازة حتى حاولت اللحاق بتليبوليموس في قبره ، ولم تبال كيف تلحق به ، وانتهت إلى أيسر السبل وأقلها عنفاً ، ذلك السبيل الأقرب إلى النوم الهادئ ، أعنى رفضت أن تطعم شيئاً مهملة نفسها مختبئة في غرفة مظلمة مبتعدة عن نور النهار إلى الأبد . لم يئأس ثراسولوس وصار يتوسل إليها ثم يقنع أصحابها وخدمها وأخيراً والديها بأن يتوسلوا مثله حتى أقنعها بأن تنعش جسدها التعيس الذابل بحمام وشئ من القوت . وكانت سترفض هذا لولا احترامها لأبويها ، وظلت نظرتها يملأها الحزن وإن كانت أهدأ قليلاً ، ومضت في دورة حياتها اليومية يحرقها العذاب الباطن . كان الشوق إلى تليبوليموس يأكل فؤادها ليل نهار ، وقد أمرت بأن تحفر صورة الإله ديونوس على ملامحه وتقربت إليها بالتكريمات

القدسية ، فصارت حتى راحة الدين بؤساً خاصاً بالنسبة لها .

لم يطق ثراسولوس الذى يطابق اسمه رسمه - إذ معناه : الاندفاع - لم يطق الانتظار حتى يتلاشى جنون حزنها شيئاً فشيئاً بالاستسلام للقدر وتكف دموعها عن أن تسح . كانت لا تزال فى مرحلة شق الثياب وشد خصل من شعرها حين بدأ يعرض عليها أمر الزواج ، وكانت عجلته غير اللاتقة اعترافاً سريعاً تقريباً بخيانتة المكتومة . صدمت السيدة كاريتى بعرضه الذى نزل عليها نزول الصاعقة حتى سقطت مغشىاً عليها كما لو أنها صعقت أو ضربها شعاع من نجم خبيث . فلما أفاقت وتذكرت ما حدث صرخت صرخة عالية ، لكنها امتنعت عن أن تعطى الوغد جوابه حتى يتيسر لها الوقت الكافى لتدبر الأمر ملياً . وفى تلك الأثناء زارها شبح القتيل وحيدة فى فراشها حين نامت كاشفاً وجهه الشاحب الملطخ بالدم وقال لها : «زوجتى أنا - لن يدعوك هكذا أحد سوى ، إلا إذا قطعت العلائق التى وحدتنا بميتى الفظيعة وأمحت صورتى من ذاكرتك - آه .. إن كان الأمر كذلك فلتتزوجى مرة أخرى بكل ترحيب ، اسعدى ، واتخذي من يرضيك زوجاً لكن ليس ذلك الغدار ثراسولوس . لا تقتربي منه ، ولا تأكلى على نفس المائدة معه أيضاً ، فما بالك بمشاركته فراشاً واحداً ؟ إن يديه ملطختان بدمى .. دم من دعاه أعز الأصدقاء ، هذه الجروح الدامية التى غسلتها بدموعك ليست كلها من فعل أنياب الخنزير ، فإن أعمقها وأفتكها جاء من رمح ثراسولوس» ثم أوضح لها الشبح بالتفصيل كل ما حدث ، وكانت الدموع حين ذهبت للنوم تنحدر على وجنتيها الجميلتين ، فانتفضت من هذا الكابوس يمضها العذاب الأليم ، وانفجرت ثانية تعول من الحزن ، وشقت ثوب نومها وصارت تمزق ذراعيها الحلوتين بأظافرها حتى سالت منها الدماء .

لم تخبر أحداً وقتها بأمر الشبح وتظاهرت بجهلها بجريمة القتل ، غير

أنها عزمت في سرها على عقاب ثراسولوس الكريه قبل أن تحرر ذاتها في النهاية من عبء الحياة الذي لا يطاق . وقد جاءها مرة أخرى بجدد توسله فكانت ممثلة أكثر مما حسب ، رغم صمم أذنيها عند إلحاحه ، وتركته يمضي فيه دون رادع حتى رجته آخر الأمر أن لا يضيف شيئاً . قالت له : أرجوك يا ثراسولوس ! يجب أن تذكر أن محياً زوجي الحبيب الذي كان بمثابة أخيك لا يزال حياً في مخيلتي ، حتى لأكاد أشم رائحة جسده العطرة ، فهو حي في فؤادي . لطف منك لو أتحت لي الوقت حتى أستفيق من صدمة موته وتركت بقية شهور العام تنقضي قبل أن تقول شيئاً آخر . ترى أن زواجنا السريع يسئ إلى سمعتي وهو خطر عليك ، إذ سيحق لشبح زوجي أن يحنق وربما تسبب في هلاكك» . وتعهدت له بأن تزوجه حينما تنتهي مدة النواح . غير أن هذا أيضاً لم يكف ليكيح جماح جشعه وقلة اضطباره ، فشرع يعرض أموراً مسيئة ولم يقابل بالرفض . وآخر الأمر تظاهرت بالاستسلام وقالت : «على أية حال .. هناك شيء واحد أصر عليه ، وهو ألا يعلم أحد في هذا البيت إن ضاجعتك قبل الزواج» .

خدعته تماماً .. فوافق في التو على ليلة الغرام المختلسة ، لكنه ذكر أنه لا يكاد يستطيع صبر الانتظار حتى يهبط الليل ، ولم يكن ليهمه شيء من الدنيا وقتها أكثر من امتلاكها .

قالت له : «اسمع يجب أن تأتي إلى مخدعي عند منتصف الليل ، وحدك ، مستتراً ، لا تحدث صوتاً أبداً حتى تبلغ الباب ، ثم أطلق صفيراً خافتاً وانتظر ، ستكون وصيفتي العجوز جالسة خلف الباب لتدخلك وسوف تقودك في الظلام إلى غرفتي» .

ما كان أطول النهار عند ثراسولوس المخدوع بهذا المزيج من النحيب والهوى الخفيف ! وحين غربت الشمس أخيراً جاء إلى مخدعها كما طلبت منه وتلمس طريقه إلى غرفتها .. «هس .. هكذا قالت له العجوز

التي أمرت أن تعامله بأدب زائد : «هس ..يا سيدى !» ثم جاءت ، دون أن يسمع لها صوت ، بأقداح وكوز نبيد مزوج بعقار منوم ، وقالت له : «ينبغي على سيادتك أن تنتظر قليلاً لو تفضلت ، فقد دُعيت مولاتى لترى أباهما المريض ، لن تجعلك تنتظر طويلاً ، اشرب هذا وتهياً لها حينما تعود» ، لم يرتب فى شئ وشرب القدر وسرعان ما كان يغط فى نوم عميق .

ما أن استلقى على قفاه دون حراك حتى أسرع الوصيفة إلى السيدة كارتى التى دخلت علي عجل بخطوة عازمة وانحنت عليه يرعدها الغضب: «أنظرى إليه» هكذا قالت : «أنظرى إليه - رفيق زوجى الوفى ، هذا الصياد الجسور الذى يظن أنه سيتزوجنى ! أنظرى إلى يده ، التى سفكت دمي ، أنظرى إلى صدره الذى أفرخت فيه عشرات الخدع لهلاكى ، أنظرى إلى عينيه اللتين أتعننى الحظ بأن أحلو فيهما . يبدو أنه حدس المصير المعد له حين قال إنه لا يصبر حتى يهبط الظلام . نم عميقاً ، أيها القاتل ، نم دونما خوف ! لم أجيء بسيف أو رمح ، هل تحسب أننى سأكرمك بميتة مثل ميتة زوجى ؟ كلا .. عينك ستموتان فى رأسك وهو حيٌ ، ولن ترانى أبداً إلا فى الأحلام ، أوه .. سوف أجعلك تحسد تليبوليموس على ميتته ! لن تنظر إلى الشمس أبداً مرة أخرى ، ستحتاج إلى يد لتقودك أينما ذهبت ، لن تضع ذراعيك أبداً حولي ، ولن تحقق الزواج الذى وعدت به نفسك . لن تعرف راحة الموت ولا لذة الحياة بل ستطوف كالروح الضائعة بين العالم السفلى والعالم العلوى ، وستبحث عن اليد التى أعمتك ولن تعرف أبداً - هذا ما ستلقاه أقصى شئ تطيقه - من تنهم بالفعل . إننى الآن مدينة لروح زوجي بقربان شراب من دمك المسفوح من عينيك ، هذا ما سيأخذ بثأره» .

وبعد وقفة قصيرة شرعت مرة أخرى : «يا عجبى ! لم أؤجل الأمر ؟ لم أسمح بهذه الفضلة القصيرة من الزمن قبل أن يبدأ العذاب ؟ لعلك تحلم

الآن بأنك معى فى الفراش ؟ هذا خطير ، فإن اسمى : السم ، هلم .. حان الوقت لتصحو من ظلمة النوم إلى ظلمة أنكى . حان الوقت لأن ترفع وجهك الأعمى وتعرف أننى انتقمت ، وأن تدرك سوء طالعك وتحسب مبلغ مصائبك .

عروس ذات خضر ! أنا ؟! عينك تسحرانى .. هيه ؟! ما أحلى لهب شعلات الزفاف ! ستكون زبانية الجحيم وصيفات عرسك ، وسيكون شاهده العمى ، الحارس الأسود على باب ضميرك المصطخب ! » .

بعد هذه الدفقة من البلاغة سحبت دبوساً نحاسياً من شعرها وصارت تغرزه فى عيني ثراسولوس . ثم تركته هناك ليصحو من نومته المخدرة يمزقه الألم والعمى ، والتقطت سيفاً كان لتليوليوموس واندفعت تجرى به مجنونة عبر المدينة إلى ضريحه . وانطلقنا نحن العبيد فى إثرها نصيح كل منا بصاحبه :

« إنها جنت .. إنها جنت ! خذوا منها السيف بحق الآلهة ! » وقد خرج حشد هائل من أهل المدينة متعثرين من فرشهم والتحقوا بنا . لكنها وقفت عند ضريح زوجها الميت وأبعدتنا عنها بالسيف المسلول .

كنا جميعاً نبكى وننتحب ، فزجرتنا : « ليس هذا أوان الدمع أو الندب ، لماذا تندبون وقد أديت عملاً مجيداً منذ قليل ؟ لقد تأرت لموت زوجى ، عاقبت الرجل الذى دمر زواجنا ، عاقبته كما يستحق ، وعليّ الآن أن أجد طريقى بهذا السيف إلى حبيبى تليوليوموس » .

أخبرتنا بكل شئ عن شبح زوجها وكيف خدعت ثراسولوس ، ثم أغمدت السيف تحت ثديها الأيمن . فسقطت تشخب دماً وغمغمت ببضع كلمات غامضة ، وماتت بنبل كما عاشت . وقد أخذ أقاربها جثمانها على

الفور وغسلوه بعناية وسجوه بجانب محبوبها تليوليموس، واجتمع شمل الاثنين إلى الأبد .

وحين بلغ خبر موتها ثراسولوس لم يجد صورة من صور الانتحار فظيعة بقدر كاف للتكفير عن الكارثة التي سببها ، وقد حدثه قلبه المذنب بأن مجرد الموت على حد السيف طريقة بالغة النقاء ، فسأل أن يحمل إلى الضريح حيث وقف ينتحب وهو يكرر ويعيد : «ها أنا .. أيتها الروحان اللتان ظلمتهما ! جئت دون أن أدعى فى انتظار انتقامكما» . وترك نفسه يموت هناك جوعاً ♦

مع الكهنة الخصيان

كانت دموع الفلاحين المنصتين وآهاتهم تتخلل الرواية الفاجعة عن النكبة التي حلت بسيدهم وسيدتهم . غير أن هذه الدموع والآهات كانت فى أغلبها تعبيراً عن رثاء الذات ، إذ خشوا أن يؤول الأمر بهم إلى الأسوأ إذا ما تبادلت الأيدى العقار . فقررروا جميعاً الفرار ، وجرّد القيم على المزرعة ، ذاك الذى أسلمت إليه بأوامر مشددة بحسن معاملتى ، جرد البيت من كل شئ قيم ، وحملنى وبقيّة الدواب بالأسلاب ورحل على عجل . نساء وأطفال ، وديكة ودجاج ، وإوز ، وجداء ، وكلاب صغيرة - باختصار كل ما لا يقدر على مجازاة الركب - سعيّنا على أقدامنا ، ولم أبال شخصياً بثقل حملى وأنا أحس بالراحة لنجاتى من سكّين الخاصى الرهيبة .

اجتزنا الجبل المشجر والسهل على جانبه الآخر ، وحين استطالت ظلال المساء على طريقنا بلغنا بلدة عامرة رجّانا أهلها ألا نواصل رحلتنا تلك الليلة أو حتى الصباح التالى إذ كانت المنطقة تعج بمجموعات من الدّئاب الضخمة بلغت من الجسارة حد الفتك بقطاع الطرق والمسافرين على الطرقات ومهاجمة بيوت المزارع لا تهاب أهلها المسلّحين كما لا تخشى - بالطبع - قطعانهم . وقد أُنذرتنا بأن السبيل الذى نرغب فى سلوكه مزروع بالجثث نصف الملتهمة والهيكل العظمية وأن علينا التّقدم بكل حذر ممكن ،

والأ نرحل إلا فى ضوء النهار - فكلما ارتفعت الشمس هدأت الذئاب -
وأن غضى فى كتلة متراسة واحدة دون أن يشرد منا أحد .

وعلى كل حال ، فقد صرف أصحابنا الأوغاد الأنظار عن هذا الإنذار
فى خضم عجلتهم العمياء لكيلا يتبعهم أحد ، وحملونا ثانية دون أن
ينتظروا طلوع الفجر ومضوا بنا قدماً . كنت مدركاً الخطر تمام الإدراك ، ولا
أريد أن أجد مخلب ذئب فى دبرى ، فأخذت سبيلي إلى وسط الدواب
بالضبط . وقد دهش الجميع إذ رأونى أسبق عدة خيول ، وليس هذا راجعاً
لشئ سوى خوفى لا إلى خفة طبيعة رجلى . وخطر لى أن ييغاسوس
الشهير لا ريب مر بنفس التجربة ، فالسبب لتسميته (الحصان المجنح) كان
دون شك لرعبه من أن تأكله خيمايرا نافثة اللهب من خياشيمها حتى وثب
إلى عنان السماء ! .

كان أصحابنا قد تسلحوا ، كما لو أنهم ماضون لمعركة حامية الوطيس ،
بالمزاريق والدبابيس والرماح والهراوات . بعضهم التقط أحجاراً من الطريق
وبعضهم حمل خوازيق حادة ، وكان أكثرهم يهز شعلات ملتبهة ليخيف
الذئاب . لم نقصنا سوى صوت البوق لنكون جيشاً يسير ! لكننا لم نر ذئباً
واحداً حتى من بعيد - إما بسبب عددنا الكبير أو للضجة الكبرى التى
أحدثناها بسبب المشاغل . ومن الممكن بالطبع أن تكون الذئاب قد جلت
إلى منطقة أخرى . وهكذا قمنا بهذا العبور الخطير - إذا كان خطيراً كما بدا
وكنا جميعاً بكل تأكيد مرتعبين - قمنا به بأتم سلامة فيما يتصل بالذئاب ،
لكن عندما وصلنا قرية صغيرة كان من الطبيعى للغاية أن يعتبرنا أهلها فرقة
من قطاع الطرق ، وإذ هم فى ذعرهم يطلقون جمعاً من كلاب الحراسة
المهولة ، كلاب متوحشة أشرس كثيراً من أى ذئب أو دب ، وأرسلوها
نحونا تتبعها الصيحات وفى إثرها الصرخات حتاً لها على مهاجمتنا .

اندفعت كلاب الحراسة نحونا وهاجمتنا من كل جانب ، تناهشنا دون

تميز وتطرح الدواب والرجال أرضاً . كان بالتأكيد مشهداً عجيباً رغم أنه يبعث على الرثاء جداً : منظر اقتحام الكلاب حشدنا كله وهى تنهش وتعض أينما اتفق ، تجول وتصول بين الدواب وترضّ من وقف فى وجوهها من الرجال وتعلو أجساد المطروحين مزمجرة .

ثم جاء ما كان أشد وأنكى ، إذ أمطرنا أهل القرية ، المتمركزون على أسطح منازلهم وعلى التل القريب ، بوابل من الحجارة حتى لم نعد نستطيع معرفة ما الأفضل منهما ، الكلاب المهاجمة الشرسة أم وابل الحجارة المتوالى . وقد ضرب حجر رأس امرأة كانت على ظهري فشرعت تصرخ وتعلو تنادى زوجها ، فجرى إليها ومسح الدم عن جرحها وهو يصيح بأهل القرية : « باسم السما .. لم هذا كله ؟ لم تهاجمون مسافرين مساكين كداحين لم يؤذوكم أبداً ؟ أى نوع من البشر أنتم ؟ إنكم لا تسكنون مغارات مثل الحيوانات المتوحشة ولا كهوفاً كالهمج ، فلم تستمتعون بسفك دم الأبرياء ؟ هل تحسبوننا لصوصاً ؟ »

توقف على الفور تقريباً وابل الحجارة ، ونودى على كلاب الحراسة وصاح أحد أهل القرية من مجثمه أعلى شجرة بلوط : « حسن .. حسن ، لسنا قطاع طرق نحن أيضاً ، لا نبغى منكم شيئاً ، خشينا فقط إنكم تهاجمون القرية .. هذا كل ما فى الأمر ، اذهبوا الآن موفّقين ! انتهت المعركة ! »

وهكذا مضينا وقد عُضّ بعضنا وكدمت الحجارة بعضنا الآخر ، وليس منا من لم يصبه الأذى ، حتى بلغنا حرجاً ذا مسارب خضراء بهية وأشجار سامقة أمر فيه القيم بالتوقف للراحة واستعادة الأنفاس . ألقى أصحابنا بأنفسهم على الأرض حيثما اتفق أن كانوا واقفين وتمددوا دون حراك برهة حتى ارتاحوا ، ثم شرعوا يتفقدون جراحهم ، كل منهم يعتنى بنفسه ، يغسلون الدم فى جدول كان يجرى فى الحرج ، ويضعون مختلف الأدوية ،

ثم يضمّدونها ، ويكمّدون الكدمات بالماء .

فجأة ظهر شيخ على قمة التل وقطيع من الماعز يرعى حوله ، حياه أحد أصحابنا وسأله عما إذا كان لديه شئ من اللبن أو الجبن الطازج للبيع ، فهز الشيخ رأسه مرتين أو ثلاثاً قبل أن يجيب : «أنى لكم أن تفكروا فى طعام أو شراب أو شئ من هذا القبيل ؟ ألا تعلمون أى مكان أنتم تنزلون ؟» ثم استدار ومضى بمعيزه .

نبه تساؤله وانصرافه بغتة أصحابنا ، فبدأوا يتساءلون عما فى المكان من خلل . غير أنه لم يكن ثم أحد ليوضح لهم الأمر ، حتى برز شيخ آخر ، كان عجوزاً طويل القامة محنى الظهر يجرح قدميه بمشقة نحونا وهو يتوكأ على عصا . فلما وصل المسرب حيث كنا ننزل وقع أرضاً على ركبتيه وعيناه تذرفان الدموع وشرع يعانق أصحابنا واحداً بعد الآخر متوجعاً : «أتضرع إليكم أيها السادة الذين ساقهم الحظ إليّ وأدعو لكم بطول العمر والصحة والعافية حتى تبلغوا سنى .. أعينوا عجوزاً مسكيناً فقد عزاءه الوحيد فى الحياة ، انقذوا حفيدى الصغير من برائن الموت ! انه صبى عزيز صغير ، كنا نسير معاً عبر الطريق عندما سمع عصفوراً يزقزق على سياج وحاول أن يمسك به ، فسقط فى حفرة عميقة أخفتها الأعشاب النامية الكثيفة وانغرز فيها . أعرف من صراخه انه لا يزال حياً ، لكنكم ترون اننى شيخ عجوز مرتعش لا أقوى على إخراجه منها . يمكنكم أنتم أيها الشبان الأقوياء أن تساعدونى بسهولة ، ارحموا عجوزاً مسكيناً عاثر الحظ ! فإن هذا الصبى آخر من بقى من أهلى على قيد الحياة» ثم طفق يشد شعره الأبيض ، وكان طبيعياً أن تأثرنا جميعاً بتوسلاته ، فقفز أحد الرعاة ، وكان أصغر وأجسر وأشدّ الجماعة ، بل الوحيد الذى لم يصبه خدش فى معركتنا ذات الجانب الواحد ، وسأله عن مكان الصبى ، فأشار الشيخ إلى دغل يبعد عنا قليلاً وقاده حثيثاً نحوه ، وعندما أنهينا - نحن الحيوانات - رعيناً

وأكمل أصحابنا طعامهم وتضميد جراحهم أن الأوان لمواصلة الرحيل . وانطلقت النداءات تدعو الراعى الذى طال غيابه كثيراً ، ولم يظهر أرسل صاحب له ينذره برحيلنا مرة أخرى ، وعاد الرجل على الفور تقريباً صاحب الوجه يرتعش بقصة غريبة باللغة الغرابة ، إذ وجد جثة الراعى الشاب ملقاة على ظهرها ، وقد أكل نصفها ، وأفعى ضخمة ملتفة من حولها ولا أثر للعجوز الشقى .

جلى إذن ان هذا ما عناه الرجل صاحب الماعز ، فقد كان يحذرنا من الهامة المرعبة التى كانت تسكن المسرب . أسرع أصحابنا قدر ما يمكن بمغادرة الموقع المميت ، وهم يلهوننا بعصيتهم ، وقطعنا المسافة التالية من الرحلة بسرعة مضاعفة .

قضينا تلك الليلة فى قرية حدثنا أهلها بقصة مخيفة ، أجدنى ملزماً بأن أضمنها هذا الكتاب إذ هى تتعلق بأثر بشع لا يزال فى الضيعة التى حللنا بها :

تقول القصة إن قيم الضيعة السابق ، وكان مقترناً بأمه ، أحب امرأة حرة من غير بيت سيده واتخذها خدينة له . فلما سمعت زوجته بالأمر جن جنونها ، فأحرق دفاتر حسابات وكل ما احتوته غرفة الخزين ، ولم يهدئ هذا من نائرتها ، فعقدت نهاية جبل حول عنقها ونهايته الأخرى حول عنق طفلها الصغير وبدلاً من أن تقتل نفسها شنقاً اندفعت نحو بئر وجرت وراءها الطفل التعيس . وقد أهم موتها صاحب الضيعة حتى قبض على القيم الذى تسببت خيائنه فى الكارثة وأمر بأن يجرد من ثيابه ويطلق جسده كله بالعسل ويوثق وثاقاً متيناً إلى شجرة تين نخرة كانت تعج بالنحل من داخلها وخارجها . وما أن شم النحل العسل حتى بدأ يجرى فوق جسده والتهمة شيئاً فشيئاً بقضومات صغيرة متوالية لا حصر لها حتى آتى على لحمه وأحشائه وكل ما فيه ، وقد عاش العذاب برهة ، ولم يبق منه من

آخر الأمر سوى هيكله مجرداً ، رأيناه أبيض جافاً لا يزال مربوطاً إلى شجرة التين .

كانت أفئدة الذين حدثونا بالقصة لا تزال مثقلة بهم القيم ، وكنا سعداء بمغادرة القرية البائسة . فارتحلنا طيلة اليوم فوق أرض منبسطة وبلغنا تلك الليلة بلدة رائعة طيبة عزم أصحابنا المتعبون على اتخاذها مقراً دائماً لهم . كانت مكاناً جيداً للإفلات من المطارين وكانت عامرة بالخيرات ، وهناك أذن لنا ، نحن الدواب ، بثلاثة أيام نستعيد فيها قوانا ، أخذنا القيم بعدها لبيعنا .

صاح الدلال بأسعارنا بأعلى عقيرته ، ورغم أن الخيول كلها وجميع رفاقي من الحمير وجدت سريعاً مشترين يدل مظهرهم على اليسر فقد تجاوزتني الأنظار بازدياد أسخطتني الطريقة الفظة التي فحصى بها الناس وتأملوا بها أسناني ليعرفوا كم أبلغ من العمر ، إذ غرز أحدهم أصابعه القذرة الكريهة في لثة أسناني مرة بعد مرة حتى أمسكت بيده بين أسناني وكدت أقضمها نصفين . وقد منعهم هذا من أن يعرضوا لى ثمناً واعتبروني جحشاً شريراً بالفعل . ثم شرع الدلال يرسل كل ضروب النكت السخيفة عني ، وهو يصيح حتى كاد يمزق حنجرتة : «انظروا إليه أيها السادة ! ما معنى أن أطلب منكم عرض ثمن لهذا الحمار الأحمق العجوز الممسوح الحافر ، المضمون الكسل في كل شئ سوى الرذائل ذى الجلد الذى يشبه الغربال ؟ ماذا لو أهديت هذا الحيوان لمن كان منكم لا يهمه تبذير التبن من أجله ؟ ! » وانفجر المتفرجون ضاحكين .

بيد أن ربة الحظ القاسية ، تلك التى أخفقت في إرضائها أو تسكين غضبها مهما بلغ عمق عنائي ، عبست في وجهي مرة أخرى ووجدت لى بالطبع مشترياً يمكنها الاعتماد عليه في إطالة عذابي . كان خصباً عجوزاً أصلع تتدلى بقية من شعره الأشيب في خصل طويلة على عنقه ، واحداً

من تلك الطغمة التي حولت ربة سوريا العظيمة إلى متسولة ينادى بها فى الطرقات من بلد إلى بلد صحبة الصنوج والصاجات . وقد وضع هذا المخلوق الكريه لىبتاعنى ، فسأل الدلال عن تاريخ حياتى ، وأجاب هذا متفكراً : « حصلنا عليه من سوق رقيق كابادوشيا ، إنه شاب قوى رائع كذلك ! » .

« عمره ؟ » .

« خمس سنوات ، طبقاً للمنجم الذى أعلن مولده ! لكن لعل لديه معلومات أدق هو نفسه من المسجل العمومى إذا ما اهتمت بالتشديد عليه ليخبرك بالأمر ! كلا.. يا سيدى ، حتى لا أشوه القانون الكورنلى Cornelian بأن أبيعك عبداً معروفاً بأنه مواطن رومانى يمكننى أن أتخلى عنه . سوف تجده عاملاً نشطاً مفيداً فى الطريق .. لم لا تعرض ثمناً ؟ » .

وقد توالى أسئلة الخصي حتى بلغ النقطة المهمة : هل أنا هادئ فى الركوب أو القيادة ؟ فأجاب الدلال « هادئ ؟ ! هذا ليس جحشاً .. بل كبش القطيع الوديع ، رقيق جداً لتفعل به ما تشاء ! ليس كحميركم العضاضة الرقاسة بل حيوان يجعلك تقسم أنه رجل مهذب أمين متخف فى جلد جحش ، يمكنك التثبت بسهولة ، ارفع ذيله وادفع بأنفك وانظر .. » .

رأى الوغد العجوز أنه يسخر منه وفقد السيطرة على أعصابه فصاح : « عليك اللعنة أيها الدلال المخبول ، يا كتلة من اللحم العفن لا حس لها ! فلتخرج ربة السماء عينيك من محجريهما ، هى والمباركة سازيوس وبيللونا والأم إدوين كذلك ، وفينوس وصاحبها أدونيس ، وبقية الأرباب جميعاً ! ذلك سيوقفك عن السخرية السخيفة منى . هل تحسب أننى أوكل ربتى إلى ظهر أى بهيم حرون ؟ افرض أنه طرحها أرضاً فما الذى

سيحدث لى أنا المسكين ؟ يجب عليّ عندها أن أركض هنا وهناك وشعري
تطيره الريح بحثاً عن طبيب يهتم بكدماتها .

فاجأنتى رغبة ملحة فى أن أشب كالمجنون كى أبعده عن شرائى ، بيد أنه
قطع عليّ الطريق بأن عرض سبعة عشر درهماً وعدّها فى الحال . وكان
القيّم فرحاً بخلاصه منى كما كنت أنا فى قمة الكدر ، فالتقط قطع النقود
وأسلمنى لسيدى الحديد بشكيمتى .

قادنى الخصى ، واسمه فيلبوس ، إلى منزله . ولما بلغ الباب صاح :
« انظروا يا بنات .. أنظروا ! اشتريت لكم خادماً رائعاً جديداً ! » وكانت
(البنات) مجموعة من الكهنة الخصيان المقرزين اندفعوا فى صيحات
مصطنعة وضحكات فرحة مهووسة ظانين أن فيلبوس عنى حقاً ما قال ...
فلما اكتشفوا أننى جحش ولست رجلاً ... شرعوا فى غمرة خيبة أملهم
يطلقون التعليقات الساخرة غير المهذبة ... ثم أخذونى وربطونى إلى
المعلق

فى صباح اليوم التالى تهيأ الكهنة الخصيان للخروج فى جولتهم المعتادة
وقد ارتدوا جميعاً ثياباً ذات ألوان مختلفة وكان منظرهم يبدو كريهاً تماماً ،
وقد لطخت وجوههم باللون الأحمر وطلبت محاجر عيونهم لتبرز لمعان
العيون ولبسوا طاقات مخروطية الشكل وأقيية معصفرة وحللاً كهنوتية
وزنانير من حرير ونعالاً صفراء . وارتدى بعضهم عباءة بيضاء ذات أشرطة
أرجوانية متقاطعة ضيقة . وغطوا الربة بوشاح حريرى ووضعوها فوق
ظهرى ، وأطلق نافخ البوق نفيره ، ويدأوا يلوحون بسيوف وصولجانات
ضخمة ويتواثبون كالمجانين وأزرعهم عارية حتى الأكتاف .

بعد مرورنا بجملّة دساكر وصلنا بيتاً ريفياً كبيراً ورفعوا عقيرتهم
بالصراخ عند بوابته واندفعوا داخلين وهم يرقصون من جديد . كانوا يلقون

برؤوسهم إلى الأمام حتى يهبط شعرهم الطويل على وجههم ، ثم يديرونها بسرعة حتى يصبح الشعر دوائر كالحلقات حولها ، وهم يعضون أطرافهم بوحشية بين الفينة والفينة . وعندما يبلغون الذروة يقطعون أذرعهم بمُدَى حادة كانوا يحملونها وقد أطلق أحدهم العنان لينجذب أكثر من الآخرين ، صعد زفرات حرّى من زعمق أعماق رثيته كما لو تملكته روح الربة وتظاهر بالجنون المطبق . (وهذه فكرة غريبة أن يضعف الحلول الإلهى أو يشوش حواس البشر بدلاً من أن يمدّهم بالخير ، فلو واليت القراءة لرأيت كيف تدخلت «العناية» آخر الأمر لتعاقب هؤلاء المشعوذين) وقد بدأ باعتراف زائف بالذنب وهو يصبح بنغمات كهنوتية قائلاً إنه أخطأ فى حق شرائع ديانته المقدسة ، ثم دعا يديه لتقوموا بالعقاب اللازم له ، وجذب سوطاً من أحد السياط التى كان يحملها هؤلاء المخانث دائماً ، وكان سوطاً ذا جملة أهداب طويلة من الصوف المبروم مربوطة بكعب الغنم ، وشرع يجلد نفسه بشدة ، فصارت الأرض من حوله زلقة من الدم الذى نزفته ضربات المذى والجروح التى سببتها العظام الطائرة ، غير أنه احتمل الألم بصبر عجيب . وقد أشعرنى المشهد بالقلق ، إذ ما العمل لو أصاب هذه الربة السورية الوحش بدم جحش كما تتوحم بعض النسوة بلبن الحمارة ؟!

وأخيراً أصابهم الكلل ، أو رأوا أنهم جرّحوا أنفسهم بما يكفى ذلك اليوم ، فتوقفوا . وتنافس الحشد المجتمع فى متعة إلقاء النقود من جيوب أرديتهم المفتوحة ولم تكن قطعاً صغيرة بل قطع فضة أيضاً ، كما أعطوهم دنّ خمر وجبناً ولبناً ودقيق شعير وحنطة ، دك من منحة شعير لى باعتبارى دابة الربة الخاصة ، وحُشي هذا كله فى أكياس العطايا التى كنا نحملها ، وانطلقت مضاعف الحمل ، وصرت من توى معبداً يمشى وخزانة طعام تسير !

طفنا المنطقة كلها بهذه الطريقة إلى أن جاء يوم ، بعد أن جمعنا عطايا

تفوق العادة فى إحدى القرى ، قرر فيه أصحابى (أو صاحبائى) أن يتمتعوا أنفسهم متعة حقيقية . فأخذوا أولاً كبشاً بديعاً سميناً من أحد الفلاحين بأن حدثوه بنبوءة لغو أو نخوها ، وتعهّدوا بتقديمه قرباناً لتهنئة جوع الربة ، ثم أعدوا كل شئ للوليمة ، وذهبوا إلى الحمام وعادوا بأحد العمال تبدو عليه العافية ، وجلس الجميع إلى المائدة . غير أن الكهنة لم يكونوا طعموا سوى لقيمات من الطبق الأول قبل أن يثبوا ويتجمعوا حول حشية ضيفهم

لم أستطع صبراً وحاولت أن أصبح : «النجدة ! النجدة ! اقبضوا على هؤلاء الخبثاء !» لكن لم يخرج من فمى سوى آخر حرف من الجملة «آ» .. آ .. آ !» يجلبجل ويتردد صدهاء بشكل يحق لكل جحش أن يفخر به .

كان التوقيت مناسباً تماماً ، إذ تصادف أن كانت جماعة من الشباب تبحث عن حمار سرق اللية الفاتئة ، وكانوا يمرون بالخانات واحداً آخر وهو يفتشون الحظائر ، وحدث أن سمع أحدهم نهيقى وظن أننى البهيم المسروق مخفياً فى مكان ما داخل البيت ، فاندفعوا داخلين - على غير انتظار .. وقطعوا حبل الحفل . أيقظوا الجيران وأنبأوا الجميع بما وجده من أمر مقزز ، وشرعوا يحيون الكهنة ساخرين ويثنون على عفتهم الدينية الحقيقية ، وقد انتشر الخبر من فم إلى فم وهاجت مشاعر الجميع ، أما أصحابى فقد جن جنونهم ، فحملوا أمتعتهم ، وغادروا البلدة على عجل عند منتصف الليل .

قطعنا مسافة طويلة قبل ظهور الفجر وعندما أشرقت الشمس ألفينا أنفسنا فى موقع منقطع حيث تشاؤز الكهنة طويلاً وقرروا آخر الأمر ألا يبدوا رحمة نحوى . فرفعوا الربة عن ظهرى ووضعوها على الأرض ، ثم نزعوا شكيمتى وربطونى إلى شجرة وطفقوا يضربوننى بالسوط ذى العظام حتى كادوا يقضون علىّ .

وقد أراد أحدهم أن يقطع عرقوبى بفأس انتقاماً للفضيحة التى نشرتها

عن عفسته ، غير أن الآخرين عارضوه ، لا شفقة منهم عليّ ، بل لأنهم لن يجدوا مركوباً آخر للربة الراقدة إن هم قتلوني . وهكذا أعادوا تحميلي وساقوني وهم يضربونني بجوانب سيوفهم حتى بلغنا بلدة كبيرة ، هناك سمع أحد وجهائها ، وكان رجلاً شديداً التدين ، سمع صلصلة صنجاتنا ودق دفوفنا وصوت البوق الفروجي المجنون ، فخرج للقائنا وعرض ، بكل خشوع ، أن يسكن الربة في منزله . دخلنا جميعاً معها ، بينما كان هو يحاول كسب رضاها بتقديم أعمق تقديس ممكن لها وأفخر القرابين التي أمكنه تدبيرها . وهناك كان لى أن أنجو من أخرج مأزق في حياتي ، وهذا ما حدث :

كان أحد مستأجرى أرض مضيفنا قد هاداه بكفل وعل ضخّم سمين اصطاده هو نفسه . وقد علق الطاهى هيفاستيون الكفل على باب المطبخ قريباً من الأرض وتمكن كلب ضال أن يشده ويحمله ، فلما اكتشف هيفاستيون خسارته ، التي لا يلو من فيها أحداً إلا نفسه ، شرع يبكى بحرقة . ولم يكن ثمّ شئ يمكنه عمله ، كما لم يجرؤ على تصوّر ما سيحدث عندما يطلب سيده عشاءه ارتعب رعباً شديداً حتى دعا ابنه الصغير وقبله قبله وداع رقيقة ثم التقط حبلاً ومضى ليشنق نفسه . سمعت زوجته ، التي كانت تحبه حباً جماً بالخبر المفزع فى الوقت المناسب ، فانتزعت الحبل من يديه وسألته : «هل أنت أعمى يا حبيبى هيفاستيون ؟ هل أربكتك هذه الحادثة حتى لم تعد ترى الباب الذى تركته «العناية» مفتوحاً لك ؟ إن كنت لا تزال تملك ذرة من عقل بعد اكتشافك الرهيب فأرجوك ، أرجوك ، أن تستعملها ! أتعرف جحش الكهنة ، الذى جيء به اليوم ؟ خذه إلى الخلاء واذبحه ، ثم اقتطع كفلاً كذلك الذى فقدته ، واطبخه حتى ينضج تماماً وأخف طعمه بأقوى التوابل وقدمه على أساس أنه كفل الوعل على مائدة السيد» .

عمت الفرحة الطاهى الخبيث بأمل انقاذ حياته على حساب حياتى ،
ودعا زوجته بأنها أذكى امرأة فى الدنيا ، ثم شرع يشحذ سكاكين مطبخه .

مر الوقت . لم يكن بمقدورى أن أمكث حيث كنت وأدبر خطة لإنقاذ
نفسى . قررت النجاة من السكين التى أحسست بها قريبة جداً من حلقي
بأن أهرب على الفور . فقطعت مذبذوى وركضت بأسرع ما حملتني
أرجلى غير ناس أن أرفس بحوافرى في أثناء ركضى ، اندفعت كالسهم
عبر أول ممر ، ودخلت جرياً غير متردد غرفة الطعام حيث كان رب البيت
يؤاكل الكهنة لحم قربان ، فأوقعت عدداً كبيراً من الأطباق وُحطمت بعض
الموائد كذلك ، وقد أزعجه دخولى الوقع أشد الازعاج وكذا ما سببته من
ضرر ، فصاح بعبدائه : «أبعدوا هذا الحيوان النطاط ، أو صدوا عليه مكاناً
حصيناً لا يكدر فيه لهوه هدوء ضيوفى» ، أما وقد أنقذنى ذكائى من
السكين فقد كنت فرحاً بالفعل أن يقفل الباب عليّ بأمان .

لكن ، لا فلاح لأحد مهما بلغ من الحكمة إذا قررت ربة الحظ غير ذلك .
لا يمكنه أبداً أن يلغى أو يعدل مصيره الذى قدرته له «العناية» . إن حيلتى
التي بدت وكأنها أنقذتني من الموت العاجل أسلمتني إلى خطر آخر كاد
يأتى علي ، فقد اندفع أحد عبيد البيت ، كما علمت فيما بعد ، إلى غرفة
العشاء يرجه الرعب يخبر بأن كلباً مسعوراً دخل البيت منذ قليل من باب
خلفى كان يطل على زقاق ، فهجم فى البداية على كلاب الحراسة هجوماً
ضارباً ، ثم دخل الحظائر أينفس عن هياجه فى الخيول ، ثم ختم بالعبيد
أيضاً . عض مورتيلوس البغال ، وهيفاستيون الطاهى ، وهوباتاريوس
الساقى ، وأبوللونىوس طبيب البيت ، وعدداً كبيراً آخر من الحشم الذين
حاولوا إخراجه من البيت . وقد شرعت علامات السعار تظهر على بعض
الدواب التى عضها .

أصاب الخبر جميع الحاضرين بالفرع وحسب أصحابى الكهنة من

سلوكى الوحشى أن العدوى أصابتنى أنا أيضاً ، فأمسكوا بكل ما كان فى متناول أيديهم من سلاح وهم يتصايحون بهوس : « اقتلوه .. اقتلوه بحق الأرباب ! » حقيقة .. كانوا هم المجانين ولم أكن أنا ، وكانوا بكل تأكيد سيقطعوننى إرباً بالمراريق والرماح والفؤوس التى دفع بها العبيد فى أيديهم لو أننى لم أستشعر ريح الخطر وأفلت قبل هبوب العاصفة فخرجت من الغرفة التى أودعت فيها واندفعت إلى غرفة النوم المخصصة لأصحابى . خافوا أن يتبعونى فأوصدوا الباب من ورائى ووضعوا حارساً طيلة الليل خارجه على أمل أن يجدونى ميتاً فى الصباح ، بدلاً من أن يشتبكوا معى فى القتال ، نتيجة الداء الرهيب . حسن .. لقد أقفل الباب على ، لكننى أخيراً وجدتنى وحيداً أتمتع بحريتى فانتهزت هذه الفرصة المباركة التى منحتنى إياها ربة اللحظة وتمددت على السرير أنعم بما افتقدته زمناً طويلاً ، نوماً طيباً بالطريقة الإنسانية .

كان ضوء النهار قد انتشر عندما صحوت ، فنهضت متعشاً بعد ليلتى الرائعة وسمعت أصحابى يتجادلون خارج الباب . كان أحدهم يقول : « لكن يا ودّى ، لا يمكن أن يظل الحيوان المسكين مسعوراً حتى الآن بالتأكد؟ إننى واثق من أن الجرثومة خرجت وتركته على أطيب حال كالعهد به » .

« أوه .. لكن يا ولدّى لا أقدر على مخالفتك أكثر مما فعلت ! » وقرروا أن يبصوا من شق فى الباب ، فأرونى أقف هادئاً وديعاً مثلما كنت . تجرأوا على فتح الباب ليتفحصونى عن قرب ، واقترح أحدهم ، عينته السماء ليكون منقذى ، طريقة بسيطة لمعرفة ما إذا كنت مسعوراً أم لا ، وهى أن يوضع إناء مليء بماء رائق أمامى ، فإن شربته دون تردد كالعادة كان هذا دليلاً مؤكداً على أننى لا أزال فى تمام الصحة ، أما إن تراجعت فى رعب ظاهر فهذا يعنى أننى لا أزال فى قبضة الكلب . وقال إن كتب الطب

المعتمدة توصى بهذا الاختبار وانه رآه جُرب فصَحّ مراراً .

وافقوا جميعاً وأتوني على الفور بإناء كبير مليء ماءً صافياً رائقاً من أقرب نافورة ووضعوه أمامي ، وهم ممسكون بأسلحتهم بقوة . كنت أشعر بالظماً الحارق ، فمضيت ثابته إلى الإناء وأدخلت فمي كله فيه وشربت كل قطرة من الماء ، وهو ما أصلح حالى بأكثر من وجه . ثم وقفت هادئاً وسمحت لهم بأن يربتوا علي ويخبطوا أذنى ويقودونى هنا وهناك من مقودى ويفعلوا بى ما يشاءون لكى أقنعهم بأن الأمر كله مجرد خطأ وأننى دابة ذلول وأن رأسى تتمتع بتمام العافية .

فى اليوم التالى ، وهذان الخطران العظيمان من ورائى ، حُمِلت من جديد بمتاع الربة وسرنا نساوق صوت الصنوج والصاجات فى جولات تسوّلنا المعتادة . مررنا ببضعة دساكر ومراكز حربية وأتينا قرية قال لنا سكانها إنها بنيت على آثار مدينة قديمة شهيرة ، فنزلنا أول خان بلغناه حيث سمعنا حكاية جيدة عن أحد القرويين ، وكان رجلاً فقيراً خدعته زوجته أكبر خدعة ، وأحب أن تسمعوها أنتم كذلك .

طيب .

كان هذا الرجل يعيش على كسبه القليل من عمله حداداً بالقطعة ، ولم تكن زوجته تمتلك شيئاً هى الأخرى غير انها امرأة فاجرة للنفاية . وما أن مضى الرجل إلى عمله ذات صباح باكراً حتى دخل أحد عشاق زوجته البيت ... وحدث أن عاد الحداد الطيب ، فوجد الباب موصداً فهز رأسه مفكراً - ما كان أظهر زوجته لتستحوط هكذا ضد من يتلصص عليها ! ثم صفر من تحت الطاقة كعادته ليعلن عن عودته . كانت زوجته امرأة واسعة الحيلة ... فأخفت عشيقها تحت قصعة فى ركن الدار . كانت قصعة وسخة بالية وفارغة ، ثم فتحت الباب وبدأت تعنف زوجها: «أنت أيها الكسول !

تعود إليّ متسكعاً كالعادة صفر اليدين فارغ الجيوب ! متي تبدأ العمل لمعاشك وتأتى البيت بشئٍ تأكله ؟ ماذا عنى .. هيه ؟ أجلس هنا كل يوم من الفجر حتى الغروب إلى مغزلى حتى أكاد أذيب أصابعى ولا أكسب سوى ما يكف يزيت القنديل ، ما أبأس هذا الجحر ! أود لو أننى صاحبتى دافنى ، تستطيع أن تأكل وتشرب طيلة اليوم ...»

صاح الحداد وقد جُرح شعوره : «هيه .. ما هذا كله ؟ ما غلطى إذا كان على متعهد العمل أن يقضى اليوم فى المحكمة ويسرحنا حتي الغد؟ ولا تظنى أننى لم أفكر فى عشاءنا . هل ترين تلك القصعة العتيقة عديمة النفع التى تزحم دارنا الصغيرة ؟ لقد بعته لرجل بخمسة دراهم ، سيأتى بعد قليل ليدفع المال ويحملها ، فأعيننى إذن لأخرجها له .»

لم تتلجلج مطلقاً ، وفكرت بسرعة فى خطة تهدى بها ما قد يثور لديه من ريب ، ضحكت بطريقة فجأة وقالت : «يا سلام ! يا لك من زوج رائع ! وما أشطره فى المساومة ! يخرج ويبيع قصعتنا بخمسة دراهم ، أنا لست إلا امرأة لكننى بعته بسبعة دراهم دون أن أخرج قدماً من الدار !»

غمرت الفرحة الحداد : «من الذى أعطاك هذا الثمن الطيب ؟»

«هس .. صه أيها الغبى ! انه لا يزال داخل القصعة يتفحصها ليرى إن كانت تستحق الثمن»

التقط عشيقها الإشارة على الفور فبرز من القصعة وقال : «أقول لك ، يا سيدتى ، إن قصعتك عتيقة جداً ومشقوقة من عدة أماكن» ثم استدار إلي الحداد وقال : «لست أدري من أنت ، أيها الرجل القميء غير أننى أشكرك لو قدمت لى شمعة ، يجب أن أحك داخل القصعة لأرى إن كانت ما أحتاج إليه . ليس لدى نقود أرميها ، فهى لا تنمو على شجر التفاح هذه الأيام .. هيه ؟!» .

أوقد الحداد المغفل شمعة دون إبطاء وقال : « كلا .. كلا يا صاحبي ، لا ترهق نفسك هكذا ، انتظر قليلاً ريثما أنظف القصعة تنظيفاً جيداً لك » ثم خلع عباءته ، وأخذ الشمعة ، ورفع القصعة وقلبها ثم دخلها وانشغل بالعمل .

..... ثم دفع للحداد دراهمه السبعة ، وإن كان عليه أن يحمل القصعة على ظهره إلى بيت عشيق زوجته !

مكث أصحابي بضعة أيام في ذلك المكان حيث كان الناس معهم في غاية اللطف ، وقد جمعوا على الأخص ما لا كثيراً باحترافهم قراءة الغيب ، وكان هؤلاء المدلسون الأتقياء قد ألفوا فيما بينهم على أفواههم باسم الرببة كهانة تصلح لكل الأغراض ، وخدعوا بها كثيراً ممن جاءوا يستنصحونها حول مختلف الشؤون . تقول كلماتها :

« ضع النير في عنق الثور واحرث الأرض يرتفع القمح الذهبي ويحصل الغرض »

فلنفرض من أن رجلاً جاء يسأل الرببة إذا كان عليه أن يتزوج ، الجواب واضح ينبغى له أن يضع النير حول عنق الزوجة وينال حصاداً طيباً من الأولاد ، فإذا شاء نصحاً في شراء أرض : يؤدى الثور ذو النير والقمح النامي المهمة خير أداء ، فإن كان الأمر يتعلق بسفر في عمل ما : ينبغى أن يربط الثور ، وهو أقل الماشية هدوءاً ، ويشير القمح الذهبي إلى عودة حميدة . أما إذا جاء السؤال من جندي أخطر بمهمة خطيرة أو قائد عسس أمر بمطاردة اللصوص فقد كان الكهان يفسرون النبوءة بأنها تعنى أن عليه وضع رقاب أعدائه في النير وانه سيجنى حصاداً وافراً إذا حان وقت تقسيم السلب أو الغنيمة بين المنتصرين .

ولقد جنى الكهان بكل تأكيد حصاداً وفيراً بهذه الطريقة غير الآمنة فى التنبؤ بالغيب ، ثم أصابهم الكلل ذات يوم من هذه الاستفسارات الدائمة التى لم يكن لديهم سوى جواب واحد جاهز لها . وهكذا ارتحلنا من جديد عند هبوط الليل . كانت رحلة أسوأ بكثير من تلك الرحلة التى أخذنى فيه قيم المزرعة ، إذ كانت الطريق ملاءى بالحفر العميقة والأخاديد الممتلئة ماءً حتى حافتها ، وكانت مغطاه فى بعض المواقع بوحل لزج وكنت بلغت أخيراً قطعة من طريق صلد ، مرهقاً مكدوم الأرجل من كثرة ما وقعت ، حين برز لنا جمع من الفرسان المسلحين بغتة ، أمسكوا بأعنة خيولهم ثم أمسكوا بخناق فيلبوس وأصحابه وبدأوا فى لكمهم بقبضات أيديهم : «خذ هذه ، وهذه ، وهذه !» وقد علا صياحهم : «أيها الأشرار الأنجاس !» ثم أوثقوهم وسألوا : «أين قدح القربان الذى تجاسرتم على سرقة من معبد يونو متذرعين بأداء طقوس قدسية خلف الأبواب المغلقة ؟ أملتُم أن تنجوا من العقاب على إثمكم بتسللكم من المدينة قبل ظهور النهار .. أليس كذلك ؟» .

وفى هذه الأثناء جاء إليّ أحد الفرسان الخيالة ، ووضع يده فى جيب رداء الربة وأخرج القدح المفقود وأمسك به عالياً ليراه الجميع . غير أن هذا البرهان الساطع على السرقة أيضاً لم يسبب لهؤلاء المخاليق الكريهين أى حرج ، إذ قلبوا الأمر كله مزحة وصاحوا : «يا للحظ العاثر ! أليس هذا من جملة الحوادث المؤسفة التى تحدث للمشرفاء مثلنا ؟ ها نحن - سدة الدين - نجد أنفسنا مهددين بالموت من أجل قدح صغير حقير أعطته يونو تذكيراً لأختها الربة السورية !» .

مهما يكن الأمر ، فقد أعيّدوا وأودعوا سجن البلدة جزاء أكاذيبهم وبهتانهم .. ووضع القدح والتمثال المقدس اللذان حملتُ بكل احترام ، فى معبد يونو ، وفى اليوم التالى اقتدتُ ووضعت فى يد الدلال ♦

في الطاحونة

اشتراني خبّاز من القرية المجاورة بثمان يزيد سبعة دراهم عما دفعه فيلبوس ، وأخذني محملاً إياي بكيس قمح ثقيل كان اشتراه ، عبر طريق مليء بالحجارة وجذور الأشجار إلى مخبزه الذي كان طاحوناً أيضاً .

كان هناك عدد كبير من الدواب لجر الأرحاء الكثيرة طيلة الليل والنهار ، إذ لم تكن الطاحونة لتتوقف أبداً . وقد عاملني بما ينبغي أن يعامل القادم الجديد بأن أعطاني معلفاً مليئاً وإجازة كذلك ، وفي ظني أنه لم يرد أن يشبّط همتي بأن أعرف على الفور ما كان في انتظاري غير أن فرصة الخلو من العمل ووفرة الطعام لم تدم أكثر من اليوم الأول ، إذ ربطت في اليوم التالي إلى ما بدا لي أضخم رحيّ في الطاحونة وغطيت عياني ووُضعت في طريق دائري صغير ، وكان عليّ أن أدور وأدور دون توقف . أما وأنني لم أفقد فطنتي بعد فقد أبيت أن أقبل هذا النظام دون اعتراض ، وعلى الرغم من أنني طالما رأيت أدوات كهذه تعمل من هذا النوع ، حين كنت إنساناً ، وانني أدركت رحيّ أصغر من هذه في بيت زوجة قِيم المزرعة ، فقد أدعيت الجهل المطبق بواجباتي ووقفت جامداً مكاني كما لو كنت مصاباً بدوار .

تصورت انهم سيسندون إليّ عملاً آخر أقلّ عناءً إذا ما رأوا عدم صلاحيتي لجر الرحا ، أو ربما يطلقونني في المرعى . بيد أن ذكائني زاد عن حده ، إذ بينما كنت واقفاً معمى العينين غير منتظر شراً جاء جملة رجال يحملون عصياً . صاحوا فجأة - بإشارة معينة - وبدأوا يلهبونني جلدًا ، أربكن

الصوت والهجوم المباغت ، وبدلاً من أن أقف متديراً ما ينبغي على عمله ارتفع لهائى بحبلى المشدود وانطلقت أركض بنشاط ، وانفجر الجميع ضاحكين من تغير سلوكى المفاجى .

وحين قرب النهار على نهايته ولم أعد أقوى على المضى خطوة واحدة من شدة التعب فكوا رباطى وأعادونى إلى معلقى . كنت على وشك الإغماء جوعاً وكلاً وفى أشد الحاجة إلى الراحة ورغم هذا فقد جعلنى الخوف والفضول أهمل ما قدموه لى من طعام - وكان الطعام كثيراً - لا تأمل الحياة فى تلك الطاحونة الكريهة بفزع مفتون . أيتها الآلهة ! ما كان أقماً تلك المخلوقات التى كانت ترعانا ! كانت جلودهم تبدو ندوبها من آثار الجلد كما لك أن ترى بسهولة من خلال ثقب قمصانهم المهلهلة التى تنفض أكثر مما تستر ظهورهم ذات الندوب ، وكان بعضهم لا يرتدى غير مئزر . كانت جباهم ورؤوسهم نصف المحلوقة تحمل حروفاً وُسِّموا بها وفى أقدامهم الأغلال . كانت وجوههم صفراء صفرة مفزعة ورموشهم معبونة بدخان أفران الخبز ، وعيونهم عمشاء ملتعبة حتى لا يكادون يبصرون من خلالها ، وقد علاهم الغبار كمصارعى الحلبة ، غبار الدقيق وليس غبار التراب .

أما رفاقى الدواب فىا لها من سلسلة من البغال الهرمة والحمير المخصية ! ويا لها حين دلت رؤوسها على أكوام التبن ! كانت رقابها مغطاة بالقروح ذات الصديد ، وكانت تكح دون انقطاع وأنفاسها تنز عبر خياشيمها . كان لحم صدورها بادياً لكثرة سجع الجبال عليها ، وقد برزت أضلاعها من جلودها المشققة لكثرة الضرب ، واستطالت حوافرها حتى كادت تشبه النعال لطول مشيها الأبدى تدور وتدور حول الرحى . وكانت تعاني من الجرب !

أصابتنى حال هذه الدواب المفزعة بالكآبة ، ولعننى سوف أكون شبيهاً

بها عما قريب ، حتى دلّيت رأسى مثلها وأنا أتخسر لما انحدرت إليه من مهانة منذ تلك الأيام البعيدة عندما كنت السيد لوكيوس . وكان عزائى الوحيد تلك الفرصة الفريدة التى أتاحت لى لأرقب كل ما كان يقال أو يفعل من حولى ، فما من أحد أبدى تحفظاً ما فى وجودى . لقد كان هوميروس محققاً حين شخّص أوديسيوس ، ذاك الذى قدمه مثلاً للحكمة الرفيعة والفتنة الفائقة ، باعتباره (من زار مدناً عديدة وعرف شعوباً مختلفة) وإنى لأشعر بالامتنان كلما تذكرت تلك الأيام ، فقد زادت مغامراتى الكثيرة ، متنكراً فى شكل جحش ، من خبرتى زيادة واسعة ، حتى وإن لم تعلمنى الحكمة . وفى هذه الطاحون التقطت حكاية أمل أن تمتعكم كما أمتعننى.

كان الخباز الذى اشتترانى رجلاً طيباً ، لكنه غير موفق فى زواجه ، فقد كانت زوجته أشراً امرأة لاقيتها فى رحلاتى كلها وهى عاملتنى بشكل سئ حتى كنت أنوجع فى سرى شفقة له . لم تكن ثمّ رذيلة واحدة لا تتصف بها . كان قلبها خزاناً أفرغت فيه كل ضروب المجارى القذرة . كانت خبيثة قاسية القلب ، حقودة ، شهوانية ، سكير ، أنانية ، عنيدة ، دنيئة فى سرقاتها الحقيرة كما كانت مسرفة فى عربدتها ، عدوة لكل ما هو صادق وطاهر ... كانت تبدأ يومها مبكرة بالشراب ، وتقضى الوقت كله داعرة ، وقد خدعت الناس كلهم ، بما فيهم زوجها ، خداعاً كاملاً .

كانت هذه الكلبة تمقتنى مقتاً لا تفسير له وتضطهدنى بغلّ عجيب . وكان من عاداتها أن تصيح من فراشها قبل الفجر : «هيه .. أيها الرجال! أخرجوا الجحش الحديد وشدّوه إلى الطاحون !» وما أن تنهض من فراشها حتى تأمرهم بضربى ضرباً مبرحاً بإشرافها الشخصى . وكانت تبعدنى عن المعلق وقت الافطار ، حين يحل وثاقنا ، زمناً طويلاً حتى يطعم رفاقى ويرتاحوا .

أثارت قسوتها فضولى الغريزى لأعرف حركاتها ، فعرفت أن شاباً كان يزور مخدعها دائماً وكنت أتحرق شوقاً لألقى نظرة على وجهه ، غير أن الغمائم التى كنت ألبسها للعمل فى الطاحون منعتنى من هذا للأسف ، وكنت أحس بالثقة من أننى سأتمكن من ضبط هذه الزانية متلبسة بإحدى الأعيبها . وكانت عجوز مقززة تعمل كاتمة أسرارها ووسيطتها وكانت الاثنتان لا تفرقان ، وما أن ينتهى طعام الإفطار حتى تتجرعا أباريق الخمر الصرف ، كما لو كانتا على رهان ، وكان موضوع حديثهما الوحيد هو كيف تخدعان الخباز المسكين . ورغم انى لم أغفر لفوتيس خطأها الفظيع بتحويلها إياى جحشاً بدلاً من أن تحولنى إلى طائر فقد كان لى عوضٌ واحد على الأقل ، وهو أن أذننى الطويلتين كانتا قادرتين على التقاط الحديث على بعد كبير .

وفى ذات يوم سمعت كاتمة السر العجوز تقول بصوت أجش : «سيدتى .. ما كان لك أبداً أن تختارى محبك ذاك دون استشارتى ، أرى أنه لا يستطيع مجاراتك وأراك تعذبين ، الحق أنه وُلِدَ جباناً وأن عبوس زوجك يربعه حتى ليفقده عقله . قارنيه فقط بفلستايروس . ها هو رجل لك ! وسيم ، كريم ، قوى ، ويمكن الاعتماد عليه دائماً لخداع أى زوج ، إنه - وحقك - لجدير بأن يتمتع باهتمام كل نساء الدنيا . نعم .. لو كان من رجل فى بلاد اليونان كلها يستحق أن يضع على رأسه تاجاً من ذهب لكان فلستايروس - ولو حتى من أجل الحيلة التى احتال بها ذلك اليوم على زوج غيور ، هذا يوضح لك الفرق بين محب حقيقى وحبيبك » .

«إلى بالقصة» .. قالت زوجة الخباز :

«تعرفين بارباروس .. أليس كذلك ؟ أعنى المستشار البلدى الملقب (العقرب) لطبعته المقيتة ، طيب . لقد تزوج فتاة جميلة من أسرة كريمة ، وهو الآن يوحد بيته عليها متخذاً كل حيلة لتخليينها حتى لا يصبح

أحد قريباً إليها أكثر مما يجب» .

«آه .. طبعاً . أعرف أرى معرفة طيبة جداً ، لقد كنا فى المدينة معاً» .

«فى هذه الحالة يمكننى أن أصمت ، إذ لابد أنك سمعت بالقصة» .

«لم أسمع بكلمة واحدة منها ، وأشتاق لمعرفة ما حدث ، أبدأى من البداية ، يا خالة ، وامضى إلى النهاية» .

وهكذا بدأت العجوز ، وكانت تملك ذخيرة رائعة من القصص ، تحكى :

«كان على بارباروس أن يسافر فى مهمة لا مفر منها ، وأراد أن يفعل كل ما أمكن لتظل أرى وفيه له فى غيبته ، فأرسل يطلب عبداً له يدعى مورمكس ، أكثر من يوثق به من بيته ، وأمره سرّاً أن يراقبها قال له : «لو حدث خطأ ما يا مورمكس .. لو أن رجلاً لمس ثوبها بطرف إصبعه إذا مر بها فى الطريق ، فإننى سأغلك فى داموس مظلم وأجوعك حتى الموت» ، وأكد هذا التهديد بأيمان مغلظة أرعبت مورمكس فصمم على مراقبة أرى بعين لا تنام . بعدها سافر بارباروس مرتاح البال ، أما مورمكس فقد بلغ به التوتر والتدقيق فى إطاعة الأوامر حتى انه لم يكن يترك أرى تغيب عن ناظره لحظة واحدة . كان يوصد الأبواب عليها تغزل الصوف طيلة النهار ، وكان يصحبها إذا ما خرجت فى المساء إلى الحمام ممسكاً بطرف ثوبها وملتصقاً بها كالغراء . غير أن جمالها لم يكن لينجو من عيني زثر النساء مثل فلستايروس الذى أحس بتحدى سمعة عفتها المنيعه كما أثارته الحيلة الفائقة لصونها ، فوقع فى غرامها العنيف حتى كان على استعداد لركوب كل خطر للفوز بها . وأقسم على حصار القلعة التى كانت سجينة بها واكتساحها رغم دفاع قائد الحامية المنظم .

كان يعرف ضعف الطبيعة البشرية ، وأن الذهب يمكن أن يمهّد كل طريق وعر ويحطم أبواب الفولاذ . وحين وجد مورمكس وحده ذات لحظة

اعترف له بحبه أرتى حباً عميقاً ورجاه أن يجد طريقة تهون من عذابه ، وأقسم له : «لأموتن قبل عودة بارباروس إن لم تعجل لإنقاذى» وأضاف : «ومع هذا ، فلا خوف عليك : إنه عمل بسيط جداً ، كل ما علىّ أن أتسلل إلى البيت ليلاً وحدى وأخرج منه تقريباً على الفور» ، ثم دَعَم رجاءه الودود بإسفين ارتأى أنه سيسبق هذه القرمة الصلدة شقاً واسعاً ، إذ أبرز لمورمكس حفنة من القطع الذهبية اللامعة خرجت لتوها من دار صك النقود وقال له : «من الثلاثين قطعة هذه عشرون لمولاتك وعشر لك أنت» .

صعق الاقتراح لمورمكس حتى انطلق مرتعباً دون أن يستمع إلى كلمة أخرى . لكنه لم يستطع أن يححو من ذهنه صورة الذهب اللماع ، ورغم أنه تركها وراء ظهره ولم يقف عن الجرى حتى بلغ البيت ، فقد هبّ له أن معه قطع النقود الجميلة وكان يشدد قبضته عليها فى خياله . وقضى المسكين بقية يومه تعيساً . كان ممزقاً بمشاعر متضاربة ، شعوره بالواجب تجاه بارباروس والعذاب الأليم الذى ينتظره لو كشف أمره من ناحية ، ثم شعوره بالواجب تجاه نفسه وفكرة امتلاكه النقود الخلافة لو مضى كل شئ على ما يرام . وكان جوعه لتلك الأشياء الذهبية الرائعة يزداد كل ساعة ، يقرصه الليل بطوله ويمنع عنه النوم ، صاح الحذر : «قف !» وأومأت النقود : «تعال .. خذنا !» وعند الفجر كان الطمع قد طرد الخوف ، نهض ، وابتلع إحساسه بالعار ، وجرى إلى مخدع سيده وأبلغها رسالة فلستايروس .

لم تكن أرتى من فصيلة النساء اللاتى يقعن فى الحب بسهولة .. لكنها باعت عفتها فى سبيل كسب الحرام القذر دون تردد . وغمرت الفرحة لمورمكس بالمصيبة التى أنهت سجل خدماته المخلصة الطويل ، وطمغت عليه الرغبة ، ليس فى طلب المال وحده بل فى أن يمسكه بيديه ويملكه ، حتى انه مضى يعدو إلى بيت فلستايروس وأنبأه أن أرتى رأفت به . دفع له فلستايروس قطعه الذهبية العشر فى الحال . ولك أن تتصور شعور

مورمكس ! إنه لم يمك في حياته أبداً بدانقين من نحاس يفركهما معاً !
في تلك الليلة جاء فلستايروس متخفياً متكرراً إلى مخدع أريتى
وعند منتصف الليل سمعت طرقة عالية على الباب ، إذ عاد بارباروس على
غير انتظار . فلما لم يجيء أحد ليفتح له شرع يصيح ويدق الباب
بحجر ، وقد جعله التأخر الطويل في فتح الباب يزداد ريبة فصار يتوعد
بأعلى صوته بأن يعذب مورمكس . أرب وقوع الكارثة فجأة مورمكس
إرعاباً قاتلاً فرد بصوت مرتعش أنه أخفى المفتاح بحيلة حتى أنه لم يجده
في العتمة .

نبهت الضجة فلستايروس ، فارتدى ثيابه على عجل وخرج من الغرفة
مسرعاً ، ناسياً لسوء الحظ نعليه . بعدها وضع مورمكس المفتاح في القفل
وأدخل بارباروس الهادر المتوعد الذي أسرع إلى مخدع أريتى بينما خرج
فلستايروس دون أن يراه وأقفل مورمكس من ورائه الباب .

مضى مورمكس إلى فراشه وقد زال كدوره . غير أن بارباروس وجد
نعلين غربيين تحت سريره حين نهض في صباح اليوم التالي ، فحمن ما
حدث . لم ين عن ريبته لأريتى أو لأى من الخدم ، بل التقط النعلين
وأودعهما جيبه ثم أمر بأم توثق يدا مورمكس وراء ظهره ، وحث الخطى
بعدها إلى السوق يزجر هياجاً مقطب الجبين مقترن الحاجبين وقد التوت
سحته من شدة الغضب . وكان حلف أن يقتنفى أثر العاشق عن طريق
نعليه . تبعه مورمكس مخفوراً تصلصل أصفاده معذب الضمير رغم أنه لم
يقبض عليه متلبساً بأية جريمة . انتحب وأعول محاولاً إثارة شفقة المارة ،
ولا أدري ما الذى كان يفيد العويل .

تصادف بضربة حظ موفقة ، أن مر فلستايروس ، ورغم أنه كان على
موعد مهم فى مكان آخر ، فقد شده منظر السيد الغاضب والعبد المرتعب

فى الحال ، وتذكر غلطته التى غلطها فى أثناء فراره العاجل من المخدع ، وخمن ما حدث . وبدلاً من أن يفقد صوابه تصرف بحضور بديهته المعتاد ، إذ دفع الخفير جانباً واندفع نحو مورمكس صائحاً بأعلى صوته وهو يضرب بقبضته على وجهه، وإن كان ضرباً هيناً وزعق : «أيها العبد الكاذب الزنيم ! أرجو أن يعاقبك مولاك ، ودعك من الأرباب التى أقسمت بأسمائها باطلاً بالأمس ، بما تستحق . لقد عرفتك ، أنت اللص الذى أخذ نعليّ فى الحمام، وحق السماء إنك لتستحق أن تظل هذه الأغلال فى يديك حتى تصدأ . إنك لتستحق أن يوصد عليك داموس مظلم بقية ما عشت» .

أليس هذا ذكاءً من فلستايروس ؟ وقد جاء على البداة ؟ ! أخذ بارباروس تماماً ، فانقلب عائداً إلى بيته وأطلق سراح مورمكس وأعطاه النعلين وقال له : «خذهما إلى صاحبهما الحقيقى أيها اللص ، إذا شئت غفرانى لك ! .

لم تكد القصة تأتى على خاتمتها حتى انفجرت زوجة الخباز : «نعم - حقاً ، إن أرىتى لامرأة محظوظة للغاية أن تنال عاشقاً مثل هذا ، أما صاحبى فجبان - لسوء الحظ - حتى انه ليرتعد عند أقل صوت يصدر من الطاحون . حتى الوجه المغمى لذلك الحمار الأجرب هناك يخيفه» .

«لا عليك يا عزيزى ، انه فتى ذكى ، وأتكفل بجعله نضراً كالدهان، صليداً كالنحاس، مستعداً للموت فى سبيلك، أراك مرة أخرى هذه الليلة .. هيه ؟!» ثم ذهبت ، وهيات زوجة الخباز عشاءً كبيراً يضاهى مأدبة كاهن ، وهى تصب نبيذاً فاخراً بعناية وتعد طبقاً متبلاً من اللحم الطرى والطبيخ الكثيف وتترقب وصول حبيبها كما تنتظر أحد الأرباب . وكان زوجها -لحسن الحظ - مدعواً إلى العشاء عند صاحبه الغسّال فى البيت المجاور . وحين جاء المساء فُككتُ من الرحى وأُذن لى بالمضى إلى معلفى عند الطرف الآخر من الغرفة الكبيرة حيث ستكون حفلة العشاء . كان رائعاً أن

أفك من العناء وأن تزال مغميات عيني ، وقد صرت حرأ في أن أستعمل عيني وأرغب كل ما ستفعله المرأة الخبيثة .

انعقدت الظلمة وغرقت الشمس وراء المحيط لتضئ جانب الأرض الآخر ، وبعد قليل جاءت العجوز بالعاشق . كان مجرد صبي لم ينم الشعر على عارضيه لكنه كان مكتمل الصحة وبالغ الملاحه . قبلته زوجة الخباز بشوق وأعادت التقبيل وأجلسته إلى المائدة . بيد أنه لم يكن لامس بشفتيه أول قدح ناولته إياه على سبيل فتح الشهية حين سيمع صوت الخباز عائداً ساعات قبل مواعده المنتظر . صاحت الزوجة الوفيّة : «لعنة الآلهة على هذا الرجل ! ياليتك يتعثر عند العتبة وتكسر ساقه !» .

كان الصبي جالساً باهت اللون من الرعب ، لكن صندوق نخل الدقيق كان غير بعيد بين معلفئ والباب فأخفته تحته . وحين دخل الخباز قالت له بكل رباطة جأش : «ما أسعدني برؤيتك .. يا حبيبى ! لكن لماذا رجعت بهذه السرعة ؟ من المؤكد أن صاحبك القديم صاحب المغسلة؟»

«لا أستطيع أن أطيقها أكثر مما فعلت» انفجر بتهيدة عميقة : «زوجته الفظيعة تلك ! لم أكن لأصدق أبداً . كانت تبدو محترمة جداً ، حسنة السلوك جداً . بشرفى .. لقد كان الأمر كشفاً أقسم لك بصنم ربة القمح هناك ، لا أكاد أصدق شاهد عيني»

«خبرنى بما حدث» .

«كلا .. كلا .. إنى أخجل» .

«أوه .. أرجوك أن تفعل ، يجب أن تخبرنى بما حدث ، لن أَرْضى حتى أسمع كل شئ» .

استسلم فى نهاية الأمر وشرع يحكى قصة الخبر السيئ عما جرى فى بيت جاره ، غير دار بما يجرى فى بيته من سوء . قال :

«طيب ، تعرفين أن الغسّال واحد من أقدم أصحابي ، وانها زوجته بدت دائماً امرأة شريفة تماماً ينظر إليها الجيران باحترام وانها تدير شؤون زوجها بطريقة لائقة . بيد أنها منذ زمن غير بعيد وقعت فى غرام رجل وبدأ يجتمعان سرّاً ويبدو أننى وصاحبى قطعنا متعتهما الليلة بغتة حين عدنا من الحمام للعشاء . ولم تجد فى غمرة ارتباكها واضطرابها لمجيئنا المفاجئ مخبأً لحبيسها خيراً من قفص قش عال علقّت عليه الثياب لتبيض فى دخان نار الكبريت داخله ، وبدا لها مكاناً أمناً فجاءت وجلست للعشاء معنا . كان العاشق مجبراً على التنفس فى دخان الكبريت الحاقق ، وتعرفين أثر الكبريت ، فإن رائحته حادة نفاذة تجعل المرء يعطس ويعطس ، وقد سمع الغسّال ، الذى كانت حشيته على الجانب المقابل زوجته ، سمع عطسة من خلفها مباشرة فقال : «يرحمك الله ! يا عزيزتى» .. ثم فى العطسة الثانية والثالثة : «يرحمك الله ! يرحمك الله !» غير أن العطس توالى ، وبدأ الرجل ينتبه إلى الأمر ويشك فى أن ثم خطأ ما ، فدفع المائدة جانباً ونهض وقلب القفص حيث وجد غريمه يلهث ويكاد يلفظ نفسه الأخير .

جن جنون مضيفى الطيب وصاح بعبد من عبيده ليأتيه بسيفه . كان على وشك قطع رقبة البائس المسكين حين استطعت منعه بصعوبة بالغة ، أوضحت له أن غريمه سيموت بسرعة من الكبريت السام لو ترك وشأنه ، فإذا وجد مقطوع العنق وقع الجميع فى متاعب بما فيهم أنا نفسى .

لم تفد توسلاتى له بحق صداقتنا القديمة إذ كان يغلى غضباً ، غير أنه رأى قوة حجتى وسحب الرجل المغشى عليه خارج البيت إلى الزقاق ليموت فيه . ثم استطعت إقناع زوجته بمغادرة البيت على الفور وأن تلجأ إلى بعض الأصحاب حتى يهدئ الوقت من سورة غضبه . كنت واثقاً تماماً من منظره انها لو ظلت لفعل بها شيئاً يائساً ، قد يقتلها ويقتل نفسه أيضاً . كان هذا متعة كافية لليلة واحدة ، فقفلت راجعاً إلى البيت .. ها أنذا ! .

وقد تخللت الرواية شهقات فزع التعفف واللعنات الساخطة على لسان زوجة الخباز التي أخفت إثمها ببراعة . وصفت جارتها بأفعى الحشيش ، وبأنها داعرة لا تخجل ، وأنها خزى بالنسبة لبنات جنسها كلهن ، وانها امرأة لا تملك مزرقة من الأدب أو شعور بواجبها نحو زوجها ، وصاحت : « تصوّر كيف قلبت بيته إلى ماخور ! وأيضاً .. امرأة متزوجة محترمة تسلك سلوك أدنى الأوباش ، مثل هذه المرأة تستحق أن تدفن حيّة » ومع هذا فهي لم تكن مطمئنة البال تماماً ، كانت تبغى أن تخلص عشيقها من مكمته السيئ بأسرع ما تستطيع وحاولت أن تجعل الخباز يمضى إلى الفراش مبكراً .

« كلا يا زوجتى » قال لها : « إننى لم أتعشّ فى بيت الغسّال ، وأنا جائع ، فلنأكل » .

على عجل قدمت له العشاء الذى أرادته للصبي تحت الصندوق وفى تلك الأثناء كانت مشاعرى تغلى لسلوكها حتى أحسست بالألم يسرى فى معدتى . هناك أولاً تلك القبل الشهوانية ، ثم ها هنا ثانياً هذا التظاهر الوقح بالفضيلة . كنت أتلهم أن أجد طريقة أعين بها صاحبى بكشف شر أعمالها ، كأن أرفس الصندوق مثلاً وأكشف عشيقها مقعياً تحته كالسلحفاة فى درقتها .

فكرت : « ما أشنع ما تعامل به الرجل المسكين ! » وفى هذه اللحظة جاءت (العناية) لمساعدتى ، فقد حان وقت شرابنا وجاء الشيخ الأعرج الذى يرعانا ليقودنا إلى بركة الماء القريبة ، وهذا ما أتاح لى الفرصة التى كنت فى حاجة إليها لأرد صنيع زوجة الخباز . لاحظت حين مررت بالصندوق أصابع الصبي بارزة من تحته ، فوضعت طرف حافرى فوقها وهرستها هرساً . كان الألم مبرحاً ، فصرخ صرخة عالية ورفع الصندوق قافزاً ، ووقف ليراه الجميع ، وكشف القناع عن وجه زوجة الخباز .

لم يبد على الخباز أنه صدم باكتشافه كما توقعت ، إذ شرع لطيفاً هادئاً يطمئن الصبى المرتجف الذى بدا خوف الموت فى ناظره ، ويرجوه ألا يخاف . قال له : «لا تحسبنى همجياً أو متوحشاً ، فأنا لا أنوى أن أخنك بدخان الكبريت ، وأنت صبى مليح ، صبى بالغ الملاحظة ، لا يليق أن آخذك إلي المحكمة ، عارٌ عليّ أن يحكم عليك بالاعدام طبقاً لقانون الزنا ، ولا أنوى طلب الطلاق من زوجتى ، أو أن أقاضيهما لقسمة الأملاك ، فهذا شأن يمكن تسويته خارج المحكمة بعقد مشاركة بسيط ، ويمكن لنا نحن الثلاثة أن ننعّم بالراحة ... إننى وزوجتى لم نتشاجر أبداً حول أى شئ ، وكنا من العقل بحيث عشنا معاً على شرط أن ما يرضى أحدهما يرضى الآخر دائماً ، غير أنه من العدل ألا يكون للزوجة سلطة تفوق سلطة زوجها» .

ومضى يداعبه برقة حتى جعل الصبى المتمنع يمضى معه . ولكى لا يخذش حياء زوجته أوصد عليها باب غرفة أخرى ... وثأر لما ألحقته به من سوء . وعند تباشير فجر اليوم التالى نادى اثنين من أقوى عبيد الطاحون رفعاً الصبى ليجلده على ظهره العارى بعضاً . وبعد جلده عشرين من أشد الضربات قال له : «يا لك من صبى لطيف صغير كذلك ! يجب أن تخجل من رد عشاق فى مثل سنك ، ومن محاولتك تفريق شمل البيوت المحترمة ، سوف تشوه سمعتك ، يا ولدى ، والزنا جريمة خطيرة جداً جداً ، لاتنسَ هذا !» ثم جلده عشرين أخرى ، من أجل حسن الحظ ، وطرده من البيت . وهكذا نجا هذا الزانى المقدام بحياته ، وهو حظ أفضل مما أمل ، تخنقه العبرات وهو يبكى ظهره الأبيض الجميل الذى كان يوجعه بعد كل الذى مر به .

بعد ذلك بقليل طلق الخباز زوجته عن طريق وكيل . وكان طبيعياً أن تستثار هذه المرأة البالغة السوء بهذه الإهانة العلنية ، وتلجأ إلى الفن الأسود وهو ما تلوذ به النسوة من طرازها عادة . زارت ساحرةً عرفت عنها قدرتها

على فعل ما تريد بمساعدة الرقي والعقاقير وقدمت لها الهدايا السنية وتضرعت إليها إما أن تلين قلب زوجها وتجعله يهفو إليها أو ... إن كان هذا مستحيلاً - تسلط عليه شبحاً أو قوة شيطانية مخيفة تخرج روحه من جسده ، فشرعت الساحرة فى العمل ، بدأت بتجارب خفيفة نوعاً من الفن الأسود محاولة التأثير فى قلب الخباز الحزين وإعادته إلى مشاعره المحبة المعتادة نحو زوجته ، فلما ألقت نفسها غير قادرة على التأثير فيه غضبت من الأرباب . قالت إن عدم الاستجابة لتعاويذها يحرّمها مما وعدت به إن وفقت . وهددت بقتل الخباز المسكين بأن تسلط عليه شبح امرأة قتلت غيلة .

(اسمع قارئاً أريباً يعترض : «انظر يا لوكيوس ! لقد كنت جحشاً موثقاً فى الطاحون ، فكيف بلغت من الذكاء حداً تعرف معه أسرار هاتين المرأتين ؟» امض يا سيدى فى قراءة كتابك وسترى قريباً كيف عرفت كل شئ عن موت صاحبي . أوافق على أننى كنتُ جحشاً ، لكننى كنت محتفظاً بإدراكى الإنسانى) .

عند القيلولة دخلت الطاحون امرأة بشعة الهيئة . كانت ترتدى أسمالاً قدرة وتبدى حزناً عميقاً . حسبتهامتهمة بجريمة خطيرة . كانت ملقاة على جسمها عباءة ندب فضفاضة ، حافية القدمين ، ووجهها النحيف فى لون خشب البقس تعلوه طبقة من الأوساخ ، وقد تدلى من فوقه شعرها الأشيب الملطخ بالخير والرماد . جاءت إلى الخباز ، أخذته بلطف من يده وقادته إلى غرفة نومه وكأنها تريد أن تحدّثه بأمر خاص ، ثم أقفلت الباب ولبت الاثنان معاً مؤتمرين مدة طويلة .

حين انتهى القمح الذى أعطاه للرجال ليطحنوه من الرحى ، واحتاجوا لغيره ، دقوا باب غرفة النوم ونادوا : «القمح ، أيها السيد ، نريد القمح» .

لا جواب ..

طرقوا الباب مرة أخرى طرقةً أشد صائحين بأعلى أصواتهم : « القمح أيها السيد ، القمح ! » .

صمت

كان الباب محكم الأقفال من الداخل ، فارتابوا وقرروا فتحه عنوة ، واحد .. اثنان .. ثلاثة ! وباندفاع شديدة أطاروا مفصلات الباب وتدحرجوا داخل الغرفة .

لم يُرَ للمرأة أثر فى أى مكان ، غير أن الخباز كان يتأرجح من السقف وحبل حول عنقه ، وحين قطعوا الحبل كان قد فارق الحياة .

ارتفعت صرخة الندب المألوفة وانهلّت العبرات حزناً ، وتمت مراسم الدفن فى مساء اليوم نفسه وقد تجمع حشد هائل عند القبر . وفى اليوم التالى جاءت ابنة الخباز ، وكانت تزوجت منذ عهد قريب رجلاً من القرية المجاورة ، تركض إلى الطاحون وقد تطاير شعرها وهى تنتحب وتدق صدرها ، وكان هذا عجباً إذ لم يكن بلغها خبر طلاق زوجة أبيها وانتحار والدها . لكن شبح أبيها الطيب الذكر كان ظهر لها فى الليل ، والحبل حول عنقه ، وأخبرها بالضبط بكل ما حدث ، مبتدئاً بفحش زوجة الأب ومختتماً بلجوئها إلى السحر الأسود ، وكيف أن روحه سُحرت لتخرج من جسده وأجبرت على الهبوط إلى عالم الظلال . وبعد فترة تمكن الخدم من تهدئتها ، فلما انقضت ثمانية أيام ، حين تم تقديم القرابين اللازمة عند القبر ، وضعت الطاحون وكل محتوياتها فى يد الدلال - إذ كانت الوارثة الوحيدة - بما فيها العبيد ونحن الحيوانات . فما أعجب كيف يتفكك عند البيع بيت على حين غرة وتتناثر مكوناته فى كل اتجاه شذر مذر ! ♦

مع الخضري والشاويش

كان من بين من عرض ثمناً لشرائي خضريُّ أُلقيْتُ إليه بمبلغ خمسين درهماً بدا مبلغاً من المال عظيماً بالنسبة للرجل الفقير ، لكنه أمل أن يستعيده بالعمل الشاق وأن يجعلني أجاريه فيه ، وعلى أن أصف حياتي في خدمته . كان من عادته أن يقودني إلى أقرب سوق كل يوم بحمل من الخضراوات ، وبعد أن يبيعها لعملائه يمتطيني ويعود إلي مقره، ثم يشرع في حرث أرضه أو رثى مزروعاته أو الإنحناء عليها ، منشغلاً بعمل أو آخر ، إذ لم تكن يده تكفان عن الحركة ، بينما ارتاح أنا هائناً طيلة اليوم . لم تكن حياة سيئة بأي حال ، حتى مضت بنا دورة العام من موسم القطاف - وهو وقت لطيف دائماً - إلى علامات الشتاء المتقلب بأماطاره المتدفقة وجلبده الذي يغطي الأرض كل ليلة . لم يكن لحظيرتي باب ولا سقف وكدت أفضى من البرد ، إذ لم يكن في قدرة صاحبي أن يمدني أو يمد نفسه بالتبن أو بالغطاء ، وكان وقاؤه الوحيد من الزمهرير سقفاً من قش كالمظلة هو له بمثابة البيت . ولم يكن لي نعال تحمي حوافري من جوانب الأخاديد المتجمدة أو قطع الجليد المتناثرة ، ودونما إفطار دائماً . وكنت وصاحبي نتقاسم الطعام، ويا له من طعام حقير ! هو في أغلبه من الخس العتيق الصلب ظهرت بذوره وبدا كالمقشبة وقد ضربه الصقيع ، عفن الرائحة ، ملئاً بالعصارة المرة .

ذات ليلة حالكة بالظلمة ضل مزارع من القرية المجاورة طريقه في

الظلام وبلله المطر حتى عظامه ، فأدار عنان جواده المرهق إلى مقرنا .
استقبله صاحبي محتفياً وحاول أن يريحه بقدر الإمكان إذا ما أخذنا في
الحسبان سوء حالة الطقس والفقر الذي كنا نحياه ، حتى استطاع آخر الأمر
أن ينال شيئاً من النوم كان في أمس الحاجة إليه . وأبدى امتنانه في اليوم
التالى بأن دعا صاحبي لزيارته ووعده بهدية من الذرة والزيت ودين من
النبيد ، فوثب هذا إلى العرض ، وأخذ معه كيساً للذرة وبعض القرب
الفارغة للزيت ، وامتطاني إلي المزرعة التي كانت تبعد عنا حوالى سبعة
أميال .

كان المزارع قد سبقنا ، وعند وصولنا دعا صاحبي بكرم ليشاركه مائدة
عامرة . وكنا منهمكين في الشراب والحديث الرائق حين حدث شئ مفرع
للغاية ، إذ جرت دجاجة تقيق في ساحة المزرعة كما لو انها على وشك أن
تبيض . رآها المزارع وقال : «أنت دجاجة طيبة تضعين بيضاً أكثر من أية
دجاجة أخرى في حوش الدجاج . بيضة كل يوم منك منذ شهور ، وأراك
الآن متلهفة للإسهام بشئ لمائدتنا ... هيه ... يا ولد !» نادى أحد عبده :
«ضع السلة في الركن حيث تبيض دائماً» .

جئى بالسلة غير أن الدجاجة أثبت أن تدخلها ، بل جرت إلى سيدها
ووضعت شيئاً عند قدميه . لم تكن بيضة بل نذير شؤم ، فرخاً مكتمل
الريش ، مكتمل المخالب والعينين ، جرى من توه يصيص خلف أمه . وتبع
هذا نذير شؤم آخر مفرع حتى ليجعل أشجع الرجال يتصبب عرقاً من
الخوف . إذ انشقت الأرضية الحجرية تحت المائدة بغتةً وظهرت هوة فاغرة
ملأى بدم يفور طشت قطرات رذاذ منه وأصابت الأقداح والأطباق ، وبينما
جلس الجميع يحدق كل منهم مرتعباً مفزوعاً في هذا الخيال الرهيب ويفكر
في ما يُنذر به ، اندفع عبد جاء عن القبو ليعلم أن الخمر المخزون هناك منذ
زمن ، عاد يختمر من جديد في جواره ويسح على أرض القبو كما لو أن

ناراً عظيمة أوقدت من تحته . بعدها دنت ثلة جردان من البيت وجرت إلى داخله أفعى ميتة . وأخيراً قفزت ضفدعة صغيرة خضراء اللون من فم كلب الرعى ، ووثب كبش عجوز كان واقفاً بالقرب منه على الكلب وقطع حلقومه بعضة واحدة ، وقد أذهلت هذه السلسلة المتلاحقة من الغرائب المزارع وأهله حتى لم يعد لديهم فكر يتدبرون به ما يصنعون ، من الجلى أنه يجب تجنب غضب الأرياب بالقرايين .. لكن أى ضرب من القرايين ؟ أى هذه النذر أخطرها شأناً ؟ أيها ينبغي الاهتمام به أولاً وأيها يؤجل أمره إلى ما بعد بأمان ؟ جلسوا مذهولين ، محملقين ، فاغرى الأفواه ، ينظرون ما هو أسوأ .

أخيراً جاء عبد يجرى بخبر دينونة مخوفة . فقد كان المزارع أباً فخوراً لثلاثة أبناء على خير تعليم وأفضل الاحترام . كانوا أصدقاء منذ مدة طويلة لجار فقير جاور كوخه عقار شاب سرى ، استغل قوة ثرائه وما قدمته له علائق أسرته أبشع استغلال . كان يستخدم جيشاً من الأتباع والعبيد ليتحكم فى شؤون المنطقة كلها وشرع أخيراً يعامل جاره الفقير باستعلاء ، يذبح أغنامه ويطرد ثيرانه ويطأ مزروعاته ، ويحاول الآن انتزاع أرضه أيضاً بادعاء باطل انها تقع كلها داخل حدود عقاره .

لم يستسغ الفقير ، رغم طبيته ووداعته ، أن يسلبه أرضه جاره الغنى الجشع ، وسأل عدداً من أصدقائه أن يعينوه على تحديد ملك عائلته بالضبط ، وقال لهم إنه يأمل على الأقل فى الاحتفاظ بقطعة أرض يحفر فيها قبره . ومن بين هؤلاء الأصدقاء كان الإخوة الثلاثة الذين رأوه فى كرب عظيم وعزموا على مساعدته بما استطاعوا ، غير أن السرى كان مصمماً على سحق الفقير حتى أنه رفض الكف عن ادعائه ، غير ملق بالاً أو مهتمّ بوصول هذا العدد الكبير من أهل بلده ، بل إنه لم يحفظ لساناً مهذباً فى فمه . عرضوا أنفسهم حكماً بأدب عدم صواب

محاولته نيل ما لم يكن شرعياً له . غير انه مضى - رغم منطقهم المعقول اللطيف - فى عتوه كما كان ، ثم أقسم أخيراً انه وعائلته مستعدون للموت دون الانصياع لمثل هذا التدخل - فليذهب كل حكم إلى الجحيم ومعهم شلة الفضوليين جميعاً ! وصاح : « هيه .. أيها العبيد خذوا هذا من أذنيه واطردوه من هنا ، وتأكدوا من أنه لن يرى فى هذه الأنحاء مرة ثانية » .

شعر الجميع بالعار ، وتكلم أحد الإخوة الثلاثة على الفور وقال للسرى إن وعيده لا يؤبه به رغم ثرائه ، وإنه أضاع كلماته ، فإن إنسانية القانون تسمح حتى للفقير أن ينال دائماً إنصافاً من عدوان الجار المعتدى . وجاءت هذه الإهانة كالزيت يسكب على الشعلة اللاهبة أو كالكبريت يوضع فى النار أو كالقطعة (ذات الذبول التسعة) بالنسبة لربة الغضب ، إذ أثارت حنّ هياجاً ، فصرخ : « عليك وعلى القانون اللعنة ! » وأمر رجاله أن يفكوا رباط جميع كلاب العقار ، كلاب الحراسة وكلاب الرعى أيضاً - وحوش متعطشة للدماء مدربة على التهام جيف الدواب النافقة فى الحقول وإنشاب أنيابها فى سيقان المذنبين فلا تنفك منها .

صاح الرعاة : « إلههم .. با أولاد ! » واندفعت الكلاب تنبح بضراوة نحو أعوان الفقير تنهشهم . حاولوا الفرار فلاحقتهم الكلاب وكلما أسرعوا فى الجرى زادت فى الهجوم الوحشى عليهم . واتفق أن عثر أصغر الإخوة الثلاثة فى أثناء جريه وكدم حجر قدمه ووقع على الأرض ، فوثبت الكلاب عليه تمرقه وتزيل قطع لحمه من فوق عظامه وتلتهمهما . سمع الآخرون صيححاته وعادوا لنجدته مخفين أذرعهم اليسرى فى عبااتهم ملتقطين حجارة كبيرة لإبعاد الكلاب . لكن لم يكن هناك ما يمكن عمله ، فقد استطعمت الوحوش الدم ولم تتركه ، فمزق إرباً أمام أبصارهم ، وكانت آخر كلماته : « اثاروا لى .. يا إخوتى ! » .

اندفعوا دون نظر إلى العواقب إلى السرى النذل ، وأمطروه بالحجارة ،

بيد أنه كان قد مارس لعبة الحصار العنيف عدة مرات من قبل كما كان مجرباً لا يؤخذ على حين غرة . أسرع يرمى رمحاً نحو أحدهم فاخترق جسده ، غير أنه لم يقع رغم جرحه المميت ، إذ انغرس رأس الرمح فى الأرض على جانبه وظل الجزء الأكبر من مقبضه فى الجانب الآخر ، وتركه مطعوناً يتلوى وجسده لا يكاد يلامس الأرض ، ثم أطار أحد الأتباع القتلة ، وهو رجل عريض طويل القامة ، حجراً نحو الأخ الباقى من مسافة بعيدة ليعوقه ، فكشط الحجر أصابعه وطاش ، ظن الجميع أنه جرحه جرحاً بليغاً ، وهذا ما أتاح للفتى الحاضر البديهة فرصة الثأر لإخوته . إذ صاح بالسرى متظاهراً بعجز يده : « حسن جداً .. إذن ، أفعم قلبك الحقود بدم أخوي ! وأتم عملك الشرير الذى بدأت .. أنظر .. ها هو أحد مواطنيك ، أو أثنان ، ملقيان على الأرض دون حياة . لكن تذكر انك حين أخرجت صديقى الفقير من داره ومهما وسعت حدود عقارك فسيكون لك جيران . هنئ نفسك بحظك الآن إذ أعجز حجر ملعون يدى وتركها دون حول ولا قوة ، لو لم تكن عاجزة لاستخدمتها فى قطع رأسك » .

اجتذب السرى الحانق سيفه واندفع قدماً ينوى أن يقضى عليه بضربة واحدة ، وما تبع ذلك كان غير متوقع أبداً ، فقد اختار خصماً ييزه بكثير . إذ أمسكت بيده التى تحمل السيف قبضة قوية أسقطت منها السلاح ، وضرب بسيفه على رأسه مرة بعد مرة حتى فارقت روحه الشريرة جسده . وقد جاء الأتباع لنجدته ، غير أن المنتصر كان أسرع منهم ، إذ قطع عنقه بالسيف الذى كان لا يزال يقطر بدم السرى .

هذا كان خبر ما أُنذرت به غرائب الأحداث ، أما المزارع ، الذى تحطم فؤاده بثقل نكباته ، فلم يستطع أن ينبس ببنت شفة أو يذرف دمعاً واحدة . فعمد إلى سكين كان منذ قليل يقطع به الجبن لضيوفه وحز بها عنقه ، تماماً كما فعل ابنه بسيف السرى ، ووقع على وجهه فوق المائدة ليغسل جدول

النجيع من وريده المقطوع البقع الخيالية التى سقطت عليها من نبع الدم فى الأرض تحت المائدة .

شاطر صاحبى الحزن كلَّ من حضر على نهاية أسرة مضيفه الفاجعة ، وقد خاب رجاؤه لعودته بأكياسه وقربه فارغة ، وإن أبدى امتنانه لوجبة الطعام بذرف الدمع وفرك يديه الفارغتين ، ثم ركبنى وقصد بيته من حيث أتينا .

كانت رحلة مشؤومة ، إذ أوقفنا جندى رومانى طويل القامة كان برتبة شاويش سأل بلهجة متعالية : «إلى أين تركب جحش الحمل هذا ؟» وكان صاحبى لا يزال دائخاً ومضطرباً من أثر الأحداث التى شهدناها منذ قليل ، ولم يكن يعرف اللاتينية ، فلم يعر السؤال اهتماماً ومضى فى سبيله . أغاظ صمته الشاويش الذى لم يمنع نفسه من ضربه على رأسه بعصاه ليطيحه من فوقى . عندها أجاب صاحبى بوداعة : «آسف يا سيدى ، أنا لا أفهم لغتك ، فلم أعرف ما قلت منذ قليل» ، تكلم الشاويش باليونانية هذه المرة : «إلى أين تركب هذا الجحش ؟» .

«إلى أقارب قرية.»

«حسن» .. أنا فى حاجة إليه . يجب نقل متاع القائد من القلعة وتنقصنا دواب الحمل» ، ثم أمسك بشكيمتى وبدأ يقودنى عائداً فى الطريق . مسح صاحبى الدم الذى سال على وجهه من جرح العصا ، وشرع يرجو الشاويش أن يعامله بطريقة أرفق وقال : «أنا واثق ، يا سيدى ، من انك لو فعلت هذا لنلت الحظ الحسن ، وهذا على كل حال ، جحش كسول جداً مصاب بذاك المرض اللعين المسمى الصرع . انه لا يستطيع أن يحمل أكثر من ربطات الخضر من مزرعتى الصغيرة إلى السوق ، إنه يكاد يموت ، حمّله بحمل حقيقى وستحطم قلبه» .

غير أن الجندي القاسى لم يصغ إلى كلمة من هذا كله . فلما أدرك صاحبه أنه عازم على أخذى غصباً وأنه شدد قبضته على عصاه وعلى وشك أن يكسر يافوخه بنهايتها ذات العقد ، اتخذ عملاً يائساً . تظاهر بالتشبث بركبتي الجندي مبهلاً وشده إلى أسفل وجذب رجله الاثنتين من تحته وأوقعه على الأرض لتضطدم بها مؤخرة رأسه . ثم وثب عليه وضربه أينما اتفق له - وجهه وذراعيه وأضلاعه ، بقبضتيه فى البداية ثم بمرفقيه ثم بحجر النقطة من الطريق بعد ذلك . ولم يستطع الشاويش ، حينما وقع ، أن يقاوم ، وكل ما استطاع عمله أنه تلفظ بكلمات الوعيد عن كيف سيعاقب صاحبه بمجرد أن يقف على قدميه ، وأقم انه سيفرمه بسيفه فرماً . وقد نبه هذا صاحبه فى الوقت المناسب فاخطف سيف الشاويش من غمده ورمى به أبعد ما يكون وطفق يدقه دقاً أعنف من ذى قبل فتمدد هذا على الأرض نعم جسده الكدمات والجروح حتى صار عاجزاً عن النهوض وأصبح أمله الوحيد فى إنقاذ حياته أن يتماوت . بعدها استرجع صاحبه السيف وامتنانى من جديد وأسرع بى عائداً مباشرة إلى القرية . لم يهتم بالعودة إلى مقره ، فى تلك اللحظة على الأقل ، بل ركبني إلى بيت صديق حميم له تاجر حيث حديثه بكل ما فعل بالشاويش ورجاه الحماية : «خبئني وجحشى فى مكان آمن لمدة يومين حتى ينتهى هذا المشكل ، لو أمسكوا بى لقتلونى» .

تكفل التاجر من فوره بحمايته من أجل الأيام الماضية ، وأوثقا أرجلى بعضها إلى بعض وجرانى إلى العلوية ، وظل صاحبه فى الحانوت على الطابق الأرضى حيث دخل صندوق بضاعة كبيراً وأقفل عليه غطاءه .

فى تلك الأثناء .. كما سمعت فيما بعد ، ترتج الشاويش فى القرية كالسكران ، دوخه ألم جراحه ، متوكئاً على عصاه ، وقد منعتة كبرياؤه من أن ينبئ أحداً من أهل القرية بقصة هزيمته الشائنة على يدى صاحبه ، فابتلع

خزيه فى صمت . وحين قابل بعض رفاقه نصحوه بأن يرقد فى المعسكر بضعة أيام ، لا لأنه سيفقد شرفه إذا ما عرف أن خضرياً أذاقه مثل هذه «الطريحة» ، بل لأن فقدان سيفه يعادل فى القانون العسكرى الفرار من الجيش ، وهو بمثابة نقض يمين الولاء التى أقسمها للامبراطور . وتعهدوا بالبحث عن سيدى وعنى لو أخبرهم بأوصافنا وأن يثأروا لشرف الفرقة .

وكما يمكن توقعه وشى بنا جار فظ ، فمضوا إلى القاضى المدنى وقالوا له إن قدحاً من الفضة قيماً من أملاك قائدهم وقع منهم فى الطريق ، وإن خضرياً وجده وأبى تسليمه وانه الآن مختبئ فى بيت أحد الجيران ، سجل القاضى اسم الضابط وبقية المعلومات الأخرى ، ثم جاء إلى باب الحانوت حيث أعلن بصوت عال بأن لديه سبباً قوياً يدفعه للاعتقاد بأننا مخفيان فى المحل ، وأن مالك المحل سيحكم عليه بالموت إذا لم يسلم صاحبه بتهمة إيواء مجرم .

كان التاجر رجلاً شجاعاً وصديقاً حقيقياً ، فأجاب بأنه لا يعرف عنا شيئاً البتة وأنه لم ير صاحبه منذ أيام ، غير أن الجنود أصروا ، وهم يقسمون باسم الامبراطور على أن الخضرى فى البيت وليس فى أى مكان آخر ، بعدها وافق القاضى على تفتيش المحل تفتيشاً دقيقاً ليرى مدى الصدق فى إنكار التاجر العنيد ، فأرسل الشرطة وبعض الموظفين المحليين بأمر تفتيش البيت من قمته إلى أسفله ، غير أنهم خرجوا يقولون إنهم لم يعثروا على جحش ولا رجل ، لا فى الطبقة العليا ولا فى السفلى . واحتدم الجدل بين الجانبين . الجنود يقسمون باسم الامبراطور أنهم يعرفون واثقين أننا هناك ، والتاجر يقسم بجميع آلهة جبل الأولمب أنهم كاذبون .

كنت ، كما تعرف ، جحشاً فضولياً لا يقر له قرار ، وحين سمعت الأصوات الغاضبة ترتفع خارج الدار مددت عنقى قليلاً خارج نافذة العلبة لأعرف - إن استطعت - جلية الأمر . وقد اتفق أن كان أحد الجنود ينظر

إلى أعلى فى تلك اللحظة . لم يكن واقفاً حيث يمكنه رؤيتى بل لفت نظره رأسى وأذننى ملقى على جدار البيت المجاور . «انظروا ! انظروا !» هكذا قال ، فصاح جميع الجند واندفعوا إلى المتجر ، ثم صعدوا الدرج إلى مخبأى وانزلونى ، ثم فتشوا المتجر ذاته تفتيشاً دقيقاً وحين فتحوا الصندوق وجدوا صاحبه فيه . جروه إلى تحقيق القاضى وأخذ إلي السجن بتهمة خطيرة وهى سلب ضابط رومانى .

وقد دغدغت فكرة إطلالى من النافذة الجنود حتى صاروا يتندرون بها أياماً ، وألف شخص ما مثلين شهيرين عن وصلة الكلام : «كله بسبب جحش أطل !» وهو مثل سائر فى كل البلاد ، ولست أدري ما جرى لصاحبى فى اليوم التالى أو لصديقه التاجر ، لكن الشاويش الذى نال جزاءً وفاقاً لغطرسته قادنى من المعلق الذى ربطت إليه ، ولم يكن أحد ليمنعه ، وأخذنى إلى ما أحسبه سكنه حيث حملنى وجعل منى شخصية عسكرية كاملة . فقد وضع على قمة كوم متاعه وأدواته الساحقة ، خوذة نحاسية ساطعة ، ودرعاً ملمعاً يكاد يغشى لمعانه الأبصار ، ورمحاً ذا مقبض طويل بشكل غريب . ولم يكن هذا الترتيب ، الذى جعلنا أشبه بنموذج مصغر لجيش يهبط الطريق ، لم يكن من ضمن أوامر الفرقة العسكرية بل قصد به إدخال الرعب فى قلوب المدنيين . مضينا عبر سهل فى طريق جيدة ثم بلغنا آخر الأمر بلدة صغيرة حيث لم ننزل فى خان بل فى دار أحد المستشارين فى المجلس البلدى ، تركنى الشاويش هناك فى عهدة عبد ، ثم انطلق يقدم نفسه لقائده فى الحال ♦

فى بيت المستشار

لم يحدث لى شئ ذو بال فى الأيام القليلة التالية ، بيد أن على أن أسجل محاكمة قتل مثيرة جرت فى أثناء إقامتى هناك ، إذ أن شخصياتها الرئيسية كانت أصحاب مأوى : المستشار وزوجته وابنيه . وقد دارت أحداث الرواية من حولى . كان الابن تلميذاً نجيباً فى المدرسة وكان فى الحق مثال الكمال للفضائل كلها ، يفتخر به كل والد ، ماتت أمه منذ سنوات خلت واقرن والده بامرأة أخرى فكان له أخ غير شقيق يبلغ الثانية عشرة من عمره . وقد أطلق المستشار يد زوجته ، وكان حسنهما يفوق أخلاقها ، فى شؤون البيت . ولست قادراً على القول ما إذا كانت هى فاسدة بطبيعتها أم أن الأمر كان قدراً مقدوراً لم تستطع شيئاً حياله ، غير أنها على كل حال ، شغفت حباً جنونياً بربيبها . وليتبه القراء إلى أن ما يلى فاجعة وليس ملهاة ، وعليهم أن يقرأوه بذهن جاد يناسب المقام .

طيب . لقد وجدت الرابة (زوجة الأب) من اليسير عليها إخفاء مشاعرها الآثمة طالما ظل إله الحب الصغير طفلاً رضيعاً وأن تتكتم الأمر . فلما شب عن الطوق وشرع يلعب حيله موقداً اللهب الحارق بسهامه النارية فى فؤادها ادعت المرض سبيلاً وحيداً لإخفاء عذابها . والكل يعرف أن عوارض الحب الجسدية لا يمكن تمييزها من العلل المألوفة كالشحوب مثلاً ، أو العيون الكليلة ، أو وهن الركبتين ، أو الأرق ، وآهات تزداد لظىً بطول مدة الأزمة . وكان من الممكن حقاً أن تشخص شكواها بأنه برد

أصابها لولا مضاعفات بكائها المتواصل . ويقول فرجيل فى كتاب له :
«وأسفاه .. حين يكون النطاسيون بمثل هذا الغباء !» وقد حير الذين
عادوها سرعة نبضها ، وتقلب مزاجها ، وصعوبة تنفسها وتقلبها على
فراشها ، ولم يدروا ماذا يصفون دواء لها . يا إلهى ! إن أى تلميذ ساذج فى
مدرسة الغرام كان بمقدوره تشخيص الحمى من فوره !

ازدادت حالتها سوءاً يوماً بعد يوم حتى لم تعد تستطيع احتمال الألم ،
فمزقت ستار الصمت بأن أرسلت فى طلب ابنها الأكبر ، ابنها ! أوه .. لو
انها لم تكن ملزمة أبداً بأن تدعوه كذلك ، أو لو انها تمكنت من الامتناع عن
استعمال الكلمة التى كانت وخرّاً متصلاً لمشاعرها !

مضى الابن إلى مخدعها من توه والقلق يغضن جبينه كشيخ عجوز . لم
يكن يدرى ما تريده منه ، وإن شعر بواجب الذهاب إليها ما دامت زوجة
أبيه وأم أخيه . وحين دخل الغرفة لم تستطع أن تقول ما تبغى ، رغم أن
صمتها الطويل كاد يقتلها . فمشت على رمال الشك - إن صح التعبير -
وغمرها الخجل الشديد من أن تفتح الحديث بما أعدته فى ذهنها من كلمات
لهذه المواجهة الحرجة ، وعلى الفور سألها الربيب الذى لم يكن يساوره
شك دون مهلة وبعطف بالغ : «أماه .. ماذا بك حقاً؟»

انفجرت بالدمع ، وأخفت وجهها فى طرف منامتها ، واستطاعت أن
تقول والعبرات تخنقها : «أنت ! أنت من أصابنى بالداء ، وزيادة على هذا
فأنت الدواء الوحيد للحمى التى بى ، سوف أموت إن لم تشفىنى»
فصرخ مشدوهاً : «أنا ؟ ! ماذا فعلت لأصيبك بالعلة ؟»

«نظرت إليّ ! نظرت فى عيني وألهبت شيئاً فى داخلى ، إنى احترق
ببطء حتى الموت . لا تسمح بحيرة سخيصة عن حق أليك بمنعك من الرأفة
بى . إنها غلطتك أن أستلقى هنا فى مثل هذا العذاب ، وإن تفعل ما أطلب

منك تفعل ما ينفعه ، تنقذ زوجته من الموت . لا تلمنى إن أحبيتك ، فأنت نسخة أصغر من أبيك العزيز . هيا يا حبيبي ، فلا أحد هنا ولا شئ تخشاه ، هذه فرصة رائعة لتمتع بنفسك . قد تسمى هذا فحشاء ، غير أنه شئ يجب أن تؤديه ببساطة وأنت تعرف المثل القائل (لا جريمة اكتشفت فلا جريمة ارتكبت) .

أربكنه مفاجأة الكشف المدمر ، غير انه فكر فى ألا يكدرها بالرفض الكامل ، رغم ارتجافه من مجرد فكرة الاستجابة لطلبها . أخذ جانب الأمان بأن سألها تنتظر قليلاً وهو يعدها بكل ما أرادت . قال لها : «والآن يا أماء اهتمى بصحتك واطمنى بالأسجد فى القريب فرصة لأكون معك . لكن يجب علينا التريث حتى يسافر أبى !» ثم غادر الغرفة على عجل ، وصار الآن مجرد النظر إليها يصيبه بالإعياء . كان يعرف أن شمل الأسرة سيتمزق إلا إذا قام بالعمل الصائب ، فأسرع فى الحال إلى استأذه العجوز وأوضح له ما حدث .

فكر الشيخ مدة طويلة قبل أن ينبئه بأن خير نصيحة يقدمها له أن يفر قبل هبوب عاصفة القدر وأن يهجر البيت على الفور . لكنه بينما كان يأخذ أهفته وجدت رابته ، ولم تعد تطيق الانتظار يوماً أو يومين ، تكتة لترسل زوجها على عجل ليتفقد إحدى مزارعه البعيدة . وما أن خرج من بيته حتى أرسلت إلى ربيها رقعة ، فى حالة من الشوق العارم، تستوفيه وعده.

كان مقتها لها من القوة بحيث لم يستطع مواجهة لقاء جديد ، فأرسل لها يعتذر . ولما أعادت طلبها مرتين اختلق عذراً بعد آخر . فهمت فى النهاية أنه لا ينوى الحفاظ على وعده ، فتغير مزاجها على الفور وانقلب هواها الفاحش إلى كراهية شيطانية . دعت أحد عبيدها ، كان جزءاً من مهرها وله نظرة متحررة عن مقام الجريمة . وكشفت له عن كل أسرارها الأثمة ، تشاورا معاً وقررا أن خير ما يعمل فى تلك الأحوال أن يُسممَ الربيب ،

فأرسلت العبد الزنيم من توها ليبتاع حزمة من أقتل السم يمكن شراؤه ،
و حين عاد به أذابته فى قدح نبيذ وضعته جانباً ليشربه الريبب البرئ .

عند منتصف النهار ، وهما منشغلان فى مناقشة أفضل الطرق لتقديم
السم ، جاء ابن هذه المرأة الشريرة من المدرسة ، كان عطشاً فوجد قدح
النبيذ المسموم ، وبالطبع تجرعه دفعةً واحدة دون أن يخالجه ريبب فى انه
يحتوى على سم أعد لأخيه الأكبر ، فسقط على الأرض لا حراك به . طغى
الرعب من الكارثة على العبد الموكل إليه حملة إلى المدرسة ومنها ، صرخ
بأعلى صوته على الأم وعبيد المنزل ، وحين عُرف أن الصبى شرب كأس
نبيذ اتفق الجميع على انه لابد أن يكون قد سُم ، ولم يتفقوا على من وضع
السم فيه .

لزوجات الآباء سمعة الخبث تبررها تماماً هذه الحادثة . لم يفزعها موت
ابنها الفاجع بحال ، ولم يخفها الشعور بالذنب ، إدهى قاتلته ، ولا ما
ينتظر زوجها من أسى حين يؤوب . كل ما خطر فى بالها أنها فرصة رائعة
للاتنقام ، فأرسلت فى الحال تستدعى زوجها بخبر الكارثة ، وكان لها من
القحة ، حين أسرع بالعودة ، أن تقول له إن ابنها سمه ربيبها . وهذا حقيقى
مجازاً ، فقد كان سم أخيه الذى قتلته . بيد أن روايتها كانت أن ربيبها
عرض أمراً فاحشاً عليها فلما أبت الإصغاء ثأر بتسميم ابنها ، وزخرفت
هذه الاكذوبة الفظيعة بالقول أنه استل سيفه حين اتهمته بالقتل وتوعدها .

كان المستشار فى حالة من اضطراب الذهن مفزعة ، فهذا ابن ينتظر
الدفن ، ولا بد للآخر أن يدان ليموت بتهمة الفحش وقتل الأخ ، ولم يعد
يشعر نحوه بالإشفاق بل بالمقت ليس غير حين جاءته زوجته التى أحب
ووثق بها تنتحب بهذه الرواية المفجعة . وبعد اتخذت الترتيبات لجنائز
الصبى ، مضى الأب الشقى والدموع تجرى على خديه والرماد على شعره
الأبيض الذى كان يقطعه بقبضتيه ، مضى من كوم الجنائز التى لم تشعل فيه

النار بعد إلى السوق رأساً . وهناك فعل كل ما فى وسعه فى خطاب عاطفى وجهه للقضاة ليدينوا ابنه الحى ويحكموا عليه الموت ، متوسلاً ، يسكب العبرات ، بل مضى إلى حد معانقة ركب زملائه المستشارين .

اهتز القضاة بالعطف المشحون سخطاً وكذلك أهل البلدة الذين رغبوا فى التخلّى عن إجراءات المحاكمة الرسمية بنمط شهادات شهود الادعاء المملة وحجج الدفاع الطويلة ، وصاحوا : « ارجموه ! ارجموه ! » و « جريمة فى حق الأخلاق العامة ينبغى أن ينتقم لها جهاراً ! » ومهما يكن الأمر فقد خشى القضاة أن يتجاوز فى عمل سريع من أعمال العدالة قد يضعف من احترام العامة للقانون والنظام ويشجع على التظاهرات الشعبية ، فسألوا المستشار عونه لقرارهم أن يعقدوا محكمة على النسق المرعى بشهود يدعوهم الجانبان يستجوبون بدقة وحكم يصدر له صفة الجزم وقالوا : « لا أحد يدان دون أن يسمع كما لو أن هذا مجتمع بربرى أو طغيانى ، لا سيما فى مثل أيام الأمن هذه ، إن هذا سيكون سابقة مرعبة » .

قبل قرارهم السليم بالإجماع وأُرسل كاتب البلدة فى الحال ليدعو إلى اجتماع المجلس القضائى . وسرعان ما اجتمع الأعضاء فى القاعة وجلسوا حسب رتبهم وأقدميتهم ، ثم دعا كاتب البلدة المدعين ليقدموا قضيتهم وأمر بإحضار المتهم ، وأخيراً أعلن أنه على محامى الطرفين ، طبقاً للقانون الأتيكى Attic والإجراء الذى يتبعه الـ Areopagus ، أن يعرضوا القضية دون مقدمات أو لجوء إلى عواطف المحكمة لا ضرورة له . ولما لم أكن حاضراً فى أثناء المحاكمة أنا نفسى ، بل كنت مقيداً إلي معلقى ، فإن روايتى مستقاة بالضرورة من مصدر ثان عن طريق الأحاديث العارضة لزوار الحظيرة المتنوعين ، بيد أنى سأحرص على تسجيل ما عرفت بعد التدقيق فى الروايات أنه الحقيقة التامة .

حين فرغ محامو الطرفين من القاء مرافعاتهم ، واكتفى محامى الدفاع

بإنكار شامل لكل التهم ، قررت المحكمة انه لا يمكن إصدار الحكم فى قضية بمثل هذه الأهمية لمجرد القرينة واستدعوا عبد زوجة الأب الذى قال الإدعاء إنه الوحيد العارف بوقائع القضية كلها . وحين نهض ذلك المجرم ليدلى بشهادته لم يبد عليه أى اضطراب ، ورغم خطورة القضية وامتلاء قاعة المحكمة لم يساوره شك فى الحكم كما لم يخزّه ضميره مؤنباً . وقد أدلى ببيان طويل ، بعد أن أقسم اليمين ، وحسن من رواية سيدته بمبدعات من عنده . وكانت روايته أن الريب اشترى حزمة من السم ، بعد أن أذله ردّ محاولته الفاحشة ، ثم أرسل يطلبه ورشاه بمبلغ كبير من المال ليقتل فاه وأمره أن يقدم السم للصبي .

«عندها - يا أصحاب الفضيلة - رغم أنى أؤكد للمتهم أننى لن أفعل مثل هذا الشئ الشرير أبداً وانه يستطيع الاحتفاظ بنقوده - المتهم يعطينى الكأس المسمومة - هو يخلطها أمام عينى - ويقول يجب أن أعطيها للسيد الصغير ليشرب ، ولو أنى لا أفعل - آه - هو سيقتلنى أنا بدل السيد الصغير - طيب . أنا آخذ الكأس معى لكن أنا لا أعطيها للسيد الصغير ، ثم المتهم يأتى ورائى ويشك أننى أحفظ الكأس لأريه لأبيه مثل دليل ضده . هو يأخذ الكأس منى ويعطيه للسيد الصغير نفسه ، والسيد يشربه كله» * .

كان الشاهد ممثلاً جيداً ، وحين اختتم كلامه ، بعرض مقنع وإثارة معتبرة ، أعلن قفل القضية ، دون أن يعطى محامى الدفاع فرصة سماع شهادة الأستاذ الذى اتصل به الريب أو شهادة العبد الحاضر ، أخذ الصبي للقدح وشربه أو حتى المتهم البرئ نفسه . كان أعضاء المحكمة مقتنعين عدا مخالف واحد ، بأنه مذنب ، ولم يروا بديلاً للحكم عليه ، مهما بلغت طيبة قلوبهم ، كما نص القانون بأن يخاط عليه كيس من الجلد مع أربعة

* لاحظ هنا ركافة الأسلوب باعتباره عبداً أمياً جاهلاً .

حيوانات : كلب وديك وأفعى وقرود ، رموز الخطايا القاتلة الأربع ، ويلقى
فى النهر . لم يبق الآن سوى الاقتراع فى الوعاء النحاسى .

فلو اقترح بالموت حكماً تمت الإجراءات وسلم المدان إلى الجلاد .

فى اللحظة الأخيرة تقدم المخالف الوحيد - وهو طبيب شيخ موقر كل
التوقير ومستقيم تمام الاستقامة - وخاطب المحكمة واضعاً إحدى يديه على
فم الوعاء النحاسى ليمنع من قد يلقي بقرعته قبل الأوان .

«سادتى ورفاقى ! لى الفخر بأن أحسب أننى لم أخيب فى حياتى ظنكم
الحسن وآمل ألا أفعل اليوم برفض قبول قتل رجل برئ على يد القضاء -
رفض أن أدعكم تخذعون بأكاذيب عبد بليغة وأن تحنثوا باليمين التى
أقسمتموها جميعاً على أن تصدروا حكماً عادلاً غير منحاز . من اليسير لى
أن أظهار بموافقتكم ، غير أننى لن أخدع ضميرى ولن أكبت الاحترام
الواجب على نحو الأرياب بالتصويت فى جانب الحكم بالموت ، اصغوا
جيداً وسأمدكم بحقائق القضية .

هذا المجرم الذى كان يدلى بشهادته منذ قليل جاءنى منذ يومين وقدم لى
مائتى قطعة ذهبية ثمناً لسم زعاف سريع المفعول . قال إنه بحاجة إليه من
أجل صديق يعانى من مرض عضال أراد تحرير نفسه من يؤس الحياة
بالانتحار . كانت قصته ذلقة لكنها غير مقنعة ، وارتبت فى أن بالأمر خدعة
، ورغم أنى أعطيته حزمة السم فقد حرصت على ألا أكون شريكاً فى أية
جريمة تعتملى فى ذهنه بقبولى المبلغ على الفور . سألته أن يترك كيس النقود
فى صيدلىتى وأن يأتى معى إلى الصيرفى فى اليوم التالى ، وهو أمس ، ليزن
قطع النقود لثلا يكون أيها مزيفاً أو ناقص الميزان ، وفى هذه الأثناء ختم
الخيطة على عنق الكيس بخاتم ابهامه ، بناء على طلبى .

فلما لم يأت كما اتفقنا ، وسمعت فى المحكمة منذ قليل أنه سيدعى

باعتباره شاهداً ، أرسلت عبداً على عجل إلى بيتي ليحضر الكيس ، وها هو ، أروه طابع خاتمه واسألوه عما إذا كان يعرفه أم لا ؟ فإن ثبت أنه له لعجبتم كيف يجرؤ على اتهام السجين بشراء السم الذى اشتراه هو نفسه ! »

بدأ العبد يرتعد بشدة ، وانقلب وجهه مغبراً وتصبب منه العرق البارد . كان يخفف من وطأة ثقله بأن يراوح بين قدميه ، وشرع يلهث ويحك رأسه وهو يتمتم بلغو لا معنى له ، فلا يصدق ذو عقل براءته ، ثم استعاد رباطه جأشه وأنكر أنه زار الطبيب البته ورماه بالكذب . لم يعد الأمر قاصراً على أن الطبيب أقسم اليمين على أن يصدر حكماً عادلاً فى هذه القضية ، بل إن شرف مهنته صار الآن مطعوناً فيه ، فضاعت من جهده فى مناقشة العبد الحساب . وأخيراً أمر القضاة كتاب المحكمة أن يمسكوا بيده ويقارنوا خاتمه بطابع الشمع على عنق الكيس ، فتطابقاً تماماً .

طبقاً للعرف اليونانى بذلت محاولة لانتزاع اعتراف من العبد بأن عذب على (العذراء) * وأركب (الحصان الخشبي) * والأثقال معلقة فى قدميه وقرع قرعاً لاهباً . غير انه كان شديد الاحتمال ولم ينقص كلامه حتى عندما حرقوا قدميه بالجمر . وأخيراً قال الطبيب : « وشرفى ! لن أسمح أن يعاقب الشاب الموضوع فى قفص الاتهام بسببك لجرمة هو منها برئ ، ولن أدع هذا العبد يخدع المحكمة وينجو من العقاب على شره . اسمحو لى أن أقدم لكم دليلاً بيناً على صدق ما ذكرت . عندما جاءنى هذا الوغد عديم الحياء من أجل سم قاتل سريع تذكرت أن فن الطب ابتدع لإنقاذ الحياة الإنسانية وليس للقضاء عليها ، وقررت أنه من الخيانة لمبادئ مهنتى أن أبيع السم القاتل بالقوة * لكنى خشيت أن يقصد مكاناً آخر ، إن رفضت بيعه

* (العذراء) و (الحصان الخشبي) آلتان من آلات التعذيب .

** يتحول إلى قاتل بالفعل عند التنفيذ .

السم ، أو يرتكب جريمة القتل التى فى ذهنه بأداة أخرى - سيف مثلاً أو أقرب سلاح فى متناول اليد . وعليه فما أعطيته لم يكن فى الحقيقة سمّاً بل كان مخدراً يسمى (مندراغورا) وهو ذو مفعول شديد يسبب غيبوبة لا يميز فى الواقع بينها وبين الموت . فلا تندهشوا من استعداد هذا العبد فى قنوطه ، لمواجهة العذاب المألوف الذى أمرتم به ، فإن هذا العذاب مهما يكن لا يقارن بما سوف يلحقه اعترافه الفورى بذنبه من عقاب . فإذا ما كان الصبى قد تناول العقار الذى أعدته فعلاً فإنه لابد أن يظل على قيد الحياة ، وإن كان فى حالة إغماء ، وما أن ينتهى مفعول العقار حتى يقوم وتأتى هذه المحاكمة ألياً خاتمتها . أما إذا كان مات حقيقة ، فلا بد من بحث آخر للموضوع ، موته يرجع إلى أسباب لا علم لى بها .

كان هذا الكلام معقولاً ، فأجلت المحاكمة فى الحال ، واستبدت الإثارة بالجميع فتسابقوا نحو كوم خشب الجنازة ، القضاة وأعضاء المحكمة وكذلك بقية الجمهور . كان الأب هو السابق ، فرفع غطاء النعش لحظة أن كان الصبى يحاول الجلوس خارجاً من غيبوبته التى تشبه الموت . احتضنه إلى صدره ، ولم تواته الكلمات الرائعة المعبرة عن فرحته وبهيجته ، فأنزله صامتاً ليراه الجميع ، وجاء به على الفور إلى قاعة المحكمة وهو لا يزال ملفوفاً فى أكفانه .

لم تعد حقائق القضية موضع جدال ، فقد كشف سوء العبد وشر الرأبة الأعظم . وحكم على المرأة بالنفى المؤبد ، أما العبد فصلب وأهدى كيس النقود ومحتوياته بإجماع الأصوات ، إلى الطبيب الشيخ الفاضل ثواباً على الغيبوبة التى سببها وأدت إلى هذه النتيجة السعيدة ، وهكذا انتهت القصة نهاية روائية عجيبة ، كما لو أن أحد الآلهة هبط من مركبته السماوية ، أما المستشار الذى حسب نفسه منذ لحظات فاقد الولد ، فقد كان أباً لولدين مرة أخرى ♦

عند المدرب

كان ينتظرني تبدل في الحظ مفاجئ ، إذ بعث الشاويش الذي استولى عليّ من الحضري إلى روما محملاً من قائد فرقته برسائل إلى الامبراطور ، فباعني بأحد عشر درهماً إلى أخوين عبدى مطبخ لوجيه ثرى يدعى ثياسوس كان يعيش في المنطقة المجاورة . كان أحد الأخوين حلوانياً والآخر طاهياً اشتهر بأطباقه الشهية ومرقه اللذيذ اشتراى دابة حمل لنقل آنية المطبخ الكثيرة التى يحتاج اليها ثياسوس فى رحلاته . وقبلت شريكاً ثالثاً فى شركتهما ، ولم أنعم أبداً طيلة مدة تحولى بوقت أطيب مما قضيت معهما . كان من عادة صاحبى أن يحملا بقايا الطعام إلى غرفتنا الصغيرة كل مساء بعد أن يتعشى ثياسوس - وكان عشاؤه فائراً دائماً ، أحدهما يأتى بكمية هائلة من لحم الخنزير المشوى والدجاج والسمك وما شاكلها من الأطايب ، ويأتى الآخر بالخبز والفطائر والمطريات وجدائل الجبن المطوية والفالودج وضروب من الكعك بالعسل . وتعودت بعد أن يوصدا الباب ويقصدا الحمام ليتعشعا ، أن أمتع نفسى بالطعام الفاخر الذى وضعته الأرباب تحت إمرتى بكرم زائد ، لا أن أكون غيباً كالجحش حقيقة فأتركه مفضلاً عليه العشب الجاف الخشن فى معلفى !

وفقت فى اختلاسى توفيقاً رائعاً مدة طويلة من الزمان ، وكانت طريقتى أن أتناول قليلاً من كل طبق من أطباق المائدة الكثيرة ، إذ كنت أدرك أن صاحبى لن يرتاباً أبداً فى انه يمكن لجحش أن يقوم بمثل هذه الألاعيب . بيد

أن ثقتى فى نفسى زادت شيئاً فشيئاً وصرت آكل كل ما عنّ لي ، وكنت فى الواقع اتخير أفضل الأطباق فأتى عليها حتى ألعقها تماماً . وقد أخذت الحيرة والعجب صاحبى اللذين بدأ يلحظان خسائرها كل يوم ، ورغم انه لم يخطر ببالهما حتى تلك اللحظة أن يشكا فى أمرى فقد عزم كل منهما فى خاصة نفسه على معرفة اللص . ومن يومها شرعا يرقبان الأطباق مراقبة يقظة ويحصيان كل كعكة وشرحة لحم وكل منهما ينظر إلى الآخر شزراً كما لو أنه المختلس .

أخيراً تكلم الطاهى بصراحة فى صلب الموضوع : «حقيقة ، يا أخى ، هذا ما اسميه السلوك الخسيس للغاية ، إنك منذ زمن تسرق بقايا الطعام كل يوم ، بل أفضل ما فيه ، وتبيعها من وراء ظهري ، ثم تنتظر منى أن أناصفك ما بقى ، إذا كنت مللت شركة عملنا فلنفصلها على الرحب والسعة ، على شرط أن نعيش معاً بمودة فى أخوتنا ، وإلا فإن الشقة ستتسع ما بيننا كل يوم وتنتهى بخصام شديد» .

ردّ الحلوانى على الإهانة قائلاً : «يعجبني هذا ، وحق الآلهة يعجبني هذا ! ها أنت أولاً تسرق الطعام ثم تسبقنى بالشكوى التى كبحتها بصبر طيلة هذا الزمن - لقد قررت الصبر عليها ما استطعت على أن أرمي أخى بالصوصية - ولك من الوقاحة أن تتهمنى أنا ! يسرنى على كل حال ، انه يظهر هذا الأمر ، فيمكننا تسويته بطريقة ما فى النهاية ، بدلاً من إخفاء مشاعرنا حتى تلتهب وتهلكنا ... أتذكر تلك المسرحية التى شاهدناها عن الأخوين إتيوكليس وبولينيكس اللذين قتل أحدهما الآخر من أجل نصيب عادل من المشاركة فى حكومة طيبة ؟» .

ولم ينته تبادل الاتهامات إلا حين أقسم كل منهما يمينا غليظة انه لم يقترف أدنى خيانة أو أخذ أكثر من نصيبه من الطعام ، واتفقا على تكوين جبهة موحدة وأن يتخذا كل وسيلة ممكنة لاكتشاف من كان يسرقهم ، وقال

أحدهما : «من المستبعد تماماً بالطبع أن يكون هذا الجحش هو الجانى ،
فالحمير لا تحب طعامنا !» .

«ومع هذا يختفى الطعام ليلة بعد ليلة ، وليس غير الجحش فى الدار !»
«لا يمكن أن يكون الذباب» .

«يجب إذن أن يكون ذباباً عملاقاً بأجنحة مبسوطة عريضة كأجنحة
طيور العنقاء - تلك المخلوقات التى كانت تسرق الملك فينيوس عشاءه
أيام بحارة الأرغو !» .

هذا التبدل المقبول فى قوتى من العلف إلى الطعام الإنسانى ، وهو طعام
كثير ، كان له أثر فى تسمينى وتنعيم جلدى القائم المسفوح وكسائى وبراً
حريراً بديعاً ، وهذا ما وشى بى ، إذ أدرك صاحبائى أن سميتى تضاعفت
عما كنت عليه يوم اشتريانى ، رغم تركى طعامى اليومى من العشب
المجفف دون أن يمس ففكروا : «يكون الشاطر كما يفعل الشاطر !» وذات
يوم تظاهرا بالذهاب إلى الحمام كالعادة وأوصدا الباب من خلفهما ، وظلا
يبصان خلال شق فيه وشاهدانى أعمل بهمة فى الأطياب التى تركاها .

نسيت كل شئ عن خسائرهما ، وانجرا ضاحكين ضحكة عالية من هذا
المنظر العجيب - منظر الجحش ذواق الطعام ! ناديا عدداً من العبيد
الآخرين ليتبادلوا النظر من الشق وينظروا إليّ فى حفلى . هل رأى أحد
شيئاً مثل هذا فى حياته من قبل ؟! كان ضحكهم عالياً وقد طال حتى اتفق
أن مر بهم سيدهم ثياسوس فرام أن يعرف ما الذى يضحكهم ، فسألوه أن
ينظر من خلال الشق ليرى بنفسه .

ضحك حتى أوجعته بطنه ، ثم فتح الباب وظل يراقبنى عن كذب فلما
أدركت أن حظى لم يظل فحسب بل تحسن مضيت أكل على راحتى ،
وكلما علا ضحكه زاد تملكى لنفسى . وفى النهاية سحرته غرابة المشهد

فأمر بأن اقتاد إلى غرفة العشاء - كلا بل قادنى هو نفسه إليها حين أذكر وكانت المائدة قد أعدت فأمر بكل صنف من الطعام أن يوضع أمامى ، بما فيها الأطباق التى لم أمسسها بعد . ورغم شعورى بالامتلاء تماماً فقد كنت متلهفاً على ارضائه ما استطعت وأكلت كل ما أعطانى كما لو أننى لا أزال مفتوح الشهية .

أحاط الفضول بثياسوس وصحابه أن يعرفوا بالضبط ما يمكن أن آكله . ففكروا فى كل شئ تكرهه فى الغالب الحمير وقدموه لي اختباراً لأدبى مثلاً لحم مطيب بالسلفيوم ، ودجاج متبل وصنف من السمك المملح المجلوب من الخارج . وما أعلى ما اهتزت أخشاب السقف بالضحك وأنا أنظف كل طبق !

فى الختام سأل مهرج الحفلة : «والآن .. ماذا عن قليل من النبيذ لضيفنا.. هه؟!» فقال ثياسوس : «ليست فكرة سيئة على الاطلاق ، أيها الخبيث ! يمكننى القول بأنه لن يرفض قدحاً من النبيذ العسلى - هيا يا غلام ، أغسل ذلك القدح الذهبى غسلاً جيداً ، وقدمه لضيفى ! وقل له إننى أيضاً أشرب نخب صحته الطيبة !» .

ترقب الجميع النتيجة بتطلع متوتر ، وقدم لى القدح الضخم ، ودن أن أتوقف لأرى أمن الحكمة شربه زممت فمى كأننى أتلمظ انتظاراً وتجرعت القدح دفعةً واحدة وإن كان بطريقة شرب رقيقة لسكير خبير !

عاصفة من التصفيق ، وارتفعت الأنخاب فى صحتى . وأرسل مضيفى المغتبط فى طلب الأخوين وتعهده بأربعة أضعاف الثمن الذى دفعاه من أجلى . بعدها أودعنى عند أحد عتقائه الطيبين كان متعلقاً به أشد التعلق وطلب منه أن يعاملنى بأكبر الاهتمام . وقد أظهر العتيق رقةً وإنسانية نحوى وبذل كل ما وسعه ليثبت حسن ظن ثياسوس به بتعليمى بعض الألعاب .

فعلمنى فى البداية كيف أتكى على المائدة معتمداً على أحد مرفقى . ثم كيف أصارع ، بل حتى كيف أرقص على قدمى الخلفيتين . وأخيراً - وهذا ما أكسبنى إعجاباً خاصاً - كيف استخدم لغة الإشارات فتعلمت أن أطرق برأسى علامة الموافقة واهزه إلي الوراء علامة الرفض . وكذلك كيف انقلب إلى الساقى حين أكون ظمناً وأبين عن حاجتى للشراب بأن أغمز بعين أتبعها بالأخرى . كنت تلميذاً ذكياً نجيباً ولا غرابة فى هذا فى الواقع ، إذ كان يمكننى القيام بهذه الألعاب كلها دون تدريب على الإطلاق ، لكننى خشيت أن أسلك سلوكاً إنسانياً دون توجيه سابق ، إذ سيعتبر أغلب الناس هذا نذير سوء ، وقد أجد نفسى مصلوباً باعتبارى شيطاناً ، وقد يقطعون رأسى ويلقون بجيفتى السمينة إلي الطيور الجارحة .

انتشرت قصة مواهبى الفذة فى كل صوب ، وصار صاحبى لهذا ذائع الصيت بسببى . وكان الناس يقولون : «فكر فى هذا ! إن عنده جششاً يعامله معاملة الصديق ويدعوه إلي المائدة معه ، صدق أو لا تصدق إن ذلك الجشش يستطيع المصارعة ، بل إن يرقص بالفعل ، ويفهم ما يقوله الناس له ، ويستخدم لغة الإشارات !»

هنا يجب عليّ أن أنبئكم ، رغم تأخر الوقت ، من كان ثياسوس أصله من كورنثة عاصمة أكايا ، ولما كانت رتبته رفعتة بنجاح إلى جميع المناصب الصغرى التى خولته إياها مكانته ومقامه ، فقد صار الآن قاضى كورنثة للسنوات الخمس القادمة . ولما كان العرف يتطلب منه أن يحيا حياة ترقى إلى مستوى شرف منصبه يقدم عرض تسلية للجمهور ، فقد أخذ على عاتقه أن يقدم عرض مصارعة يدوم ثلاثة أيام دليلاً على سخائه . وهذا ما أدى إلى وجوده فى شمال البلاد ، إذ كان يحاول إرضاء مواطنيه بشراء أشد الحيوانات ضراوة واستتجار أشهر المصارعين من ثاليا بأجمعها . أما وقد حصل الآن على حاجته كلها فقد أصبح على وشك العودة إلي كورنثة

راضياً بما اشتراه . غير أنه بدلاً من أن يركب إحدى عرباته الفاخرة - ما كان منها مغطى وما كان بغير غطاء تأتي في مؤخرة رتل حشمه الطويل ، أو يعلو صهوة أحد خيول الصيد الثسالية الثمينة أو الصافنات الغالية الجياد ، فضل أن يمتطى ظهرى بحب قائلاً إنه صار يحتقر كل أشكال النقل الأخرى . وقد صرت الآن استمتع بعدة مذهبة ، من سرج جلدى أحمر ، ووقاء ظهر أرجوانى ، وشكيمة من الفضة وأجراس صغيرة كانت تصلصل فى أثناء سيرى . وكان يكلمنى بالطف بأسلوب ينبئنى مثلاً عن مدى حبوره أن يملك جواداً يمكنه أن يعده صديقاً له . فلما بلغنا مرفأ يولكوس صعدنا السفينة بمعرض وحوشنا وأكملنا رحلتنا بطريق البحر ، بحرين على ساحل بويتيا وأنيكا حتى وصلنا كورنثة حيث تدفق حشد هائل لتحيتنا ، وظنى أن أكثر الناس كانوا هناك ليرونى أكثر ممن كانوا للترحيب بثياسوس .

كان كثير من الزوار يرغبى مشاهدة ما أقوم به حتى أن مدربى قرر كسب بعض المال عن سبيلى . فأقفل أبواب الاسطبل وصار يتقاضى ثمناً عالياً لدخول شخص واحد فى كل مرة . وكان ما يكسبه كل يوم مبلغاً كبيراً . وكان من بين الزوار امرأة سرية غنيّة ، فتتها ألعابى المتنوعة ، وقررت فى النهاية أن تتعرف عليّ عن كثب

فلما مضى مدربى إلى ثياسوس بتفصيل الخبر كافأه بقدر كبير من المال ، وصاح : «رائع ! رائع ! هذا ما نحتاج إليه بالضبط ليكون عرضنا حياً ، لكن يا للأسف ! إن حبيبته امرأة سرية ولن يسمح لها أهلها أبداً» .

أخفقت الإعلانات التى وزعت فى مواخير كورنثة فى أن تجد متطوعة تحل محلها ، فمن الجلى انه ما من امرأة كانت منبوذة إلى حد أن تباع ما تبقى من سمعتها ولو بالمبلغ السخى المعروض . وأخيراً لم يكن على ثياسوس أن يدفع شيئاً ، فقد حصل على امرأة حكم عليها بأن تطرح للوحوش ، ففكر أن يجعل منها خدينةً ليّ ، وكان علينا أن نحبس معاً فى

قفص واحد وسط ساحة المسرح الحاشد .

كنت سمعت قصة هذه المرأة من قبل ، فمئذ سنوات قبل ذلك اليوم خرج والد الصبي الذى صار زوجها فى ما بعد فى سفر طويل ، وأمر زوجته ، التى كانت تنتظر طفلاً آخر ، أن تتده إذا ما جاء بنتاً . ولدت بنتاً ولم يطاوعها قلبها على تنفيذ الأمر فسألت جارة لها أن تربي الطفلة نيابة عنها ، وحين عاد زوجها أنبأته بأن الطفلة ماتت . فلما شبت الطفلة وبلغت سن الزواج لم يكن فى قدرة الأم أن تقدم لها مهراً يخوله إياها مولدها أو أن تزوجها دن علم أبيها . فقررت أن تطع ابنها على السر . وكان لها سبب آخر يدفعها لهذا العمل ، إذ لم تكن الفتاة تعرف ابنة من فى الحق كانت - ثم ما العمل لو أن سوء الحظ أوقع أخاها فى حبها وحاول إغوائها؟

أحسن الأخ ذو الخلق الطيب بضرورة إطاعة أمه وسلك مسلك الأخ الحنون . صان سر العائلة وبدا كل ما فعله لأخته مجرد عمل من أعمال البر . آواها فى بيته وجعل الناس يحسبون أنها يتيمة بدون راع شرعى لها يربها ، عزم على تزويجها من أفضل أصدقائه ، وأخذ على عاتقه أن يقدم هو مهرها .

أثار هذا الترتيب البرئ المعجب إلهة الحظ لتكيد كيداً أكبر مما ألفت . كان الأخ متزوجاً من المرأة التى أحكى قصتها ، وقد قادتها غيرتها المرة من اليتيمة المفترضة فى النهاية إلى ارتكاب سلسلة من الجرائم حكم عليها من أجلها بأن تطرح للوحوش . ارتابت فى أن زوجها اتخذ الفتاة خليله له وأنه ينوى أن يتخذها زوجاً ، فلما صارت الربة مقتاً دبّرت خطة قاسية للغاية للتخلص من غريميتها .

سرقت خاتم زوجها وذهبت لتزور بيتها الريفى ، ومن هناك أرسلت عبداً يقول للفتاة إن الزوج يريد أن تزوره بأسرع ما يمكن دونما رفيق ،

وأرى العبد الموالي سيدته ، البالغ اللؤم ، الفتاة الخاتم برهاناً على أن الرسالة عاجلة وصحيحة .

كانت الفتاة تتلهف على إطاعة أخيها - إذ كانت عرفت وحدها دون غيرها انه أخوها - وكان للخاتم الأثر المطلوب ، أسرعت بمفردها إلى البيت الرفي حيث وقعت في الفخ المنصوب لها ، هُجِمَ عليها بغیظ رهيب ، وجُرَّت من ثيابها وضُرِبَت حتى كاد يقضى عليها ، وقد أجبرها الألم أن تبوح بالسر ، فصاحت من بين عبراتها : «إنه أخى ! إنه أخى !» بيد أن كلماتها ذهبت هباءً ، إذ لم تلق السلفة بالأإليها ورفضت قولها باعتباره محض اختلاق ، ثم أخذت شعلة ملتهبة دفعتها في بطنها فماتت الفتاة عذاباً.

سمع الأخ وصديقه الذى كانت ستزوجه الفتاة بخبر موتها المفجع وجاءا بجثمانها إلى البيت ليدفنها ، وكل منهما يندبها . وكان الخبر أقسى وقعاً على الأخ ، إذ كانت زوجته آخر من يودّ في الدنيا أن يكون القاتل ، أخذ إلي فراشه وذهنه يديره الغمّ حتى أصابته حمى المخ وارتفعت حرارته ارتفاعاً أياأس الجميع من شفائه إلا بعون عقار قوى المفعول للغاية .

بعد هذا مضت زوجته التى أسقطت حقها في أن تسمى كذلك ، إلى طبيب عرف عنه فقدانه مبادئ المهنة فقداناً كبيراً - وكان قتل جملة من المرضى بناءً على طلب أقاربهم وهو يتباهى بهذا النجاح في جلساته الخاصة - وعرضت عليه ستمائة قطعة ذهبية نظير سم زعاف ، فلما وافق عادت إلى زوجها وقالت له إنّ عليه شراب دواء يعرف عن النطاسين المشهورين باسم (الجرعة المقدسة) له أثر إزالة آلام المعدة وإفرازاتها ، والحق طبعاً أن الجرعة المزوجة له لم تكن مقدسة بالنسبة لأبوللو ، إله الشفاء ، بل لبروسرين ، ربة الموت .

كان أعضاء الأسرة كلها حاضرين ، وكذلك عدة أصدقاء وأقارب ،

عندما دخل الطبيب بالجرعة ، حركها جيداً فى قدحها وقدمها للمريض . لكن القتالة عقدت العزم بجسارة على أن تتخلص من شريكها فى هذه الجريمة الجديدة وتوفر على نفسها دفع المال فى الوقت ذاته . فلما أشرف المريض على أخذ القدح منعه قائلة : «أيها الطبيب ! أشعر من واجبى باعتبارى زوجة أن أصر على تذوقك هذا الدواء أنت نفسك قبل إعطائه لزوجى العزيز ، أريد الاستيثاق من انه لا يحوى سمّاً ، وإنى لواقعة من أن رجلاً متعلماً وحريصاً مثلك لن يخرج بطلى ، إنه مجرد طلب صورى » .

أخذ الطبيب بشقة هذه المرأة ذات العقلية الدموية فى نفسها حتى انه لم يستطع التفكير تلك الآونة ، فى عذر يرفض به طلبها . لو انه أبدى أقل خوف أو تردد لشك كل الحاضرين فى انه دس السم فى القدح ، فأجبر على أن يرشف منه رشفة كبيرة ، واحتذى الزوج حذوه واثقاً وشرب ما تبقى .

كان هذا كل ما هناك إبانها ، وقد أراد الطبيب الإسراع إلى بيته حتى لا يفوت وقت أخذ ترياق يبطل أثر السم الذى شرب . بيد انها كانت ماضية فى إتمام عملها الجهنى ولم تدعه يغيب عن ناظرها . قالت له : «يجب أن تمكث هنا حتى تبدأ الجرعة عملها ويمكننا الحكم على أثرها فى صحة زوجى» رجا أن يؤذن له بالخروج واعترض على حبسه دون ترخيص ، فلما أذنت له بالذهاب كان السم يمزق أمعائه . استطاع أن يبلغ بيته بعد عناء من ألم مبرح ولم يكن له سوى ساعة قبل أن يموت ليخبر زوجته بما حدث ويطلب منها أن تأخذ على الأقل المبلغ المشروط نظير السم ، وكانت هذه نهاية هذا الطبيب المشهور .

أسلم مريضه الروح بعدئذ بقليل ، وبكت القتالة طويلاً بخداع على جثمانه . بعد أيام ، وقد انتهت شعائر الجنازة عند قبره ، جاءت أرملة الطبيب وطلبت مبلغها مشيرة إلى أن جرعتى قتل تمنا بثمن جريمة واحدة . وظلت القتالة وفية لطبيعتها ، فأجابتها بأكثر الكلمات مودة وإظهار لحسن

النية مقنع بأنها ستدفع لها المال بالطبع - لو حصلت على قليل من نفس المزيج لتكمل العمل الذى بدأته .

خدعت أرملة الطبيب وأعلنت أنه يسرها إرضاءها ، وحاولت مدركة أن القاتلة امرأة غنية ، أن تحصل منها على شئ بأن أسرع إلى بيتها فى الحال وجاءت بصندوق السموم كلها تلك التى كانت لزوجها الطبيب المرحوم . وبسلاح الجريمة الكامل هذا فى يدها كانت على أهبة المضى فى القتل على نطاق واسع . كان لديها ابنة صغيرة من زوجها الذى قتلته لتوها ، وساءها أن الطفلة ، باعتبارها أقرب الأقرباء إلى أبيها ، سترث ثروته كلها ، كانت تريد لنفسها عن آخرها ، وكانت طلبت المشورة القانونية فاكشفت أن للأمهات ، مهما كانت صفاتهن الخلقية ، أن يدركن دائماً رجعة ما أورث أطفالهن . وهى فى الواقع أبانت عن نفسها أمماً سيئة كما كانت زوجة سيئة . فلما دعت أرملة الطبيب إلى الإفطار ودست السم فى طعامها فعلت الشئ نفسه لابتنتها الصغيرة . اختنقت الطفلة ثم ماتت فى الحال تقريباً ، أما أرملة الطبيب فقد أدركت ما حدث حين أحست بالسم الزعاف يعمل فى أحشائها وبدأت تنفس بصعوبة ، فاندفعت إلى بيت الحاكم وهى تصرخ فى طلب العدالة قائلة انها على علم بجرائم بشعة لتكشف عنها . أيدها حشد كبير وأذن لها الحاكم بمقابلته فى الحال ، وأخبرته القصة برمتها من البداية حتى النهاية ، ثم لف رأسها الدوار وانقل فمها متشنجاً ، وصكت أسنانها الأرض ووقعت جثة هامدة عند قدميه .

كان الحاكم قادراً مجرباً وقرر ألا يبطئ فى تقديم هذه المرأة الكريهة المتهمه بقتل خمسة أشخاص إلى قصاص عاجل . أرسل يستحضر جواربها من فوره ، وعذبهن حتى بُحْنَ بالحقيقة ، وحكم عليها بالموت على أساس إقرارهن . ولا ريب انها تستحق مصيراً أفظع من مجرد طرحها للسباع ، لكن هذا كان أنسب حكم خطر على بال الحاكم آنذاك ♦

الربة إيزيس تتدخل

هذه هى المرأة التى قضى بأن أعاشرها علناً ، وهو فعل يكاد يرقى إلى مرتبة الزواج الشرعى ، فكنت أترقب يوم العرض يلفنى الغم الشديد ، تراودنى فكرة الانتحار لكيلا أدنس نفسى ويلحق بى العار الأبدى بمضاجعة هذه المخلوقة الخبيثة أمام أنظار مدرّج المسرح بأجمعه .

وأسفاه ! لم يكن لى أصابع ولا راحة يد ، فكيف لى بأن أستل سيفاً بقرمة حافرى المستديرة ؟ لم يبق لى سوى أمل ضئيل واحد يعزىنى فى محنتى وهو أن العام الجديد جاء أخيراً وستنبت الأزهار على طول الأرض وعرضها تنشر بهاء ألوانها الساطع عبر المراعى ، وتنبثق براعم الورد السجينة فى الجنائن من سيقانها ذات الأشواك وتفتح ويضوع أريجها الفواح . مرة واحدة أذوق فيها أوراق الورد وأعود لوكيوس من جديد .

جاء اليوم الموعود أخيراً وحملت إلى المسرح وسط الجموع المبهجة فى بداية حفل طويل . وفى أثناء القسم الأول من العرض الذى خصص للرقص التمثيلى الصامت وضعت عند مدخل المدرج حيث أسعدنى أن أرعى شيئاً من العشب الطرى وجدته نامياً هناك ، وأنا أرفع رأسى بفضول بين الفينة والفينة لأشهد العرض من خلال البوابة المشرعة .

استهل الحفل بعدد من الصبيان والصبايا الملاح فى ثياب فاخرة يخطون باعتزاز فى تيه من الرقص الإغريقى البورى البديع . تندمج أحياناً مجموعات مختلفة من الراقصين فى الحلقة ثم تخرج منها ، وأحياناً تشتبك

أيديهم جميعاً ويرقصون جنباً إلى جنب عبر المسرح ، ثم ينقسمون إلى أربع مجموعات تنغلق لتكوّن نهاياتها المتكسرة مربّعات من الراقصين ، وأحياناً أخرى ينفصل الجنسان بغتةً ، ويفترق الصبيان والصبايا عن بعضهما البعض ، ثم نفخ فى البوق إذاناً بالانسحاب وعلامة انتهاء حركات الرقص المعقدة هذه . ورفعت الستائر الخلفية لتكشف عن عرض أكثر اتقاناً.

كان المنظر عبارة عن نموذج جبل من الخشب ، قصد به جبل إيدا الشهير الذى ذكره هوميروس ، قطعة جليّة من معمار المسرح ، شاقو العلوّ ، تعمة الخضرة وتملاه عشرات الأشجار وقد دبر مصمم المنظر حيلة ليتفجر جدول من قمة الجبل ويسيل على جانبه ، وكان قطع من الماعز يرعى الكلاً وراع شاب يتمشى حولها ، مرتدياً ثياباً آسيوية فضفاضة . وعلى رأسه تاج من الذهب . كان يمثل باريس الراعى الفروجى . ثم تقدّم غلام مليح عار لا تكسوه سوى عباءة فاخرة على كتفه ، ومن بين خصل شعره الطويل الأصفر يمكن للمرء أن يرى جناحين ذهبيين صغيرين ، وقد أظهر قضيب الأفعى وصولجان البشير اللذين حملهما ، انه الإله ميركورى . تقدم وهو يرقص إلى باريس ثم قدم له تفاحة ذهبية ، وأفصح له عن رسالة جوبتر بلغة الإشارات ، ثم رجع بمهابة . بعدها ظهرت الشخصية التالية ، وكانت يونو ، تلعب دورها صبية بديعة الحسن ، على رأسها إكليل أبيض ، وفى يدها سيف ، ثم دخلت مئزاً تعدو . يمكن التعرف عليها بيسر عن طريق خوذتها الساطعة بوشاحها من أوراق الزيتون كما لو انها على أهبة القتال . تبتعتها صبية أخرى ذات حسن باهر وبشرة إلهية فلا يمكن أن تكون سوى ينوس - قبل زواجها ، ولكى تبرز جمال جسدها إلى أبعد مدى لم ترتد شيئاً على الإطلاق عدا ميدعة رقيقة من الشفّ كانت هبات النسيم الفضولية تطيرها جانباً لتتيح نظرة غرام مختلصة وكان جسدها أبيض بياضاً يبهر العين لترى أنها هبطت من السماء ، وكانت ميدعتها الشفوف

زرقاء لتبين انها ستعود بعد قليل إلى مقرها فى البحر .

كان يرافق كل صبية من الصبايا اللاتى أدين أدوار الرباط أتباعها . كان ليونو ممثلان يشخصان كاستور وبللوكس ، وقد حذرت من هما عن طريق خوذتيهما بشكل نصفى البيضة التى ولدا فيها لأمهما ليذا وقد رسم عليها النجوم المدببة - برج الجوزاء . تقدمت يونو نحو باريس بهدوء تصاحبها موسيقى لطيفة تنبعث من مزمار بنغم أيونى . وكانت إيماءاتها القصيرة الواثقة تأكيداً لباريس انها سوف تجعله امبراطوراً على آسيا بأجمعها لو حكم بأنها أجمل الثلاث .

وكان تابعا منيرفا شابين يمثلان الرعب والخوف ، يرقصان بتهكم أمامها بسفين مسلولين ، وورائهما زمّار يعزف لحن الحرب بنغم دورى ، وقابلت الدقات العنيفة تلك الصرخات الحارة التى هيّجت الراقصين إلى حالة من الوجد كأنها نداء النفير إلى المعركة . وقد شاركت منيرفا ذاتها فى الرقص وهى تهز رأسها يمنة ويسرة وعيناها تلمعان كأنهما خنجران والتواءاتها السريعة المستثارة تعد باريس أنها ستعينه ، لو أصدر حكمه فى صالحها ، على أن يصبح أشجع محارب شهدته الدنيا وأكثره توفيقاً .

ثم جاءت فينوس ، حلوة البسمات ، فحياها الجمهور بعاصفة من الترحيب . تقدمت إلى وسط المسرح ، ومعها مدرسة كاملة من الأولاد الصغار الباسمين ، محتشدين حولها ، تحسبهم لأجسامهم البضة وبشراتهم البيضاء ، كيوييدات حقيقية هبطت من السماء أو خرجت من البحر . وكان لكل منهم جناحان صغيران وجعبة سهام (وهذه لمسة لطيفة) يحملون مشاعل مضاءة كما لو انهم يرافقون مولاتهم إلى صبحية زفافها . ثم دخلت مجموعة كبيرة من الصبايا الفاتنات ، أحلى الحسان وأجمل حوريات الفصول ، ينثرن على طريق فينوس باقات الزهر استرضاءً لها ، باعتبارها مليكة الملذات كلها ، بقطوف زهر الربيع .

وفى الحال انطلقت المزامير بالأنغام الليدية العاطفية ، وقد فتن الجمهور حين شرعتا ينوس ترقص على الموسيقى بخطوات بطيئة متهادية وهزات خفيفة من رديفها ورأسها ، وحركات لا تكاد تدرك من ذراعيها ، لتناغم ألحان عازف المزمار الرقيقة . وكانت ترف أهدابها بشكل شهوانى ، أو تفتح عينيها على سعتها لتنبعث منها نظرات هوى ، حتى بدت أحياناً وكأنها ترقص بعينيها وحدهما ! وما أن جاءت أمام القاضى حتى وعدت بإيماءات ثابتة أنها لو فضلت على منافستها لزوجته بأجمل امرأة فى الدنيا - صورتها الإنسانية ، فأسلمها باريس الشاب التفاحة الذهبية علامة فوزها .

حسن .. أنتم يا أدنى الأندياء ! نعم .. أنا أشير إلى مهنة القانون كلها جميعكم يا كتبة القانون أشباه الأنعام ، ويا أيها المحامون أشباه الجوارح - أمندهشون أنتم حقاً من فساد القضاة المحدثين ، ولديكم الدليل هنا على انه من أقدم عصور الإنسانية ، فى هذه المحكمة التى تعقد لأول مرة ، نرى ذلك الراعى البسيط ، الذى عينه جوبتر ذاته ليحكم فى قضية كانت ترجّ السماء والأرض ، يستسلم لرشوة جنسية مفضوحة ، مما أدى إلى هلاك أسرته عن آخرها ، ويبيع حكمه فى المحكمة المفتوحة ؟ كلا .. أيها السادة ! وأنتم تذكرون سابقة بعدها حين حكم أغاممنون ، قائد عام الجيوش اليونانية الأشهر ضد طروادة ، حكم على بالاميديس العالم الحكيم بالموت ، على أساس أنه خائن ، وهو يعلم تمام العلم أن التهم الموجهة إليه باطلة ، وتذكرون أيضاً قضاءه فى النزاع بين أوديسوس وأجاكس فى أى منهما كان الأشجع قلباً . كان يعلم انه لا يمكن الاعتماد دائماً على شجاعة أوديسوس وأن أجاكس يفضلّه كثيراً ، ومع هذا قضى لمصلحة أوديسوس ، أما عن أولئك واضعى القانون الذائعى الصيت ، أولئك المثقفين اللامعين ، أولئك العلماء المشهورين ، أهل آئيننا فى الزمن القديم ، فما هو الحكم الذى أصدروه فى قضية سقراط ذاك الذى أشاد بحكمته هيكمل دلفى فوق حكمة

البشر أجمعين ؟ أأست محقاً فى قولى أنه بغدر وغيره عصابة خبيثة ذئب
بإفساد الشباب - والحقيقة أن فلسفته كانت موجهة نحو كبح جماح
عواطف الشباب وليس إثارتها - وحكم عليه بالموت بأن يشرب قدح
الشوكران المسموم ؟ لقد ترك هذا لطخة لا يزول أثرها على سمعة العدالة
الأثينية ، إذ حتى يومنا هذا يرى الفلاسفة ، أولئك المتطلعون إلى صورة من
صور السعادة الإنسانية ، مذهبه أصدق المذاهب الدينية ويقسمون باسمه .

اغفروا لى هذا الاستطراد ! أسمع قرائى يعترضون : «هيه .. ما هذا
كله ؟ هل سندع جحشاً يحاضرنا فى الفلسفة ؟» نعم .. لعل الأفضل أن
أرجع إلى قصتى !

وكما كنت أقول ، أصدر باريس حكمه . انسحبت بعدها يونو ومنيزا
من المشهد ، يغمر يونو الأسى ويهز منيزا الغضب ، وكل منهما تعبر فى
عرض صامت عن شعورها بالمهانة لعدم فوزها بالجائزة . أما ينوس فقد
رقصت جذلاً هى وأتباعها . ثم تفجرت نافورة من الخمر ممزوجة بالزعفران
من أنبوب مخفى على قمة الجبل ورشت رخاتها العنزات الراعية الكلاً
بشؤبوب معطر فتحول شعرها الأبيض إلى اللون الأصفر الفاقع عرفت به
فى العادة قطعان الماعز على جبل إيدا ، وعبق مدرج المسرح كله بالعطر .
بعيدها حركت آلات المسرح وانشقت الأرض ليختفى الجبل عن الأنظار .

بعد هذا جرى أحد الجنود على طول ممشى المسرح الرئيسى ، حتى خرج
منه ، لياتى بالقاتلة التى رغم الحكم عليها (كما أوضحت من قبل) بأن
تلتهمها السباع ، قضى أولاً بأن تكون عروسى المجيدة . كان فراشنا الذى
رُكِّبَ عليه دَرَقَة سلحفاة هندية ، فى موضعه وقد مدت من فوقه حشية
فاخرة من الريش وغطاء سرير صينى مطرز . لم أكن مفزعاً من الدور
المهين الذى كان على القيام به فحسب ، بل مرتعباً من الموت . خطر لى أنه
إذا ما أقفل علينا القفص وجاء الوحش ، ودوره فى المسرحية أن يأكلها ،

واثباً يدخل قفص زواجنا ، فلا يمكن الاعتماد على حكمته الطبيعية أو تدريبه تدريباً جيداً أو عفته البالغة ، فيمزقها إرباً إذا ما التصقت بى تاركاً إياى دون أن يمسنى بأذى !

وبينما كان ثياسوس منشغلاً داخل القفص يضع اللمسات الأخيرة على السرير ، وبقية حشم بيته يظهرون إعجابهم بفخامة المنظر أو يهيئون لعرض الصيد الذى كان سىلى استراحتنا ، فكرت فى الفرار . وكان لى من سمعة الوداعة واللفظ ما صرف أنظار الجميع عن مراقبتى فلم تكن ثم عين تلاحقنى . فدنوت من بوابة المسرح الخارجية ، وكانت قرية غاية القرب ، ووليت الأدبار بأقصى سرعة وقطعت ستة أميال فى شوط واحد حتى وجدتنى فى سنكرياي ، أشهر مقاطعات كورنثة ، تلك التى يغسلها بحر إيجة من جانب وتغسلها مياه خليج كورنثة من الجانب الآخر .

لسنكرياي مرفأ أمين مكتظ دائماً بالزائرين ، لكننى كنت أبغى الابتعاد عن الناس ، فمضيت إلى شاطئ مهجور ومددت جسدى المنهك فى غور من الرمل قريب من حيث تكسرت الأمواج . كان الوقت مساءً وعربة الشمس على وشك إنهاء رحلة يومها عبر السماء ، فأسلمت أنا أيضاً نفسى إلى الراحة ، وغلبنى فى الحال سبات حلو عميق .



لم يمض وقت طويل حتى صحوت فى زعر مباغت . كان القمر بدرأ باهر الضوء يرتفع من البحر ، ففى ساعة السر هذه تمتلك ربة القمر ، مليكة بني الإنسان الوحيدة ، أكبر سلطانها وجلالها ، إنها الربة المشعة التى لا ينتعش بأثرها المقدس الحيوانات وحشيتها وداجنها فحسب بل كذلك الجمادات .

تلك الربة التى يسيطر مدُّها وجزرها على إيقاع كل جسم مهما كان ، فى الجو والبر وأعماق البحار . كنت مدركاً هذا تمام الإدراك ، فعقدت

العزم على مخاطبة صورة الربة المريئة طالباً عونها ، فقد بدا أن ربة الحظ قررت أخيراً أنني عانيت ما فيه الكفاية وأن تعرض عليّ أملاً في الخلاص .
وثبت أهرز رأسي أطرد النعاس ، وقصدت البحر لأتطهر بمائه ، غطّست رأسي تحت الأمواج سبع مرات - الرقم سبعة ، طبقاً لتعاليم الفيلسوف فيثاغوراس ، رقم يوافق كل المناسبات الدينية - وبشوق جذل تلوت هذه الصلاة الصامتة إلى الربة العلة والدموع تسحّ على وجهي المشعر :

«يا مليكة السماء المباركة ! ما إذا كنت تفضلين أن تعرفني باسم سيريس أم الحصاد الأصلية التي حرمت ، فرحة بعثورك على ابتك المفقودة بروسرين ، أن يتخذ أجدادنا ثمر شجرة البلوط قوتاً لهم وأعطتهم الخبز المأخوذ من تربة إليوس الخصيبة - أو باسم ينوس السماوية التي تعبد الآن في يافوس التي يكتنفها البحر ، من قرنت في زمن الخلق الأول بين الجنسين بحب متبادل وأوجدت بهذا وسيلة يواصل بها الإنسان توالد نوعه إلى الأبد - أو باسم أرتيمس أخت فويوس أبوللو الطبية ، ميسرة آلام المخاض عن النساء ، والتي تعبد في حرم إفسوس العتيق - أو باسم بروسرين المربعة من يزق لها البوم في الليل ، وبوجهها المثلوث الفعّال ضد حقد الأرواح الشريرة تبقيها سجينة تحت الأرض . أنت يا من تجوسين خلال كثير من الغياض المقدسة ويتقرب إليك بطقوس كثيرة مختلفة . أنت يا من يضئ نورها النسوى جدران كل مدينة ، وينمى شعاعها الضبابي البذور السعيدة في التربة ، أنت يا من تتحكمين في مدار الشمس وقوة أشعتها ذاتها - أدعوك بأى اسم من الأسماء وأى مظهر من المظاهر وأى شعيرة من الشعائر ، تفضلين أن تذكري بها ، ارحميني من كربتى الشديدة ، أرجعي حظي المبعثر ، امنحيني الطمأنينة والسكينة ، بعد طويل هذه الآلام المتوالية ، أنهى عنائي وعذابي ، خلصيني من هذا الاستخفاء الكريه في ثوب ذوات الأربع ، أعيدني إلى أهلي ، إجعليني لوكيوس مرة أخرى ، وإن كنت

أسأت لبعض القساة قسوة لا يمكن التخفيف منها ، عزم على تنغيص حياتي ، فامنحني على الأقل هبة مؤكدة ، امنحني الموت ! » .

فلما أتممت صلاتي وأخرجت مرارة قلبي المههور عدت إلى غور الرمل حيث غلبني النوم ثانية ، لم أكد أغمض عيني حتى شرع طيف امرأة يبرز من وسط البحر بوجه بالغ البهاء حتى لتخر الأرباب ذاتها على وجوها تتعبده . ظهر الرأس أولاً ثم تبعته بقية الجسد الساطع كله شيئاً فشيئاً ، ووقف أمامي متوازناً على سطح الأمواج نعم .. سأحاول وصف هذه الرؤيا المتعالية ، رغم فقر الكلام البشري ومحدوديته . ولعل الربة ذاتها تلهمني خيالاً شعرياً ، يكفي لنقل بعض من إشارة صغيرة عما رأيت .

كان شعرها الكث ينحدر جدائل مستدقة الأطراف على عنقها البديع ، متوجة بإكليل معقود نيط به كل نوع من أنواع الأزاهير وعلى جبينها شعّ قرص مدور ، كالمراه أو كوجه القمر الساطع أنبأني من تكون .. وقد انتصبت أفاع عن يمين مفرق شعرها ويساره ، تستند هذا القرص ، وبجانبا سنابل القمح . وكان ثوبها المتعدد الألوان من أفخر القماش ، كان جزء منه أبيض ناصعاً وآخر أصفر فاقعاً وثالث أحمر قانياً ، طراز على حوافه الزهر والثمار يؤرجحها النسيم . لكن ما شدّ عيني أكثر مما عداه كان رونق السواد الفاحم في وشاحها الذي تدلى من كتفها الأيسر إلى ردفها الأيمن ، مثبتاً إلى كتفها بعقدة تشبه ترصيعة الدرع ، وعلق جزء منه في طيات لا تحصى ، يرتعش خرجه ذو العذبات . كان مطرزاً بأنجم لامعة على حاشيته وكل مكان آخر ، وفي وسطه شعّ قمر مكتمل يتقد .

في يدها اليمنى أمسكت بمجلجلة نحاسية من ذلك الصنف المستعمل في طرد أله الريح الجنوبية ، نقش طرفه الدقيق على مثال حزام السيف تتخلله أفقياً ثلاثة قضبان صغيرة ، ترسل صليلها كلما هزت المقبض وعلى ناحيته اليمنى علق طبق ذهبي على هيئة سفينة ، وعلى طول سطح المقبض

تلوّت أفعى متنفخة الرقبة ، ارتفع رأسها على أهبة غرز أنيابها ، وفى قدميها المقدّسين خفان من سعف النخيل ، رمزاً للنصر .

تسربت إلى منخرى عطور بلاد العرب كلها ، حين تفضلت الربة بمخاطبتى : «ها أنت ذا ترانى هنا يا لوكيوس - استجابة لصلواتك ، أنا الطبيعة ، الأم الكونية ، سيدة العناصر كلها ، ابنة الزمن الأولى ، مولاة الروحيات جميعها ، مليكة الأموات ، ملكة الخالدين كذلك ، مظهر الأرباب والربات أجمعين ، إيماءتى تحكم السماوات العلى الشاهقة ، ونسائم البحر المعافية ، وصمت العالم السفلى الفاجع . ورغم أنى أعبد بمظاهر كثيرة وأُعرف بأسماء لا تحصى ، ويتقرب إليّ بكل شكل من الشعائر المختلفة ، فإن الكرة الأرضية عن آخرها تبجلنى . الفروجيون القدماء يسموننى بسيئونتكأ أم الأرباب ، ويدعونى الآثينيون ، الذين ظهرت فى أرضهم ، أرتميس ، وعند أهل جزيرة قبرص أنا أفروديت اليافئة ، ولدى رماة السهام فى كريت أنا ديكتونا ، وعند الصقليين ذوى اللغات الثلاث ، أنا بروسرين الستوجية ، وعند الإليوسيين أنا أم القمح العتيقة .

يعرفنى بعض الناس باسم يونو وبعضهم باسم بللونا المواقع الحربية ، وآخرون باسم هيكاتى ، وغيرهم باسم رهامنويا ، أما جنس الآثيوبيين من على أرضهم أولاً تشرق شمس الصباح والمصريون المتفوقون فى العلم القديم ومن يعبدوننى بطقوس تناسب ألوهيتى ، فيدعوننى باسمى الحقيقى ، وهو على التخصيص : الملكة إيزيس . لقد جئت شفقة عليك من محنتك ، جئت لأمنحك فضلاً وأعينك ، لا تبك بعد الآن ، ولا تنتحب فقد حانت ساعة الخلاص مشرقة بنورى الحارس .

اصغ جيداً لأوامرى ..

لقد كرست نواميس الدين الأزلية اليوم المولود هذه الليلة لعبادتى ،

وغداً يقدم لى كهنتى بواكير ثمار موسم الإبحار الجديد بتدشين سفينة لى ،
 إذ فى هذا الموسم تفقد عواصف الشتاء قواها وتسكن الأمواج الشائرة ،
 ويصبح البحر ممكن الإبحار فيه مرة أخرى . عليك أن تنتظر هذا الحفل
 المقدس بعقل لا يقلقه التفكير فى المستقبل ولا تظلمه الأفكار الدنسة ،
 سوف آمر الكاهن الأكبر بأن يحمل إكليلاً من أنورد فى احتفالى مربوطاً فى
 الصولجان الذى يُحمل فى يده اليمنى . لا تتردد ، إدفع الجمع الحاشد جانباً
 وألحق بالاحتفال واثقاً فى فضلى . ثم اقترّب من الكاهن الأكبر كما لو أنك
 تبغى تقبيل يده ، والتهم الورود بفمك وستنسلخ فى الحال من جلد الحيوان
 الذى كان بالنسبة لى دائماً أشد الحيوانات مقتناً فى الوجود .

وليعمر الإيمان قلبك ، فوق كل شئ ، لا تظنّ من العسير إطاعة أوامرى ،
 ففى هذه اللحظة نفسها ، وأنا أخاطبك هنا ، أوجه تعليماتى المكملّة لكاهنى
 الأكبر فى نومه ، ونزولاً على أوامرى سوف تفسح لك جموع الناس غداً
 الطريق . ثق بأنه ما من أحد سينظر إلى شكلك القبيح مستفطعاً ، فى غمرة
 فرحة وضحك الاحتفال ، أو يجرؤ على تفسير عودتك المفاجئة إلى هيئة
 الإنسان تفسيراً شريراً . عليك فقط أن تتذكر ، ولتحفظ كلماتى هذه سرّاً
 مكنوناً فى فؤادك . إنك الآن وإلى آخر يوم فى حياتك مكرس لخدمتى . من
 الصواب أن تنذر حياتك كلها للربة التى تعيدك إنساناً . وفى حمايتى سوف
 تسعد وتشتهر ، وحين تهبط إلى أرض الأرواح فى نهاية عمرك المقدور ،
 ستجد مناسبات متتابعة تتعبد لى فيها فى نصف الأرض السفلى سوف
 ترانى من حقول إلوسيسوس ملكة العالم الستوجى العميق مشعة من ظلمة
 أكبرون بنور لطيف هادئ مثلما أريك الآن . فإذا ما وُجدت أهلاً لحمايتى
 المقدسة بالطاعة التامة لفروض دينى وبالعفة الكاملة ، فستدرك هذا ، وأنا
 وحدى لى القوة على أن أمدّ فى عمرك أكثر مما مدده القدر» .

ومع هذه الكلمات تلاشى طيف الربة التى لا تقهر ، واختفى .. ♦

البحش يتحول

نهضت من فورى صاحياً تمام الصحو ، يعمني عرق الحبور ، والخشية غمرت نفسى فى ماء البحر ، دهشاً فوق ما تعبر عنه الكلمات ، وأنا أسترجع أوامر الربة وفى نيتى أن أطيعها حرفاً بحرف . وبعد قليل أشرقت الشمس الذهبية لتبدد ظلمة عتمة الليل ، وفى الحال غصت الطرقات بالبشر ، يمشون عبرها ، كما لو أنهم فى مسيرة انتصار دينية . وبدا العالم كله ، وليس أنا وحدى ، تملأه البهجة ، وعكست الحيوانات والبيوت ، بل حتى الطقس نفسه ، الجذل والصفاء الكونيين . إذ تبع صقيع الأس صباح مشمس رائق ، وكانت الأطياء تشدو بألحانها ، واثقة من قدوم الربيع ، ترحب بملكه النجوم ، أم الفصول ، سيدة الوجود ، وقد أيقظت الأشجار كلها كذلك ، لا أشجار ظل الجنائن فحسب ، نسما ت الجنوب الدافئة من نومة الشتاء ، توشىها الأوراق الخضر ، وتهز أغصانها بحفيفها العذب . وسكن هدير أمواج الشواطئ الصخرية وصخبها ، إذ همدت الزوابع ، واختفت كتل السحب الدكناء ، وشعت السماء الصافية بزرقة ضوئها العميقة .

عند ذلك ظهرت طليعة الموكب العظيم للعيان . كانت مكونة من عدد من الرجال يلبسون ثياباً مبهرجة اختاروها ، رجل يتقلد سيفاً ، وآخر فى ثياب صياد وقد شُدَّت وسطه عباءة ثقيلة مع سكين صيد ورمح ، وثالث تنكر فى شكل امرأة ، يرتدى خفين مذهبين ، وشعراً مستعاراً ، وثوباً من

حريـر وجواهر ثمينة . ثم جاء رجل فى قدميه حذاء عال يبلغ منتصف ساقه وقد تدرع ، ووضع على رأسه خوذة وفى يده سيفاً ، وكأنه خرج لتوه من مدرسة المصارعين . تلاه آخر فى ثياب قاض بقبائه الأرجوانى وصولجانه . تبعه فيلسوف بعباءته وعكازه وقبـقابه ولحيته التى تشبه لحية التيس . ثم صياد سمك بعصا طويلة وسنارة . آه .. نعم . جاءت بعده دبة مروضة ترتدى ثياب امرأة محمولة فيودج ، وقرد على رأسه قبعة من القش ، يلبس عباءة فروجية معصفرة ، وقبض فى مخليه على قدح من الذهب - نموذجاً ساخراً لغانوميد ساقى جوبتر الوسيم . وأخيراً مَرَحمارُ ألصق إلى كتفيه جناحان وقعد على على كفله شيخ طاعن فى السن يرتجف ، فلو رأيت هذا الثنائى لضحكت كما لم تضحك أبداً - إذ قصد بهما بيغاسوس وبيلليروفون .

وكان هؤلاء المهرجون ، مرتدو الثياب الخيالية ، يتجارون بين الجمع الحاشد - ثم جاء من بعدهم الموكب الحقيقى المهيـب .

مشت فى المقدمة نسوة يتوج هاماتهن الزهر ، يخرجن زهراً آخر من طيات ثيابهن الجميلة البيضاء ، وينثرنه على طول الطريق ، وفى كل إيـماء منهن تبدو الفرحة «بالمنقذة» . عقب هذا جاءت نسوة أخريات شُدت إلى مؤخرات رؤوسهن المرايا ، توهم من تبعهن أنهن قادمات للقاء الربة وليس المسير أمامها . ثم تقدمت أخريات ، يحملن فى أيديهن أمشاطاً من العاج ، قمن بحركات تمثيلية يمـشطن شعر الربة الملكى . وفريق آخر يحملن قوارير العطر ، يرششن الطريق بالبلسم وعطور فاخرة غيره ، ومن ورائهن مزيج من النساء والرجال يغنون للربة «ابنة النجوم» . يتقربون إليها بكل نوع من أنواع الضياء - المصابيح والمشاغل وقناديل الشمع وما إليها بسبيل .

بعدها جاء عازفو الموسيقى بالمزامير والنايات ، اتبعوا بفريق من مغنى الجوقة الصبيان أحسن اختيارهم ، ينشدون ترنـيمة بين فيها شاعر ملهم منشأ

الاحتفال . وكان هناك أيضاً زمارو معبد الإله سيرابيس العظيم ، يعزفون نشيدهم الدينى بالمزامير ، وقد انحرفت أفواهها وتقوست أنابيبها حول آذانهم اليمنى . ثم عدد من حاملى الصولجان والألعبانات وهم يصيحون : «أفسحوا الطريق .. طريق الربة !» ثم لحق بهم جمع كبير من مريدى الربة ، رجالاً ونساءً من كل الطبقات والأعمار، تستطع ثيابهم الكتانية النقية البيضاء . وقد عقصت النساء شعورهن فى ثنايا لامعة تحت أغطية رؤوسهن الشفوفة ، وحلق الرجال رؤسهم تماماً - يمثلون نجوم الربة الأرضية الساطعة - يحملون مجلجلات من النحاس والفضة والذهب لا تتوقف صلصلتها الحادة عن الرنين .

ثم جاء من بعد ذلك الكهنة ، يرتدون أيضاً ثياباً بيضاء من الكتان، شُدَّت على صدورهم وانحدرت طويلة حتى أقدامهم ، يحملون رموز الديانة الكهنوتية ، وقد أمسك الكاهن الأكبر بسراج وهاج لا يشبه البتة تلك السرج التى نستعملها على الموائد ، كان سراجاً من الذهب ، صنع على هيئة قارب ، ينبعث من فتحة وسطه لسان من اللهب . أما الكاهن الثانى فأمسك فى كلتا يديه بوعاء القربان - أو : الماعون - ويشير الاسم إلى عناية الربة بمعونة عبَّادها . وحمل الكاهن الثالث نموذجاً مصغراً لنخلة سعفها من الذهب ، وكذلك قضيب ميركورى على هيئة الحية . وحمل الرابع نموذج ليد يسرى مبسوطة الأنامل ، رمز العدل ، إذ تبدو اليد اليسرى ببطنها الطبيعى وافتقارها إلى الخفة والحذق أكثر إنصافاً من اليد اليمنى . كما حمل أيضاً إناءً من الذهب مدوراً على شكل ثدى امرأة يسيل من حلمته على الأرض مجرى من اللبن . وحمل الخامس منسفةً نُسجت بقضبان الذهب لا من القش، ثم جاء رجل، غير الخمسة، يحمل جرة نبيذ .

تلا فى الموكب بعد ذلك تلك المعبودات التى تنازلت بأن تسعى على الأقدام البشرية . ها هنا كان رسول آلهة السماء وأرباب الأموات المرعب ،

أنوبيس ، بوجه نصفه أسود ونصفه الآخر ذهبي اللون ، يمشى منتصباً قابضاً على عود المنادى فى يد وفى يده الأخرى جريدة من نخيل خضراء . وبعده جاء رجل يرقص حاملاً على كتفيه تمثالاً لبقرة قائمة تمثل الربة باعتبارها أمنا المخصبة . ثم جاء كاهن بصندوق يحوى الرموز السرية لديانتها الرائعة . وكاهن آخر محظوظ برمز قديم من رموز أقداستها مخبأ فى ثنايا ردائه . ولم يكن هذا قد صنع على هيئة أى حيوان ، وحشياً كان أو داجناً ، أو أى طير أو إنسان ، بيد أن جمال صنعته الفائق ، إلى جانب أصالة تصميمه ، يبعث على الإعجاب والخشية . لقد كان رمزاً لأسرار الربة العلية التى تفوق الوصف ولا يجوز أبداً إفشاؤها . كان عبارة عن إناء صغير من الذهب المصقول تزاوجت فوقه الحروف الهيروغليفية المصرية ، بقاع مدور ومئزاب طويل ومقبض فاخر النقوش تمددت عليه أفعى رافعة رأسها ، كاشفة عن عنقها الأحرش المغضن المنفوش .

وأخيراً جاءت اللحظة لتنزل على البركة التى وعدت بها الربة العلية . اقترب الكاهن الأكبر ، مناط رجائى فى الخلاص ، ورأيته يحمل المجلجلة والإكليل فى يده اليمنى تماماً كما وعدت - لكن .. أوه .. لقد كان أكثر من إكليل بالنسبة لى . كان تاج النصر على ربة الحظ القاسية أنعمت به على إيزيس بعد أن احتملت كثير الشقاء ومررت بعظيم الأخطار !

عمتنى الفرحة المفاجئة ، بيد أنى أمسكت عن أن أركض فى الحال وأفسد موكب المهرجان الهادئ بسلوك حيوانى . بل تسللت بلطف وأدب فى سبيلى بين الجموع التى أفسحت لى الطريق ، بتدخل من الربة دون شك ، حتى خرجت فى النهاية من الجانب الآخر . رأيت على الفور أن الكاهن قد نبه بما ينتظر فى رؤياه الليلة الماضية ، وإن كان يغمره الذهول من تحقيق الرؤيا بهذا الرفق . وقف ثابتاً مكانه ومد إكليل الورد إلى مستوى فمى . ارتجفت وارتفعت دقات قلبى وأنا أكل تلك الورد بلذة المحب . وما

أن ابتلعته حتى وجدت أن الوعد كان حقاً وصدقاً . تلاشت ملامحي الحيوانية ، تساقط الشعر الخشن من فوق بدني ، واشتد كرشى المرتخى ، وانفصل حافراي الخلفيان ليصيرا قدمين وأصابع ، ولم يعد حافري الأماميان يستخدمان في المشي عليهما وحده بل أعيدا يدين للاستعمال البشري . ثم تقلص عنقي ، واستدار وجهي ورأسي ، وصغرت أسناني الكبيرة الصلبة إلى حجمها الطبيعي ، وقصرت أذنائي الطويلتان ، واختفى ذيلي - الذي كان أكبر خزي لي - اختفاءً كاملاً .

ارتفعت شهقة من التعجب ، ورفع الكهنة أيديهم إلى السماء ، وقد أدركوا تطابق المعجزة مع رؤيا الكاهن الأكبر للربة العظيمة ، يهللون لما وهبتى الربة من نعمة - هذا التحول السريع إلى هيئتي الحقيقية .

عندما رأيت ما حدث لي ، تسمرت على الأرض ذاهلاً ، ولم أستطع أن أنطق بكلمة مدة طويلة وقد عجز عقلي عن متابعة مثل هذه الفرحة العظيمة المباغتة . لم تواتني الكلمات المناسبة لشكر الربة على لطفها الغامر الخارق ، بيد أن الكاهن الأكبر - وقد أخبرته الربة بكل شقائي وكان مأخوذاً بالمنظر الغريب - أمر بإشارة منه أن أُعطى كساءً يسترني . إذ فعلت بالطبع بمجرد أن استعدت هيئتي البشرية ما يفعله أي امرئ عريان - ضمنت ركبتى بعضهما إلى بعض ووضعت كلتا يدي لأستر عورتى ، فخلع أحدهم ثوبه الخارجي وغطاني به . بعدها حلق في الكاهن الأكبر برفق وهو لا يزال في دهشته من مظهرى البشرى الكامل ، ثم قال :

«لوكيوس .. أيها الصديق ! لقد تحملت وقمت بأعمال كثيرة وصبرت على لفحات ريح الحظ العاثر كلها ، وها أنت أخيراً تصل مرفأ الأمان وتقف أمام هيكل اللطف الودود ، لم يكف أصلك النبيل ولا ربتك ولا عملك ، لمنحك من الوقوع عبداً للذة ، مأخوذاً بطيش الشباب . وقد أكسبك فضولك عديم الحظ عقاباً مشؤوماً ، غير أن ربة الحظ أسلمتك هنا ، بعد أن

قذفت بك بخبث من خطر إلى خطر ، دون أن تفكر فى ما كانت تفعله ، إلى السعادة الدينية . دعها تغرب الآن وتتقد غيضاً حيثما طاب لها ، ولتجد لعبة أخرى ليديها القاسيتين . فلا سلطان لها على أولئك المنذرين حياتهم لعزة وخدمة جلال إلهتنا بالشمطاء ! ما الذى أفادته بإيقاعك فى يد اللصوص والكلاب المتوحشة والأسياذ الغلاظ الأكباد ؟ ما الذى أفادته بوضع قدميك على الطرق الحجرية الخطرة ، ووضعك أنت فى رعب من الموت كل يوم ؟ استرح واثقاً من انك الآن آمن فى حماية ربة الحظ الحقيقية «العناية» التى ترى كل شئ، من يسطع نورها الجلى لجميع الأرباب . ابتهج الآن كما يتتهج مرتدى الكتان الأبيض ، اتبع متصراً حاشية الربة التى أنقذتك ، دع الكفرة يروك ، وليشهدوا حين يرونك ، بخطأ طريقهم . فليصيحوا : «انظروا .. ها هو لوكيوس .. أنقذته الربة إيزيس من مصير رهيب ، شاهدوه مجدداً فى هزيمته لحظه العائر» لكن عليك لكى تحفظ مكاسب اليوم أن تسلك نفسك فى هذه الطريقة المقدسة كما تعهدت البارحة أن تفعل ، وتأخذ طوعاً على عاتقك ما تلزمك به إيمانك . فإن خدمتها هى الحرية الكاملة»

فلما أنهى الكاهن الأكبر خطابه الذى ألهم ، انضمت إلى حشد النسّاك ، ومضيت مع الموكب قدماً وجميع أهل كورنثة ينظرون إليّ بفضول . كان القوم يشيرون إليّ أو يومئون برؤوسهم نحوي قائلين : «انظروا ! ها هو لوكيوس أعيد إلى هيئة الإنسان بقوة الربة القديمة ! يا له من رجل محظوظ أن يكسب حبها بفضل طهره وسلوكه الحسن السابقين ! وها هو يولد من جديد ويقبل فى التوّ ضمن عبادها الواصلين !» . وقد علت أصواتهم لي بالتهانى لا تنتهى عند حد .

فى هذه الأثناء كان الموكب يمضى على مهل واقتربنا من شاطئ البحر حتى بلغنا أخيراً نفس المكان الذى اضطجعت فيه الليلة الماضية على هيئة

جحش ، وهناك رُتبت الرموز المقدسة بنظام معين، وهناك أوقفَ الكاهن النقى الشفتين وكرّس للربة سفينةً رائعة الصناعة ، نقش على كامل هيكلها كتابات هيروغليفية مصرية ، وقد بدأ بأن طهرها بعناية بشعلة موقدة وبيضة وشئ من الكبريت .

كان الشراع من الكتان الأبيض الناصع ، كُتبت عليه بحروف ضخمة دعوات تطلب حماية الربة للسفن في موسم الإبحار الجديد . وارتفعت السارية المصنوعة من خشب شجر الشربين بقمتها المشعة ، ونحن نعجب بمقدمة السفينة الموهبة بالذهب والمشكلة على هيئة عنق إوزة . إيزيس المقدسة وبُهرابها الطويل المصقول الذى قد من خشب شجر الليمون الصلب . ثم شرع الحاضرون جميعهم ، كهنة وعامة الناس ، ينضدون المناسب بحماسة على ظهر السفينة مشحونة بأنواع البخور وقرابين للشكر غيرها ، ويسكبون قدراً هائلاً من اللبن قرباناً فى البحر . فلما حُمِلَت السفينة بالتقدمات والنذور من أجل الحظ الحسن قطعوا حبال مراسيها ، وانزلت عبر الخليج ، تدفعها نسمة هادئة من خلفها ، بدا انها هبت لها وحدها . فلما غابت فى البحر عن الأنظار ، حمل الكهنة الرموز مرة أخرى، ورجعنا تغمرنا السعادة فى طريقنا إلى المعبد بنفس تنظيم الموكب الذى سبق .

عند وصولنا أدخل الكاهن الأكبر والكهنة حاملو الرموز الهيكلية إلى حرم الربة ، واتباع آخرون ، ووضعوها فى أماكنها المعينة لها ، ثم رأس أحدهم ، ويعرف باسم (أستاذ اللاهوت) ، عند باب الحرم ، اجتماعاً لحملة الهيكل ، كما تدعى أعلى طبقة من كهنة إيزيس . ارتقى منبراً عالياً يحمل كتاباً وقرأ يبارك «مولانا الامبراطور ، ومجلس الشيوخ ، وطائفة الفرسان ، وعموم أهل روما ، وجميع البحارة والسفن المدينة بالطاعة للسلطات المذكورة» ، ثم نطق بالصيغة اليونانية التقليدية : «پلويافيسيا» - ومعناها أن

السفن مأذون لها الآن بالإقلاع، فردت الجماهير بهتاف عظيم ، وتوزع الناس عائدين سعداء إلى بيوتهم ، وقد أخذوا معهم كل ضروب الزينات ، مثل أغصان الزيتون والشجيرات المعطرة وأكاليل الزهر ، بعد أن قبلوا قدمي تمثال فضى للربة ، كان منصوباً على درج المعبد . أما أنا فلم أشعر بالرغبة فى أن أتحرك قيد أنملة من المكان ، بل وقفت وعيناي مثبتتان بانتباه على التمثال ، أستعيد فى ذاكرتى كل ما مر بى من نكبات .

فى تلك الأثناء ، كان خبر ما مرّ بى من تجارب ، والخير الفياض الذى تفضلت به عليّ الربة ، قد عم الآفاق حتى بلغ أخيراً مدينتى (مدورة) حيث بُكيت باعتبارى قد متُّ . وعلى الفور نسى عبدانى وخدمى وأقاربى الأقربون أحزانهم وهرعوا على عجل إلى كورنثة ، يملأهم السرور ، ليرحبوا بعودتى من العالم السفلى ، كما هو الحال ، وجاءونى بكل ضروب الهدايا . كنت مبتهجاً برؤيتى إياهم كما ابتهجوا برؤيتهم إياى - وقد قنطت قبلُ من أن نفعل - وشكرتهم مرة بعد مرة على ما جاءونى به ، وكنت ممتناً لخدمى خاصة إذ أتوا إليّ بكل ما احتجت من مال وثياب .

تحدثت إليهم واحداً بعد آخر ، ولا يزيد هذا عن واجبى ، أخبرهم بما انقضى من بلايا وبما يتظرنى من سعادة مرجوة . ثم رجعت إلى ماصار أكبر متعة لى فى الحياة ، التفكير فى الربة . واستطعت نوال الإذن باستعمال غرفة فى المعبد والمشاركة فى شعائر عبادتها التى حرمت منها قبلئذ ، وقبلنى الإخوان كفرد منهم تقريباً ، ناسكاً مخلصاً للربة العظيمة .

لم أقض ليلة واحدة ، أو ألّم بى الكرى ، دون رؤيا جديدة منها ، وكانت تأمرنى دائماً بأن أنخرط فى سلك أسرارها المقدسة التى قُدِّرتُ لها منذ زمن بعيد . كنت شديد اللهفة على إطاعتها ، غير أن الخشية الدينية منعنتنى ، إذ وجدت - بعد السؤال والبحث الجادين - أن الانخراط فى سلك الطائفة يلزمنى بحياة صعبة للغاية ، وخاصة فيما يتعلق بمسألة العقّة ،

وأن على السالك أن يكون على حذر دائم من أى رجس حادث . ورغم أن القضية كانت تشغلنى ، فقد أجلت اتخاذ القرار بطريقة أو أخرى ، ذلك القرار الذى كنت أعرف أن عليّ اتخاذه عاجلاً أم آجلاً .

ذات ليلة حلمت بأن الكاهن الأكبر جاءنى ، وحجره مملوء بالهدايا ، فلما سأله : «ماذا لديك؟» أجاب : «شئ من ثساليا ، لقد وصل عبدك كانديدوس لتوّه» فلما استيقظت من نومى ظلمت متحيراً من الحلم مدة طويلة وأنا أتساءل عن مغزاه ، لا سيما أننى لم أملك أبداً عبداً بهذا الاسم ، بيد أنى كنت على اقتناع بأن ما عرضه الكاهن الأكبر عليّ أمر طيب مهما كان ، وحين اقترب الفجر ، صرت أترقب فتح باب المعبد فى حالة من التوقع القلق . شدّت ستائر الحرم البيضاء بعدئذ وصلينا لوجه الربة الجليل ، ثم مضى كاهن يطوف بالمذبح يودى شعائر الصباح بابتهاال موقر ، ومن قدح فى يده سكب ماء القربان الذى جئ به من نبع داخل أسوار الحرم . فلما انتهى القدّاس حيّت جوقة اليوم الجديد بترنيمة عالية كانوا ينشدونها دائماً فى أولى ساعات الصباح .

فُتحت الأبواب ، ودخل لدهشتى ، عبادي اللذان تركتهما ورائى فى هوباتا عندما وضعت فوتيس ، بخطأها النحس ، حول عنقى رسناً . وكانا سمعا بقصة ما جرى لي وأحضرا لي كل أمتعتى ، بل تمكنا أيضاً من استرجاع جوادى الأبيض ، بعد أن تداولته الأيدى ، بأن عرفا ميسمي على كفله . فهمت الآن مغزى حلمى ، لم يأتيا لى بشئ من ثساليا فحسب ، بل استعدت حصانى كذلك ، وهو ما أشير إليه بجلاء فى الحلم باعتباره «عبدك كانديدوس» - إذ أن «كانديدوس» تعنى : الأبيض .

ومن بعد نذرت وقتى للقيام بخدمة الربة ، مدفوعاً بهذه الأمارات لكى أرجو إشارات من فضلها أكبر ، وازدادت رغبتى فى تقبل الأوامر القدسية عما قبل . وكثيراً ما حدثت الكاهن الأكبر عن هذه الرغبة راجياً إياه أن

يعلمنى أسرار الليلة المقدسة . كان رجلاً رزيناً ملحوظ الرعاية التامة لواجباته الدينية ، فكبح جماح قلقي كما يهدئ الآباء أطفالهم حين يطلبون طلباً غير معقول ، بلطف وعطف لم أشعر معهما بشوط الهمة ، أوضح لي أن اليوم الذى قد يسلك فيه المريد يشار إليه دائماً بعلامات من الربة نفسها وأنها هى من يختار الكاهن الذى يقوم بالخدمة وتعلن كيف تدفع نفقات الحفل الطارئة . وكان من رأيه أن عليّ الانتظار بصبر جميل ، وتجنب لشديد الشوق ومفرط العناد ، فلا أكون إذا ما دعيت غير مجيب ولا ملحاحاً لجوحاً في انتظار النداء . وقال لى : «لم يكن واحد من الإخوان أبداً ليسئى أو يندس حرم المعبد ، أو ميالاً لإهلاك نفسه ، حتى يشارك فى السر دون أوامر مباشرة من الربة فيقع فى الخطيئة القاتلة . إن أبواب العالم السفلى وحفظ الحياة فى يديها ، وشعائر التنسيب تقارب الموت طوعية ، ليس فيه أمل فى البعث غير محقق . إنها تتخير فى العادة شيوخاً يحسون بدنو آجالهم وإن لم يبلغوا من العمر أرذله فلا يقدرّون على حفظ السر . وبفضلها يولدون من جديد وتعود حياتهم جديدة مليئة بالعافية» .

والحق أنه قال إن عليّ الرضا بانتظار أوامر محددة وإن وافق على انه قدّر لى خدمة الربة بعلامات جليلة من فضلها ، وإن عليّ اجتناب الطعام المحرّم كما يفعل الكهنة ، حتى يمكننى إذا آن أو ان مشاركتى إياهم أقدس أسرارهم ، أن أدخل الحرم بخطوات ثابتة .

تقبلت نصيحته وتعلمت الصبر ، أشارك فى قداس المعبد كل يوم ، هادئاً ساكناً ، بقدر ما استطعت ، وفى نيتى إرضاء الربة . ومرت فترة تجربتى دون كدر أو غيبة أمل . وبعد هذا بقليل قدمت لى برهاناً على فضلها برؤيا فى منتصف الليل أعلمت فيها بوضوح أن اليوم الذى طالما اشتقت إليه ، اليوم الذى تحقّق فيه أمنيتى الكبرى ، جاء أخيراً . وفهمت انها أمرت الكاهن الأكبر مئراس وهو من ربط قدره بقدرى لاشتراك قران

نجمينا ، بأن يقوم بالخدمة عند تنسيبي .

أبهجتني هذه الأوامر ، وغيرها صدرت لي في الوقت ذاته ، فنهضت قبل انبلاخ الفجر لأنبيء الكاهن الأكبر بنبأها فبلغت بابه بينما كان هو خارجاً منها . حييته ، وكنت على وشك رجائه رجاءً تفوق حرارته ما سبق ، أن يأذن لي بالانتساب ، باعتباره ميزة هي حقي الآن ، حين تكلم هو قائلاً : «لوكيوس .. أيها العزيز ! ما أكبر حظك ! وما أعظم البركة التي حلت فيك .. إذ تعطفت الربة العظمى بإكرامك في هذا الطريق ! لا وقت نضيعه ، فقد أشرق اليوم الذي طالما صليت له بحماسة غامرة . وها هي الربة المتعددة الأسماء تأمرني بأن أطلعك على أقدس أسرارها» .

أخذني من يدي ، وقادني بلطف إلى أبواب المعبد الواسع ، ولما فتحها بنفس الطريقة الخاشعة المألوفة وأدى طقوس الصباح ، مضى إلى المحراب ، وأخذ كتابين أو ثلاثة كتبت بحروف مجهولة عندي ، بعضها نقوش حيوان هيروغليفية وبعضها ، وقيت من أن يدنسها أحد بأن جدلت أعاليها وأسافلها عُقدًا أو دُورَت كالدوايب أو شبك بعضها في بعض في شكل لولبي يشبه محاليق العنب . وقرأ لي من هذه الكتب إرشادات التزود بالملابس اللازمة والمكملات الضرورية لتنسيبي .

انطلقت من فوري إلى صحابي الكهنة ، وسألتهم أن يشتروا قسمًا مما احتجت إليه ، دون أن يوفرُوا نفقة ، ومضيت لأشتري أنا الباقي .

وحين آن الأوان ، دعاني الكاهن الأكبر ، وأخذني إلى أقرب حمام ، يرافقني جمع من الكهنة ، فلما تمتعت بحمامي المألوف هناك ، غسلني هو نفسه ، ورشني بالماء المقدس ، وهو يتلو صلوات طلب الرحمة السماوية . وبعدها أعادني إلي المعبد ووضعتني عند قدمي الربة .

كان الوقت أوائل العشية فأصدر لي جملة وصايا أقدس من أن ينطق

بها فوق الهمس . ثم أمرنى على مسمع من الجميع بأن أمتنع عن كل شئ سوى أبسط الطعام طيلة الأيام العشرة التالية ، أولاً أكل لحمًا ولا أشرب خمراً .

أطعت أوامره بكل احترام ، ثم أخيراً جاء اليوم الذى أقسم فيه اليمين ، وما أن اقترب المساء حتى توافد حشد من الكهنة إليّ من كل صوب ، وكل منهم يقدم لي هدية التهنئة ، كما جرت العادة فى القديم ، ثم أمر الكاهن الأكبر كل من لم يكن منسباً بمغادرة المكان ، وخلع عليّ ثوباً جديداً من الكتان وقادنى من يدى إلى خلوة المحراب ذاتها . وما من شك عندى ، أيها الفضولى ، فى أنك مشوق إلى معرفة ما حدث عندما دخلت الخلوة ، فلو كان مأذوناً لي بأن أثبتك ، أو كان مأذوناً لك بأن تُنبأ ، لسمعت فى التوكل شئ . لكن لسانى فى واقع الحال ، سيشقى بسبب طيشه كما تشقى أذناك بسبب فضولهما .

مهما يكن الأمر ، ولا رغبة لي فى أن أتركك فى عذاب البلبال ، إذا ما كنت ذا ميول دينية ، فلسوف أسجل قدر ما يمكننى تسجيله دون الخروج عن الحد لغير المنسبين ، ولكن على شرط أن تصدقه .

(لقد دنوت من أبواب الموت ذاتها، ووضعت قدماً على عتبة بروسرين، ومع هذا ، أذن لي فى الرجوع ، مستغرقاً فى العناصر كلها، رأيت الشمس فى منتصف الليل تسطع كأنها فى رائعة النهار . دخلت حضرة أرباب العالم السفلى ، وأرباب العالم العلوى . وقفت بالقرب وتعبدت) .

حسن . ها أنت سمعت ما حدث ، لكننى أخشى أنك لم تزدد حكمة.

انتهت الشعائر الجلييلة عند الفجر ، وخرجت من المحراب ارتدى اثنتى عشرة حلة مختلفة ، وهى بالتأكيد أقدس الحلل ، لك لا بأس من ذكرى واحدة منها . فقد رآنى كثير من غير المنسبين أرتديها حين أمرنى الكاهن

الأكبر بارتقاء المنبر الخشبي الذي كان منصوباً في سبط المعبد أمام تمثال الربّة مباشرة . كنت ارتدى ثوباً خارجياً من الكتان الفاخر ، مطرزاً بالأزهار ، ووشاحاً ثميناً علق من كتفي إلى عقبي ، وقد نُقش على كل جزء منه الحيوانات المقدسة ، من مثل الأفاعي الهندية وحيوانات الرخم التي تقطن أقصى الشمال ، وهى أسود مجنحة تولدت في أقصى بقاع الأرض . ويدعو الكهنة هذا الوشاح : الحلة الأوليّة . أمسكت في يدي اليمنى بشعلة موقدة ، وعلى هامتي إكليل أبيض على هيئة نخلة ، يبرز سعفها ، يحيط برأسي كله كأنه أشعة النور .

فتحت السُّرَّ وكشفتُ فجأةً لنظرات الجمع الحاشد ، كما يكشف عن التمثال الستار ، أسطع في زيتي كالشمس . وكان ذلك اليوم أسعد أيام سلوكي الطريق ، احتفلت به كأنه عيد ميلادي بوليمة بهيجة ، حضرها أصدقائي جميعاً . وفي اليوم الثالث أدت شعائر وطقوس أخرى ، من جملة إفطار مقدس ، وبها ختمت مراسم التنسيب . وقد لبثت أياماً أخرى في المعبد أتمتع بلذة التأمل في تمثال الربّة متعةً لا يمكن التعبير عنها بالكلمات ، إذ شددت إليها بدين كبير من الامتنان لا أقدر على الرجاء في رده أبداً ♦

في المحفل

بعد مدة أشارت عليّ الربة أن أعود إلى وطني . حمدتها قدر ما استطعت ، لا قدر ما تستحق ، وأخرت من رحيلي ، إذ وجدت من العسير عليّ أن أشد نفسي من مكان أحببته كل هذا الحب .

خررت ساجداً عند قدمي الربة ، وغسلتهما بدموعي ، وأنا أصلي لها بصوت تخنفه العبرات : « يا قدس الأقداس ! يا راحة البشر الأبدية ! أنت يا من يُقيتُ فضلها الغزير العالم ، من يتجه فؤادها نحو الحزاني والمنكوبين كما يلتفت قلب الأم إلى أولادها . أنت يا من لا ترتاح آناء الليل وأطراف النهار ، بل تستجيب لاستغاثة المكروبين في البر والبحر ، تبدّد ما يغشاهم من أعاصير ! يدك وحدها قادرة على فك أحابيل القدر المعقودة ، وأن تنهى كل دورة من دورات الطقس المكفهر ، وتكبح النجوم عن قران ضار ! تهيم بك الأرباب في العلا ، ويدين لك الأرباب على الأرض بالطاعة ! تضعين مدار الأجرام السماوية لتدور حول أقطابها ، وتمنحين الشمس الضياء ، وتحكمين الكون ،

وتطأين قوى الجحيم . تتحرك الأنجم لصوتك ، وتتوالى الفصول ، وتستهج أرواح الأرض ، وتناقذ العناصر . وإيمائك تهب الرياح ، وتنزل المزن غزير الغيث على الأرض ، وتنمو البذور ، وتزدهر البراعم . ترتعد الطيور المحلقة في السماء ، وكل حيوان يجوس خلال الجبال ، والشعابين الكامنة في التراب ، جميعها رهبةً منك . فصاحتي دون حمدك بما أنت أهل

له ، ومالى دون تقديم مالك علي فى عنقى من قرايين ، وصونى دون الجهر بكل ما أفكر فيه من جلالك - كلا .. حتى وإن كان لي ألف لسان فى ألف فم ولا أصمت أبداً . سأبذل ، أنا المسكين ، كل مالى من جهد لأفراغ لعبادتك . سأجعل محياك الأقدس دائماً نصب عيني وأحفظ معرفة سر قدستك مكنونة فى أعماق فؤادى ! » .

ثم مضيت إلى الكاهن الأكبر مثراس ، وقد صار أبى الروحى ، وتعلقت بعنقه أقبله مرة بعد مرة ، وأرجوه أن يغفر لي عجزى عن ردّ أطافه كما تستحق . وقد استغرق مني هذا الوداع وقتاً طويلاً خشى معه لا بد ، أننى لن أتوقف أبداً عن قولى : « أشكرك ، أشكرك ... أوه ... أشكرك ! »

عزمت على المضى رأساً إلى بلدى (مدورة) بعد غيبتى الطويلة ، غير أن الربة طلبت مني بعد بضعة أيام أن أحزم متاعى على عجل وأركب سفينة إلى روما . وكما يمكن توقعه هبت الريح رخاءً طيلة رحلتى ، وسرعان ما كنت فى مرفأ أوستا ، حيث اكرتيت زورقاً سريعاً وبلغت المدينة المقدسة مساء اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر . وكان أول عمل قمت به أن زرت معبد الربة فى حقل مارس وهو ما أسبغ عليها اللقب المحلى «سيدة الحقل» ، وهناك حضرت قداساتها اليومية . ورغم كونى أجنبياً فقد منحنى الكهنة حريتى فى معبدها بسبب تنسيبى إلى أسرارها فى كورنثة .

كانت الشمس قد أتمت دورتها حول برجها ، حين زارتنى الربة الودودة ، وكانت لا تزال ترعانى فى حلم وأمرتنى بالاستعداد لتنسيب جديد ويمين جديد . لم أعرف المطلوب منى أو ما هو المقروض أن يحدث . ألم أنسب للطريقة من قبل ؟ فكرت فى الأمر ملياً واستنصحت الكاهن الأكبر ، ثم خطر لى بقوة المباغته أننى حتى الآن أطلعت على أسرار إيزيس ، ولم أطلع بعد على أسرار أبى الأرباب العلى - أوزوريس الذى لا يقهر . إذ رغم أن طبيعتهما القدسية مرتبطتان ، بل موحدتان بمعنى متعال ، فإن هناك بالتأكيد

فرقاً كبيراً بين شعائر التنسيب فى ديانتيهما المنفصلتين . حدثت أن الرب العظيم أرادنى خادماً له ، وصدق حدسى الليلة التالية . حلمت أن كاهن أوزوريس دخل غرفتى بكتان أبيض وقُضِبَ من شجر الشربين وأكاليل من العاج وأشياء مقدسة أخرى ، غير مأذون لى بذكرها ، ووضعها بين أصنام البيت ، ثم جلس فى كرسيّ وطلب منى أن أولم وليمة دينية . وقد لاحظت أنه يمشى مشية عرجاء وعقب قدمه الأيسر قد التوى قليلاً ، واعتبرت هذا علامة يمكننى من التعرف عليه ثانية إذا ما رأيته بشراً سوياً ، وها قد بينت إرادة الأرباب تمام التبيان . انطلقت إلى المعبد لأصلى للربة صلاتى اليومية ، وما أن ختمت صلاتى حتى نظرت عن كئيب إلى الكهنة لأرى إذا كان أحدهم يشبه من رأيته فى الحلم .

عرفت الرجل من توى . كان أحد حملة الهيكل ، ولم يكن عقبه ملتوياً فحسب بل إن طوله ومظهره العام تطابقا كل التطابق مع رؤياي . وظهر أن اسمه كان أسينيوس مارسيللوس ، وبدا أن اسم أسينيوس * يشير إلى تحولى إلى جحش . مضيت رأساً إليه فأدركت انه كان يعرف بالضبط ما سأقول ، إذ وجهه بمثل ما وُجِّهت به ، وبدا أنه سمع فى الليلة الماضية ، وهو يضع الأكاليل على تمثال أوزوريس ، وحيأ يخرج من فمه المقدس معناه بالتحديد أن رجلاً من (مَدَوْرَه) أرسل إليه ، عليه أن يعلمه ، رغم فقره ، أسرار المقدسة على الفور . وأضاف الرب أن هذا الرجل سينال ، تحت رعايته ، شهرة فى حرفة من حرف المعرفة ، وأن أسينيوس ذاته سيجازى خير الجزاء على ما يتجشم من عناء .

هكذا نذرتُ لغوامض الأسرار ، غير أن انتسابى لسوء الحظ ولخية أملى الكبيرة ، لم يكن ميسراً بعد ، إذ لم يكن لدي مال يكفى لدفع تكاليف الشعائر ، فقد التهمت نفقات رحلتى ما كان معى من مال يسير عند رحيلى

* Asinius باللاتينية تعنى : جحش .

من كورنثة . ولقد وجدت العيش فى روما أبهظ كثيراً منه فى الأقاليم .
أغمّنى أن يُخيب الفقر أمانىَّ ، وأحسست ، كما يقول المثل ، بأننى ضحية
وقعت «بين المطرقة والسندان» وما زاد الأمر سوءاً ، أن الرب طفق يظهر بين
الحين والآخر فى رؤى ليلية يذكّرنى بأوامره ، وأخيراً أمرنى بأن أخلع القباء
عن ظهرى وأبيعه ، وقد فعلت دون تردد ، واستطعت رغم أن القباء لم يكن
فاخراً ، أن أحصل به على مبلغ من المال كاف لدفع رسم التنسيب . وقد
قال الرب : «إن كنت تبغى شراء شئٍ يمنحك الرضا الحقيقى فهل تراك تتردد
لحظة فى التخلّى عن ثيابك؟ إذن ما بالك وأنت على وشك المشاركة فى
سرى المقدس ، تتردد فى تسليم نفسك لفقرٍ لن تندم عليه أبداً؟!»

هيات كل شئ . أمضيت عشرة أيام أخرى دون أن أأطعم لحمًا ،
واستسلمت لحلاقة رأسى تماماً ، أدخلت بعدها إلى قصوف الرب الليلة
وصرت من المستنيرين بنوره . شاركت فى قداسه وقرابينه بثقة ، منحتنى
إياها معرفتى لطقوس إيزيس المشابهة ، وقد عزانى هذا التنسيب عن بقائى
مجبوراً فى بلد ليس بلدى ومكّننى فى الوقت ذاته من العيش أقل تقشيراً ، إذ
سهّل أوزوريس ، رب الحظ الحسن ، طريقى وعشت عيشة راضية بالعمل
محامياً ، رغم انه كان على الترافع باللاتينية وليس باللسان اليونانى .

بعد هذا بمدة قصيرة ، هل تصدق .. أمرت فى رؤيا أخرى بأن أمضى
فى تنسيب ثالث ، دهشت وتحيرت عجزاً عن معرفة رأس الأمر من ذيلة .
لقد نسبت مرتين من قبل ، فما السر الغامض الذى لم يكشف لى بعد ؟
وتفكرت : «لابد أن الكهنة خدعونى . إما انهم قدموا لى كشفاً زائفاً أو
انهم أخفوا عني شيئاً» وأشهد اننى شرعت أيضاً أرتاب فى انهم يغشوننى .
وبينما كنت محتاراً فى الأمر ، أكاد أجن من شدة القلق ، بين لى رب
ودود ، لم أعرف اسمه ، القضية لى فى الحلم ، وقال : «ما من سبب لديك
لتنزعج من أمرك ، بمعاناة تنسيب آخر ، أو أن ترتاب فى أن شيئاً حجب

عنك فى الشعائر الماضفة . على العكس ... ففب أن تُسرَّ بفإشارات الفضل الإلهف المكررة هذه التى أُرُظهرت لك ، وتبتهج فذ وُهبث ثلاث مرات فضلاً فنالها القفللون مرةً واحدة . ثق ، مطمئن البال ، أن قدسفة الرقم (ثلاثة) تلقف فلك بركة أبدفة وأن من اللازم لك أن تمضى فى تنسفف ثالث . فذكر فقط أن رداء الربة الذى كُسِفته فى كورنثة لا فزال مُدخراً فى المعبد هناك ، وحتف لو كنت جئت به معك فما من أمر فصدر فلك لترفدبه هنا حتف فى شعففة الابتهاال . انه رداء فونانى لا فمكن الاعتراف به مسبغاً فلك جلال كاهن من كهنة (سفة الحقل) فأن رغبت فذن فى مفعفة الصعفة والسعادة والفوفف ، فجب فلك معاملة الأرباب العظام باعتبارهم ناصفهن لك ، والفخضوع للتنسفف ، فرحاً كذف قبل .

أقنعتنى هذه الرؤفا القدسفة بأنه ففر لى أن أطفع ، فمضفت مباشرةً إلى الكاهن الأكبر ، دون إهمال أو تأجفل ما فى فدى من عمل ، وأفبرته برؤفاى . ثم صُمت مرةً أخرى ، طواففة هذه المرة ، مطفلاً مدة امتناعف عن اللحم ، ودفعت النفقات عن آخرها من ففبى ، ثملى المبلغ حماسف الفدلفة أكثر مما تملف حاجات المعبد .

وما من سبب كان فدفعنى للندم على ما فحشمت من عناء ، أو دفعت من مال ، فذ بفضل الآلهة سرعان ما عوضتنى الرسوم التى كنت أفعاضاها فى قاعات المحاكم عن كل شئ . وأفبراً ، بعد بضعة أفام ، ظهر لى الرب أوزورفس أعظم الإرباب و «الأسمف من كل عظمف ، والأعظم من كل سامف ، وسفد العظماء» نفسه فى حلم . وقد فخفى فى الحلم السابق ، أما هذه المرة فقد تنازل لىخاطبنى بشخصه هو نفسه ، بفمه الأقدس ذاته . أكد لى أننى سأصفف فى القرفب العاجل محامياً شهفراً ، وأن على ألا أخشى الكاشفهن ذوف الغل من سفعرضنى لهم العلم الذى نلته بعناء الفدرس ، وانه فرغب منى العون فى شعائره المقدسة رفقة كهنته الآخرين ، وانه لذا

اختارنى ليس عضواً فى طبقة سدنة الهيكل فحسب ، بل مستشاراً للمعبد
مدة الخمس سنوات القادمة .

ومرة أخرى حلقت رأسى ، وتركته هذه المرة مخلوقاً ، وقمت سعيداً
بواجبات هذه الكلية العتيقة التى أنشئت أيام الجبار سولا . ولم أحاول أبداً
أن أخفى صلعى بوضع شعر مستعار أو غطاء على رأسى ، بل عرضته
للأنظار ، دونما خجل ، فى جميع المناسبات ! ♦

تم

المحتويات

5	تقديم
9	حكاية أريستوميس
25	في بيت ميلو
43	قصة ثيلوفرون
55	مهرجان الضحك
69	لوكيوس يتحول
81	كهف اللصوص
95	كيويد وبسوكي (1)
109	كيويد وبسوكي (2)
123	كيويد وبسوكي (3)
143	هزيمة اللصوص
159	في مزرعة الخيول
175	مع الكهنة الخصيان
193	في الطاحونة
207	مع الخضري والشاويش
217	في بيت المستشار
227	عند المدرب
237	الربة إيزيس تتدخل
247	الجحش يتحول
261	في المحفل

المؤلف

د . علي فهمي خشيم

- أمين عام مجمع اللغة العربية . طرابلس . الجماهيرية .
- أمين عام رابطة الأدباء والكتاب . طرابلس . الجماهيرية

مؤلفاته

- **النزعة العقلية في تفكير المعتزلة :**
دراسة في قضايا العقل والحرية عند أهل العدل والتوحيد .
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٦٦
الطبعة الثانية - المنشأة العامة للنشر ١٩٧٥
- **الجباثيان .. أبو علي وأبو هاشم :**
بحث في مواطن القوة والضعف عند المعتزلة في قمة ازدهارهم وبداية انهيارهم .
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٦٨
- **أحمد زروق والزروقية :**
دراسة عن أحد أعلام التصوف الإسلامي في شمال أفريقيا . حياته وعصره ومذهبه وطريقته ..
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٧٥
الطبعة الثانية - المنشأة العامة للنشر ١٩٨٠
- **الكناش :**
صور من ذكريات الحياة الأولى لأحمد زروق .. بقلمه . مع مقدمة وتحقيق .
الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٨٠
- **كتاب الإهانة : لأحمد زروق : تحقيق وتعليق .**
الطبعة الأولى - الدار العربية للكتاب ١٩٧٩
- **نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى :**
ترجمة كتاب (وليام سذرن) : W. Southen, Western Views of Islam in the Middle Ages مع التعليق عليه ، ومقدمة ، بالاشتراك مع د . صلاح الدين حسن
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٧٦
- **حديث الأحاديث :**
مناقشة صريحة لأراء وأفكار الشيخ محمد متولي الشعراوي .
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٧٨
- **نصوص ليبية :**
ترجمة لكتابات مشاهير المؤرخين والجغرافيين اليونان واللاتين عن ليبيا القديمة مع مقدمات وتعليقات وشروح .
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٦٨
الطبعة الثانية - دار مكتبة الفكر ١٩٧٥

- قراءات ليبية :

مقالات مركزة عن الحياة والناس والأرض والتاريخ والأسطورة في ليبيا حتى الفتح الإسلامي .
الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٦٩

- الحاجة :

من ثلاث رحلات في البلاد الليبية . رحلات الناصري والمثالي والفاصي في ليبيا محققة
ومشرحة ..

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٧٤

- دفاع صبرانة Apologia :

النص الكامل لدفاع (أبوليوس المداوري) في محاكمته بمدينة صبرانة مع مقدمة تحليلية
وتعليقات .

الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٧٥

- الأزاهير Florides :

نماذج من كتابات وخطب (أبوليوس المداوري) .

الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٧٩

- محولات الجحش الذهبي :

رواية أبوليوس المداوري الشهيرة Metamorphoses مترجمة إلى العربية مع مقدمة تحليلية

الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٨٠

الطبعة الثانية - المنشأة العامة للنشر ١٩٨٤

الطبعة الثالثة - مركز الحضارة العربية ١٩٩٩

- حسناء قورينا :

مسرحية (بلاوتوس) Plautus باسم Rudens

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٦٧

- حسان :

مسرحية (جيمس فلكر) J . flecker. Hassan

الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٧٧

- الحركة والسكون :

مجموعة مقالات وبحوث نقدية في مختلف الموضوعات التي اهتم بها الكاتب ..

الطبعة الأولى - دار مكتبة الفكر ١٩٧٣

- أيام الشوق للكلمة :

مقالات وبحوث ودراسات .

الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٧٧

- مر السحاب :

مقالات قصيرة في السياسة والأدب والاجتماع .

الطبعة الأولى - المنشأة العامة للنشر ١٩٨٤

- بحثاً عن فرعون العربي :

دراسات وبحوث في اللغة والتاريخ العربي والليبي - بنظرة جديدة للتراث الحضاري .

الطبعة الأولى - الدار العربية للكتاب ١٩٨٥

الطبعة الثانية - مركز الحضارة العربية ١٩٩٩

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية .. قصة

رواية .. قصة	لبلة العشق والد	إبراهيم عبد المجيد	الشاعر والحرامي	عزت الحريرى
حمدان طليقاً	تباريح الوقائع والجنون	أحمد عمر شاهين	فى انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيرى
رقصة الأحلام الملحية	مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط	إينارو	د. على فهمى خثيم
لا أحد يحبك	دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	إدوار الخراط	خولات الجحش الذهبى	عقاف السيد
مطربة الغروب	صمغ إيزيس	جمال الغيطانى	سرايب	د. غريبال وهب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	حب وظلال	جمال الغيطانى	بنابيع الحزن والمسرة	فتحي سلامة
الحب والنتار	ترانزيت	حسنى لبيب	يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوى
أيام الفرع فى الجزائر	مشوار	خالد عمر بن ققه	وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
يومية هروب	الرجل	خالد عمر بن ققه	خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
مسائلك الأحبة	رجال عرفتهم	خيرى عبد الجواد	حب وظلال	كوثر عبد الدايم
العاشق والعشوق	الحلم	خيرى عبد الجواد	ترانزيت	ليلى الشربيني
حرب ايطاليا	النغم	خيرى عبد الجواد	مشوار	ليلى الشربيني
حرب بلاد نمم	الخرابة 2000	خيرى عبد الجواد	الرجل	ليلى الشربيني
حكايات الديب رماح	كوميديا الإنسجام	خيرى عبد الجواد	رجال عرفتهم	ليلى الشربيني
الطريق والعاصفة	أشياء لا تموت	رأفت سليم	الحلم	ليلى الشربيني
فى لهيب الشمس	إلحاح	رأفت سليم	النغم	ليلى الشربيني
اركبوا دراجاتكم	بعد صلاة الجمعة	رجب سعد السيد	الخرابة 2000	محمد الشرقاوى
أنا كنده	الخروج إلى النبع	كبروجا : ترجمة : رزق أحمد	كوميديا الإنسجام	محمد بركة
سيرة عزة الجسر	رشفات من قهوتى الساخنة	سعد الدين حسن	أشياء لا تموت	محمد صفوت
شجرة الخلد	الحبيب المجنون	سعد القرش	إلحاح	محمد عبد السلام العمرى
شهقة	فندق بدون نجوم	سعيد بكر	بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمرى
أيام هند	الهروب مع الوطن	سيد الوكيل	الخروج إلى النبع	محمد قطب
للمنوع من السفر	نسيج الأسماء	شوقى عبد الحميد	رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين
الدميرة	ثلاث حقائب للسفر	د. عبد الرحيم صديق	الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
جسد فى ظل	حافة الفردوس	عبد النبى فرج	فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الفوز للأمالك والنصر للأهلى	ديسمبر الدافئ	عبد اللطيف زيدان	الهروب مع الوطن	تمدوح القديرى
لبس هناك ما يبهج	خلف النهاية بقليل	عبد خال	نسيج الأسماء	منتصر القفاش
لا أحد	فرد حمام	عبد خال	ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
سعيدى صبح		د. عزة عزت	حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد

شعر ..

أول الرؤيا

رويدا بناجها الأرض

قصائد حب من العراق

بدلاً من الصمت

من فصول الزمن الرديء

تماماً إلى جوار جنة يونسكو

كانها نهاية الأرض

الألوان ترتعد بشراة

صلاة المودع

دنيا تنادينا

تلف

إبراهيم زولى

إبراهيم زولى

البياتى وآخرون

درويش الأسىوطى

درويش الأسىوطى

رشيد الغمرى

رفعت سلام

شريف الشافعي

صبرى السيد

طارق الزباد

ظبية خميس

البحر ، النجوم ، العشب في كف واحدة ظبية خميس

كتاب الأمكنة والنوارىخ عبد العزيز موافى

حوايدت لفندى عصام خميس

سيرة الماء د . علاء عبد الهادى

راتب الألفة علوان مهدي الجيلاتى

إضاءة فى خيمة الليل على فريد

نصف حلم فقط عماد عبد المحسن

عطر النغم الأخضر عمر غراب

سدراب القمر فاروق خلف

إشارات ضبط المكان فاروق خلف

أوراق مسافر فيصل سليم التلاوى

إنهب قبل أن أبكى د . لطيفة صالح

الخربة والعشق مجدى رياض

مشاعر همجية محسن عامر

غربة الصبح محمد الفارس

وئس محمد الحسينى

لبالى العنقاء محمد محسن

الجوز للمراوغ يبيع أطراف النهر نادر ناشد

هذه الروح لى نادر ناشد

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة

اللعبة الأبدية .. (مسرحية شعيرة)

ملكة القروء

دراسات ..

هاجس الكتابة

خديات عصر جديد

حصاء الذاكرة

الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية د . أحمد إبراهيم الفقيه

قراءة المعانى فى بحرالحوالات د . أحمد إبراهيم الفقيه

ضد هدم التاريخ وموت الكتابة د . أحمد إبراهيم الفقيه

اللغة والشكل أمجد ريان

المتقفون العرب والتراث جورج طرابيشى

ثقافة البادية حاتم عبد الهادى

المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين خليل إبراهيم حسنة

أدب الشباب فى ليبيا خليل إبراهيم حسنة

العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى خليل إبراهيم حسنة

أباطيل الفرعونية سليمان الحكيم

مصر الفرعونية سليمان الحكيم

البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية سمير عبد الفتاح

رواد الأدب العربى فى السعودية شعيب عبد الفتاح

الكتابة المشروع شوقى عبد الحميد

رحلة الكلمات د . على فهمى خنيس

بحثاً عن فرعون العربى د . على فهمى خنيس

أعلام من الأدب العالمى على عبد الفتاح

هيمنجواى حياته وأعماله الأدبية د . غريال وفة

زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة مجدى إبراهيم

فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع محمد الطيب

الجاء والتبعية الثقافية د . مصطفى عبد الغنى

أدب الطفل العربى بين الواقع والمستقبل بمدوح القديري

الرواية العربية : رسوم وقراءات نبيل سليمان

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال .

خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة

الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة .

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز

تحوّلات

الجحش الذهبي

كلما ذكر اسم "أبوليوس" في مصدر من المصادر ، أو مجلس من المجالس ، قفزت إلى الأذهان مباشرة صورة ذلك "الجحش الذهبي" العجيب وهو يروح هنا وهناك ، يمر بمغامرة ليدخل أخرى ويتنقل من مكان إلى آخر ، يختزن في ذاكرته المدهشة ما صادفه من قصص وأحداث ، ليرويها فيما بعد للأجيال ويسجلها أثراً من أخلد الآثار الأدبية في العالم . وتنفرج الشفاه عن ابتسامة ، وترتفع الأكف لتخفي ضحكة تغالب صاحبها حين يذكر فقرات هذه الرواية .

في الأصل اللاتيني تميّزت هذه الرواية بثلاثة أشياء : لغتها ، وأحداثها ، وأفكارها . وهي نقلت إلى أغلب اللغات الحية ، ومن أهمها الإنكليزية التي نقلت عنها إلى العربية .

